

القول القصار

بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون

بقلم
أفقر عباد الله إلى ربه الكريم

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً

القاهرة ١٣٦١

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

obeykandi.com

كلمة المؤلف

ما زلت منذ بضع سنين مشتغلاً بتأليف كتاب درست فيه جلّ ما يحتاج المسلم المتعلم الى معرفته لوقاية عقيدته الدينية من الزيغ العصري الذي ازداد مع ازدياد أيام حياتي بمصر وقوفاً عليه ، وعلى أنه مرض من الامراض السرية المزمنة في كثير من المتعلمين ، لا المثقفين الثقافة الغربية فقط ، بل ان لهذا المرض عدوى الى بعض الموظفين بوظائف علماء الدين أيضاً ، حتى اني وجدت في نفس بعض المعنوين بالمصلح فساداً ، والقائمين للدفاع عن الدين إلحاداً ، ربما لم يطلع غيري عليهما ، أو لم يتشجع لمناقشة أصحابهما الحساب ، وحتى ان موجة الشك تطاولت في قلوبهم الى مسألة وجود الله ، فلو اقترحت عليهم اثباتها بعد تنصل العلم الحديث عنها واكتفائه بالتشكيك فيها لوجدتهم مذبذبين بين المعجز عن اثباتها بالعلم القديم وبين عدم الاعتداد بأدلة ذلك العلم . وقد ذكرت في مقدمة الكتاب الطويلة جداً وثائق من نشرات الصحف والمجلات لتلك الحالة السيئة ، لئلا يكون عيبها مني عابهم رجماً بالغيب

فكتبت كتابي غير آل جهداً في مداواة ذلك المرض الذي كاد يكون عاماً ، وفي القضاء على أسس ذلك الزيغ التي زعم المتمسكون بها منذ أزمنة من الماضي القريب أنها أسس علمية بحقيقة معنى الكلمة ، وربما غروا جيلاً من الناس بدعواهم هذه

وقد سميت الكتاب : « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورسله »

ولكون الكتاب يكون ثلاثة مجلدات قررت ارجاء نشره الى انفراج أزمة الورق

ثم حدث في الأيام الأخيرة ان الشيخ شلتوت الذي عرفته من قبل بما أنكر وجرد الشيطان كما يصوره كتاب الله ، ورددته عليه في كتابي المار الذكر ، نشر

مقالة في مجلة « الرسالة » عدد ٤٦٢ ينكر فيها رفع عيسى عليه السلام الى السماء حياء، ونزوله الى الارض في آخر الزمان، فكتبت رداً عليه أيضاً وأرسلت هذا الرد الى مجلة الثقافة. ولما مكث الرد في ادارة المجلة زهاء شهر واطلعت على أن أصحابها لا يريدون نشره، واطلعت مع ذلك على رغبة كثير من المسلمين في أن أقول قولي بهذا الصدد كما قال بعض علماء الدين الغيورين جزاهم الله عن المسلمين خيراً ، ونشرت مقالاتهم في بعض المجلات ، أخذت من كتابي الباب الثالث المختص بدرس مسائل النبوة والمعجزة والنشأة الآخرة، وبأدرت الى نشره على شكل كتاب صغير قبل نشر الكتاب كله ، ليكون نموذجاً له ، وجواباً عاجلاً في المسألة الموضوعية موضع البحث، وليكون الذين ضنوا بالجواب أن يتسع لقاتلي ، مجابهين بكتاب بدل مقالة ، وجعلت اسم هذا الكتاب :

« القول الفصل »

« بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون »

والله تعالى أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، انه سميع قريب مجيب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم ذلك الكتابُ لارِيبَ فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيبِ ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من اصطفاهم برسالته الى الناس ، وجعل لهم من الآيات البينات الخارقة لسنته في السكون علامات يمتازون بها على الذين أرسلوا اليهم ، أخص بالذكر منهم رسولنا وسيدنا محمداً ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

وبعد . فما لا يخفى على ذوى الأعين الساهرة ، بعد أن سادت المادة في الغرب ، وأخذ الشرق يهتدى بهدى الغرب ، ما طرأ على القلوب الضعيفة من انكار المعقولات والمغيبات التي في رأسها رب المشرقين ورب المغربين ، حتى ان الاستاذ فريد وجدى سبق له في مقالة من مقالاته المنشورة في « مجلة الازهر » (الجزء الخامس من المجلد الثامن) أن جعل الايمان بالغيب الذي هو أول صفة وصف الله بهاء عباده المفلحين ، مقابلاً للايمان بالواقع فنزل الايمان بالغيب بهذه المقابلة منزلة الايمان بغير الواقع

وحتى ان هذا الاستاذ قال في أثناء مناقشة جرت بينى وبينه ، ونشرت في ضمن مقالات من الطرفين على صفحات جريدة « الاهرام » قولاً ذكرته في مقدمة كتابي المار الذكر بين أسباب تأليفه ، وكان ذلك قبيل تولى الاستاذ رئاسة تحرير مجلة الازهر أعنى أيام كان حراً عن الوظيفة الرسمية الأزهرية

وهذا نص قول الاستاذ أعيدته هنا بنصه :

« ... في تلك الأثناء ولد العلم الحديث، وما زال يجادل القوى التي كانت تساوره حتى تغلب عليها، فدالت الدولة اليه في الأرض، فنظر نظرة في الأديان، وسرى عليه أسلوبه، فقذف بها جملة الى عالم الميتولوجيا (الاساطير) ثم أخذ يبحث عن اشتقاق بعضها عن بعض، واتصال أساطيرها بعضها ببعض فجعل من ذلك مجموعة تقرأ للتقدس تقديساً، ولكن ليعرف الباحثون منها الصور الذهنية التي كان يستعبد لها الانسان نفسه، ويقف على صيانتها جهوده، غير مدّخر في سبيلها روحه وماله

« وقد اتصل الشرق الاسلامي بالغرب منذ أكثر من مائة سنة فأخذ يرتشف من مناهله العلمية، ويقتبس من مدنيته المادية، فوقف فيما وقف عليه على هذه الميتولوجيا، ووجد دينه ماثلاً فيها فلم يبتس بكلمة لانه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله، ولكنه استبطن الالحاد وتمسك به، متيقناً انه مصير اخوانه كافة متى وصلوا الى درجته العلمية

« وقد نبغ في البلاد الاسلامية كتّاب وشعراء وقفوا على هذه البحوث العلمية فسحرتهم، فأخذوا يهثثون الأذهان لقبولها دساً في مقالاتهم وقصائدهم غير مصارحين بها غير أمثالهم، تفادوا من أن يقطعوا أو ينفوا من الأرض »

ثم أدخل الاستاذ نفسه في الذين أسلاهم الاتصال بعلوم الغرب عن دينهم ثم أخرجهم من بينهم. ولا حاجة لتنبيه القارئ النبيه الى أن الدس الذي ذكره الاستاذ لنوابغ الشرق الاسلامي المستبطين للالحاد بعد ارتشافهم من مناهل العلوم الغربية، له أنواع وأساليب لا تحصى ولا تحصى، حتى ان منها الادخال والاخراج اللذين خصهما لنفسه كما يظهر من الاطلاع على صورتهم المذكورة في مقدمة الكتاب. ومن ذلك الوقت الطويل الذي لفتنى افشاء الاستاذ فيه عن كتّاب المسلمين المستبطين للالحاد،

واستبطنتُ أنا أمرهم ، لقيت من دسائسهم ما يجعل أسباب التأليف التي ذكرتها وأطلت الكلام في ذكرها في مقدمة الكتاب ، محصول الاستقراء الناقص ، حتى استدركت ما فاتني في المقدمة من تلك الاسباب ، وذكرته في أمكنة مختلفة من صلب الكتاب

وأبرز مميزات هؤلاء الكتاب والعلماء المتفقيين معهم انهم ينكرون المعجزات الكونية ، ويعتبرونها من المستحيلات ، وقد سبق في مقدمة الكتاب كيف أنكرها الاستاذ فريد وجدى ، وأنكر معها البعث بعد الموت ، وردّ جميع آيات القرآن الواردة في كل من الموضوعين الى التشابهات التي لا تفهم معانيها

وبعضهم يخص انكاره بمعجزات نبينا من ذلك القبيل ، ويعتبر تجرده منها ميزة له على سائر الانبياء ، حتى ان فضيلة الاستاذ المراغى قال فيما كتبه تقریظاً على كتاب « حياة محمد » الذى أخلاه مؤلفه عن المعجزات ، والتقریظ منشور في صدر الكتاب : « وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحننا بما تمسي العقولُ به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم
ومن مميزاتهم البارزة في الأيام الأخيرة أنك تراهم يسمون أن يقيموا مقام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عبقرية يجعلونها موضع عنايتهم ، ويكتبون عنها بدلا من نبوته ، تفضيلاً لمناقبه التي يتفق على تعظيمها من يدين برسائله الدينية ومن لا يدين له برسالة ، على التي ينفرد بتعظيمها المسلمون

وقد أفصح أحد دعاة العبقرية - أعنى به الدكتور زكى مبارك - عما أضمره غيره ، فقال في مقالة منشورة في العدد الخاص من مجلة « الرسالة » بأول العام الهجرى ١٣٥٨ :

« سيأتى يوم - قريب أو بعيد - يثور فيه الناس على الامور الغيبية ، ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على عبقرية محمد » ومعناه أن نبوته غير مأمون أن يثار عليها حتى من الذين يدينون بها لكونها من الامور الغيبية . فينجلي من هذا ان تخصيصهم

العبقريّة بالبحث والدرس ناشئ من عدم كون نبوته صلى الله عليه وسلم متيقنة عندهم
تيقن عبقريته ، والا فما ذا هو دافعهم الى هذا التخصيص الرامى الى إنساء نبوته في
ترويج عبقريته ان لم تكن العبقريّة أفضل وأسمى من النبوة وأسلم من الشبهة ؟ أليس
غريباً أن يقوم كاتب من المسلمين فيكتب حياة سيدنا محمد كما يكتبها كاتب أجنبي عن
الاسلام منصف مقدر لعظمة محمد نافذ النظر في اعماق عظمته ، ولكنه على كل حال
غير تام التقدير حيث لا يجعل نبوته التي هي معدن تلك العظمة الجامعة للعظمت ، في
رأس ما يعنى به من حياته ، أو غير تام الحظ حيث لا تدركه الهداية الالهية للايمان به
على انه نبي من أنبياء الله

فان قيل - اعتراضاً على - ان كاتبنا الساعى لاثبات عبقرية نبينا لا يبنى نبوته ، أقول :
وهذا عبقرية الكاتب ^(١) . لكن واجب القارىء اليقظ أن يبحث عن سبب هذا
الانحراف في اختيار الموضوع ، ويقول في نفسه ماذا هو منشأ التهالك من كتابنا
العبقرين على هذا النوع من مواضيع الكتابة عنه صلى الله عليه وسلم في زمان
ضعف فيه الايمان بالامور الغيبية ، حتى لم يستبعد وقوع الثورة عليها من الناس ؟
أليس فيه تأييد لذلك الضعف ، واشتغال بملافاة ما كاد ينسى وينكر من نواحي
عظمته بما لا يقبل النسيان والانكار منها ؟ مع أن في هذه الملافاة أيضاً تأكيداً
لإنساء ما أصبح على وشك النسيان

(١) فهو يمثل دور المعنى بعبقريته فقط من دون تصريح بنبوته ، وقد كان آخر من زملائه
نقى معجزاته غير القرآن ، فكأنه أبقي القرآن دليلاً لنبوته ، على أنه سيأتى كلام منا على هذا الإبقاء ،
وهناك زميل ثالث يتوقع الثورة على الأمور الغيبية التي تندرج فيها النبوة والمعجزة مطلقاً . أى يثور
عليها حالاً في هذا الأسلوب . فبالنظر الى مجموع هذه الأقوال والأدوار التي يكمل بعضها بعضاً تنهار
النبوة وتبقى العبقريّة ، ويتحقق قول المستشرق مؤلف « الأبطال » : « محمد البطل في صورة النبي ! »
ذلك القول الذي لا يستبعد كونه ملهماً لكتاب العبقريّة من تلاميذ المستشرقين في الشرق ،
ما يكتبون .

وهذه النقاط الدقيقة اللائحة ببالى إن كان أناس من القراء ينكرون خطورها بأذهان كتاب العبقريّة كان ذلك انكاراً منهم لعبقريّة الكتّابين أنفسهم، وإساءة الظن بهم أكثر مما يرون منها فى ظنى ؛ فإن كان مسلمو زماننا لا خوف على دينهم من تشكيك المشككين بالنسبة الى كل زمان مضى فى الاسلام ، وكان الكتّابون المعصريون النوايخ أجدر الناس بالاعتماد على صحة عقائدهم وسلامة نواياهم حتى بعد افشاء الاستاذ فريد وجدى عن سرائرهم ومراميتهم فى كتاباتهم ، فأرضى أن أكون أنا الملولم بسوء الظن ، وأختار لنفسى هذا الموقف على ما يختار هؤلاء الكتّاب للمسلمين من موقف الحق !

ثم ان الكتابة والتأليف لا بد أن يتضمن دعوة القراء الى الاقتناع بشيء ، فإن كان فى دعوة الناس الى الايمان بعبقريّة سيدنا محمد كسب القراء من غير المسلمين فهذا الكسب الحاصل من الاعتناء بعبقريته المؤدى الى صرف الأذهان عن نبوته لا يعوّض خسر المسلمين لاسيما من غير العرب ، فما هى الفائدة التى تعود اليهم من عبقرية محمد الذى لم يبق رواج نبوته ؟ بل وما فائدة غير المسلمين من عبقريته غير أن يروا كتّاب المسلمين حولوا أقلامهم الى وجهتها مستشعرين بعدم رغبة الناس اليوم فى حديث نبوته ، بل حديث نبوة أى نبي كان ، لكونها من الامور الغيبية التى قلما يؤمن بها الجيل الحاضر من الناس ؟ . فالسألة اذن جعل محمد صلى الله عليه وسلم نبياً عصرها ان زالت زعامته للمسلمين كافة فلا يزال زعيماً للعرب . ولغير العرب أن يحتفظوا باتباع خطته مع هذا التحول فى موقفه ، باعتبار أنها خطة معقولة . وكذا الحال فى مواقف سائر الانبياء صلوات الله عليهم : فلمنتمين الى دينهم أن يعتبرهم عابرة زمانهم فى صور الانبياء ، وليس أدل على عبقريتهم من اقناعهم الناس برهة من الزمان بنبواتهم . ولا يقال بصدد تبرئة الكتّاب الذين اتعقبهم وأتهمهم بانكار النبوة وتحويلها الى العبقريّة لاسيما فى سيدنا محمد ﷺ ، أنهم لا ينكرون النبوة

وانما يجمعون اليها العبقرية التي لا شك في أنها صفة عالية لا يجيء منها أى ضرر وأى نقص لنبوة النبي ، بل يكون اتصاف النبي بالعبقرية زيادة في شرفه ومنقبته - لاني أقول أولا ، واستعيذ بالله أن أكون من المفترين عليهم بما هم بريئون منه : علامة انكار النبوة فيهم القاطعة في دلالتها انكارهم المعجزات ، وهما - أى المعجزة والنبوة سيان في كونهما من الامور الغيبية الخارقة لسنن الكون التي ينتهى اليها انكار ما يشكرونه في هذه المسائل . نعم ربما تعترف تلك الطائفة بالنبوة لا بمعنى النبوة التي تعد من الامور الغيبية ، والتي يعتقدها المسلمون والمليون جميعا ، ولا عبرة بهذا الاعتراف طبعا ؛ وربما يعترفون بالمعجزات أيضا لكن لا بمعنى المعجزات الخارقة لسنن الكون حقيقة ، وانما هي أمور لا يصح عدها من المعجزات اعتبروها بمعجزات ، كما فعل الأستاذ فريد وجدى عند ما كتب الامور الخارقة للنواميس في وقعة بدر ، وذلك في سلسلة مقالات منشورة في مجلة الأزهر بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة »

فهو لم يلتفت الى ما بين الخوارق الحقيقية الواقعة في بدر وبين العنوان القائل « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » من التناقض حيث لا يتفق الاعتراف بالامور الخارقة للنواميس الطبيعية مع العلم والفلسفة المعروفتين بين الكتاب المصريين . لكن الأستاذ يروغ بين انكار الخوارق وبين الاعتراف بها في رئاسة مجلة الأزهر ، وهو ثابت القدم في انكار الخوارق الحقيقية التي لا بد أن تكون المعجزة الحقيقية منها ، كما لا بد من كون علامة النبوة الحقيقية هي المعجزة الحقيقية الخارقة المعدودة من الامور الغيبية

وليس أدل على كون انكار المعجزات الخارقة التي تلازم النبوة ، ملازما لانكار النبوة ، من أن الدكتور شبلى شميل ناشر فكرة الحداد في البلاد العربية بحماسة

وصراحة ، يسمى الايمان بالأديان ايماناً بالمعجزة^(١). وثانياً انهم لا يكتبون عن عبقرية سيدنا محمد كضميمة الى منصب نبوته ، بل مستقلة عنه ومغنية ، لاسيما عن المعجزة التى تلازم النبوة، وربما يقارنون بين النبوة والعبقرية مدعين للعبقرية الاعجاز اللازم للنبوة . وهذا أوضح دليل على كونهم مجتهدين فى اهلال النبوة وترويج العبقرية بدلا منها ، انظر الى قول الأستاذ فريد وجدى فيما كتبه فى الجزء السابع من المجلد الحادى عشر من « مجلة الأزهر » بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة » :

« تمتاز العصور النبوية (يعنى عصور الأنبياء) بالحوارق للنواميس الطبيعية فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل كان لها أقوى تأثير فى حمل الشعوب التى شهدتها على الاذعان للمرسلين الذين حدثت على أيديهم . وقد حدثت أمور من هذا القبيل فى العصر المحمدى صاحبت الدعوى فى جميع أدوارها وكانت أعظم شأننا وأجل أثراً من كل ما سبق من نوعها . ولست أقصد بها ما تناقله الناس من شق الصدر وتظليل الغمامة وانشقاق القمر وما إليها مما لا يمكن اثباته بدليل محسوس ، ومما يتأتى توجيهه الى غير ما فهم منه . ولكنى أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التى تمت على يد محمد ﷺ فى أقل من ربع قرن ، وقد أعوز أمثالها فى الأمم القرون العديدة والاماد الطويلة

« وقد لاحظ قراؤنا اننا نحرص فيما نكتبه فى هذه السيرة على أن لا نسرف فى كل ناحية الى ناحية الاعجاز مادام يمكن تحليلها بالأسباب العادية حتى ولو بشيء من التكلف ، مسيرة لمذهب البالغين فى الثبوت والمحافظة على الدستور العلمى ثقة منا بان بحثنا لا تحترمه النخبة المثقفة ولا تجد فيه صورة صحيحة لمثلها الأعلى فى عرض المسائل

(١) راجع المقدمة التى كتبها الرجل لتعريب كتاب بوختر فى شرح مذهب داروين . والتعريب

طبع مع المقدمة فى مطبعة جريدة الكوروسه بالاسكندرية سنة ١٨٨٤

وتحليلها لا يمكن أن يؤدي الى ما قصد منه من الخدمة العامة »

ولنا تعليقات على هذا الكلام في مقدمة الكتاب (الكبير) خشينا الاطالة في نقلها هنا مهما كانت هامة، وحسبنا فهم القارئ من قول الأستاذ أنه يستخرج من غير المعجزات معجزات ويرد المعجزات الحقيقية المبنية على أسباب غيبية غير طبيعية والتي هي معجزات النبوة الحقيقية التي هي أيضا من الأمور الغيبية غير الطبيعية، الى أساطير الأديان، كاحمل الآيات الواردة في القرآن عن معجزات الأنبياء الى التشابهات غير المفهومة، لما جرى بيني وبينه النقاش قبل بضع سنوات، كل ذلك لانكار المعجزات الخارقة للنواميس الذي يلزمه انكار النبوة أيضا لسببين : أولها كون المعجزة علامة النبوة فمن ينكرها فلا بد أن ينكر النبوة ، وثانيهما أن منشأ انكار المعجزة كونها من الأمور الغيبية مع أن النبوة نفسها التي هي اتصال خاص بالله من الأمور الغيبية أيضا بقى ان واجب الانصاف الذي لا يؤدي إلا بايحاء كل ذى حق حقه ، يقضى بأن لا يكون درسى لمسألة المبقرية خلوا عن تقدير كتاب « عبقرية محمد » للاستاذ العقاد . فقد أصدرت حكى ضده قبل مطالعته بمجرد سماع اسمه ورؤية بعض إعلان عنه في الصحف والمجلات ، ثم لما قرأته أعجبت به ، لاسيما ببعض مباحثه ، وان لم أرجع عن حكى الصادر نظراً الى كون مؤلفه أيضا من دعاة المبقرية ومروجيها بدل النبوة ومعجزاتها . ومع هذا فهو لم يتوقع الثورة على النبوة كما توقعها الدكتور زكى مبارك ؛ ولم يصادم البداهة في سبيل انكار معجزات الأنبياء ملغيا جميع الآيات الواردة بشأنها في كتاب الله ورادها الى التشابهات التي لا يحصل القارئ منها على معنى مفهوم ، كما صادم الاستاذ فريد وجدى ، ولم يعتد في سبيل انكار معجزات نبينا الكونية على كتب الحديث ساعيا لتشكيك الأذهان في صحة كل ما رواه أئمة المسلمين عنه ﷺ من الأقوال والأفعال الى أن ألغى ركن السنة من بين حجج الاسلام كما فعل هيكى باشا كل ذلك في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « حياة محمد » ،

ولم يحرف الكلم عن مواضعه في تأويل آيات القرآن الناطقة بالخوارق كرفع عيسى عليه السلام الى السماء، ولم يهن مقام القرآن بادعاء مجاراته لعقيدة العرب الجاهليين في تصوير الشيطان، كما حرف وأهان الشيخ شلتوت فراراً عن الايمان بالغيب !!

وفضلاً عن عدم تورط الاستاذ العقاد في أمثال هذه السخافات التي تورط فيها غيره من دعاة العبقرية ومنكري المعجزات، فانه أحسن في الدفاع عن سيدنا محمد رداً على اتهم من يتهمه من الغربيين بالاستسلام للذات حسه، وأحسن في الدفاع عن الاسلام في مسألة تعدد الزوجات، مع انه لم يسبق وعدمه في الدفاع عن الاسلام عند تعريف كتابه. وقد أصاب فضيلة الاستاذ المراغى في أمره باشتراء جملة من كتاب العقاد لتوزيعها في مدارس الأزهر، أكثر من اصابته في تقرير كتاب هيكل باشا.

الحاصل اني وجدت الاستاذ العقاد أمثل دعاة العبقرية في اتزان الكلم. أما كون قلمه أقوى فاني أعرفه قبل كتابه هذا. ثم اني بعد كل هذا الاعتراف بحق الاستاذ أراه مخطئاً كزملائه في انكار المعجزات الذي يشهده قوله في ص ٢٨ وعلامات الضعف بادية فيه رغم حسنه وطلاوته :

«قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه، والجزيرة مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه، والدنيا مهيأة لظهوره لانها محتاجة اليه، وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة؟ وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير؟ وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق؟ علامات الرسالة الصادقة، وهي عقيدة تحتاج اليها الامة، وهي أسباب تتمهد لظهورها، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أدائها؟

« فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا الى علامة غيرها؟، وإذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟ »

وقوله في ص ٤٨ : « انما نجحت دعوة الاسلام لانها دعوة طلبتها الدنيا،

ومهدت لها الحوادث ، وقام بها داع تهباً لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته ، فلا حاجة بنا الى خارقة ينكرها العقل » الخ

والاستاذ يعرف كما أعرف أنا أن انكار المعجزات الخارقة المبنية على أسباب غيبية يكون من منكرها لانكار النبوة الحقيقية التي هي من الامور الغيبية أيضاً ، وان لم يعرف أن تلك المعجزات غير مستحيلة عند العقل ، وسيعرفه أيضاً بعد مطالعة كتابي . وانى لأطيل الكلام مع الاستاذ كما أطلت مع غيره ، وانما أقول له : ان القرآن الفاصل بين كل حق وباطل يفصل بيننا في هذه المسألة أيضاً . وطريق فصله هكذا : نحن نرى الاستاذ العقاد القائل بكون نبوة سيدنا محمد وليدة تهيو الزمان والمكان الممتد من جزيرة العرب الى كل الدنيا ، وليدة التهيؤ العام المتولد من الحاجة العامة اليها ، وكانت حاجة طبيعية صادفت شخص محمد المستعد الاضطلاع بالامانة بصفاته العالية الظاهر من كونه عبقرى في الدعوة ، عبقرى في العسكرية ، عبقرى في السياسة ، عبقرى في الادارة ، عبقرى في البلاغة ، عبقرى في الصداقة ، عبقرى في الرئاسة ، عبقرى في الزوجية ، عبقرى في الأبوة ، عبقرى في السيادة ، عبقرى في العبادة ، عبقرى في الرجولة ، عبقرى في كل ما يلزم لنجاحه في الدعوة ، من غير أن يخالط ذلك التهيؤ والحاجة العامة العالميتين شيء من الخوارق واتصال بعالم الغيب - نراه ينسى القرآن أو يتناساه عمداً بين أسباب نجاح الدعوة الاسلامية مع كونه أعظم الأسباب الذي لا يعدله بل لا يدانيه سبب آخر ، ومع كون الأستاذ يستدل بما يستدل به من الأسباب والعلامات على نبوة سيدنا محمد ، بعد تحقق نجاح الدعوة بانتشار الاسلام ومضى عهد الداعي مقرونا بالنصر والتوفيق . وهذه الحالة انما تكون علامة على نبوة سيدنا محمد بعد مضي عهد الدعوة متأخرة عن أوانها بكثير ، فاذا كان العامل الأول في الدلالة على صدق صاحب الدعوة عند أول المقابلين بها السابقين في قبولها ، والذين هم رضى الله عنهم أسس صرح النجاح ؟ ، لا شك في أنه القرآن !

ثم إننا نرى الأستاذ الذي نسي هذه العلامة الأولى والكبرى للنبوّة لم ينس أن يستمد في كتابه على حسب مناسبات الأبحاث بآيات من القرآن ، وكان ذلك من أسباب نجاح كتابه في التأثير على القلوب ، فهل يمكن أن لا يكون للقرآن الذي أثر حتى في نجاح كتاب « عبقرية محمد » للأستاذ العقاد تأثير في نجاح دعوة محمد ﷺ ؟ لا يمكن الأستاذ أن ينكر ذلك ، ولا أن ينكر تفوق القرآن على جميع أسباب النجاح التي عددها من التهيؤ العام والحاجة العامة في العالم ، ومن اجتماع أنواع المبقرية في شخص الداعي

فما موقف القرآن اذن من محمد المبقرى الذي كانت دعوته - على رأى الأستاذ - في غنى عن المخالطة بشيء من الحوارق الغيبية ليتسنى لها النجاح ؟ ، وكان متوقعا من الأستاذ أن يعين موقف القرآن من محمد المبقرى في مبحث « البليغ » من كتابه ليكون - وديا لحق البحث ، فلم يفعل . فان كان قراء كتابه المعجبون به كما أعجبت أنا لم يسألوه عن موقف القرآن من محمد البليغ المبقرى في بلاغته ، فاني سأئله عن ذلك ، وسأئله : هل هو كلام الله أم كلام محمد نفسه ؟

فان كان كلام الله المنزل بنصه على محمد بواسطة الملك فهو يتناقض مع المفروض آنفا في نبوة محمد من المبقرية المستغنية عن الحوارق الغيبية ، لكونه أكبر خارقة وأكبر اتصال منه بعالم الغيب

وان لم يكن القرآن كلام الله ، بل كلام محمد نفسه عزاء الى الله كما أشار اليه الدكتور زكي مبارك من دعاة المبقرية في قوله : « ان محمدا حرم نفسه الشهرة باجادة البيان وبفضل الكتاب الذي بلغه عاش البيان » وسيجيء نقله مع أقواله الأخرى .. ان كان القرآن عند الأستاذ العقاد صاحب كتاب « عبقرية محمد » الساعى لتجريده عن الحوارق ، كما هو عند الدكتور زكي مبارك ، كان محمد كاذبا في نسبة القرآن الى الله على الرغم من قول القرآن : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى الى ولم

يوح اليه شيء» وكان هذا الكذب أكبر منافي للنبوة والمبقرية معا
فإن تساهل المبقريون وذهبوا فيما بينهم الى عدم التنافي بين المبقرية والكذب
غير مصارحين به غير أمثالهم فماذا يقولون في تحدى القرآن الانس والجن مجتمعين
على أن يأتوا بمثله ؟ مع أنه لا يتصور صدور التحدى عن عاقل من البشر على أن
يأتوا بكلام مثل كلامه ، فهل يمكن عند دعاة المبقرية أن يكون محمد المبقرى مجنونا
إن أمكن عندهم أن يكون كاذبا ؟ ، وهل يجوز عندهم ائتلاف المبقرية بالجنون أيضا
كما جاز ائتلافها بالكذب ؟

ونحن نحاشي محمداً ﷺ من كل ذلك

أقول للكتاب المصريين بعد هذا السؤال الواضح : ان كنتم تؤمنون برسالة
محمد من الله بمعناها المعروف عند المؤمنين بالأنبياء فاصدقوا في إيمانكم ، ولا تكذب
قلوبكم أقوالكم بل ولا تكذب أقوالكم بعضها بعضا ، فليس لكم أن تقيسوا عبقرية
محمد على عبقريتكم التي تسهل الكذب في أعينكم ، فأين هذا الذى تحدثون به أنفسكم
من أن يكذب محمد الأمين على ربه الذى يقول (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا
منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين)

وقد يُنطق الله كتابنا المصريين بالحق فيقول مؤلف « حياة محمد » — ونعم
مايقول — عند الكلام على الأقوال المختلفة في سبب نزول قوله تعالى (وإن كادوا
ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ، ولولا أن
تبنتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات ثم
لاآجدا لك علينا نصيرا) ص ١٨٠ :

« ومهما تكن الحقيقة الثابتة التي لا تختلف الروايات عليها للواقعة أو الوقائع
التي نزلت الآيات فيها ، فإنها تصور ناحية من نواحي العظمة النفسية لمحمد كما تصور

صدق اخلاصه تصويراً قويا . وهذه الناحية تصورها كذلك هذه الآيات التي نقلنا من سورة « عبس » ويشهد بها تاريخ محمد كله . تلك انه كان يصارح الناس بأنه بشر مثلهم يوحي ربه اليه لهدايتهم، وأنه - وهو بشر مثلهم - معرض للخطأ لولا عصمة الله إياه . فهو قد أخطأ حين عبس لابن أم مكتوم وتولى عنه ، وهو قد كاد يخطئ فيما نزلت عليه آية الاسراء في شأنه ، وكاد يفتن عن الذي أوحى اليه ليفترى غيره . فاذا نزل عليه الوحي ينهبه إلى ماصنع في أمر الأعمى ، وفي أمر هذه الفتنة التي كادت قريش تدفعه اليها ، صدق في تبليغ الوحي الى الناس صدقه في تبليغ رسالات ربه ، ولم يقف حائل من أنفة أو كبرياء ، ولا وقف اعتبار انساني ، حتى مما يسيغ الفضلاء ، دون إعلان هذا الحق في أمر نفسه . فالحق إذاً - والحق وحده - كان رسالته . واذا كان احتمال أذى الغير في سبيل ما تؤمن به بعض ما تطيق النفوس الكبيرة ، فان اقرار العظيم بأنه كاد يفتن ليس مما ألف الناس صدوره حتى من العظماء . انما يخفى هؤلاء أمثال ذلك من الأمور ويكتفون بحساب النفس عليه ولو حساباً يسيراً . فهو شيء اذاً أكبر من العظمة ، وأعظم من كل عظيم ذلك الذي يتيح للنفس هذا السمو على العظمة ، ويفوق كل عظيم هو النبوة التي تملى على الرسول صدق الاخلاص في إبلاغ رسالة الحق جل شأنه »

والشاهد فيما نقلناه عن كتاب هيكل باشا وحيدناه هو الفقرة الأخيرة الناطقة بعظمة النبوة التي تسمو على العظمة . ونحن نضيف اليه قولنا : نعم ان النبوة هي الشيء الذي يسمو على العظمة وتقصر عن مداه العبقرية

وانظر عظمة النبوة المتجلية في قوله تعالى : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) وقوله : (وإن كان كبر عليك إعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلماً في السماء) (٢ — القول الفصل)

فتأتيتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)
فهما أبلغ من الآيتين المذكورتين من قبل نقلا عن كتاب هيكل باشا في الدلالة
على عظمة محمد النبي ﷺ في صدقه وإخلاصه لكونهما يصارحان بتضوره في عجزه
عن الاتيان بآية تُخضع الناس لتصديق مدعاه عن نبوته التي لامدعى لنفسه غيرها
يمتاز به على الذين أرسل اليهم
وللكلام عن موقفه ﷺ من الآيتين الأخيرتين اللتين ذكرناهما وأشباههما
بقية نوردتها في محلها ان شاء الله

نعود الى ما كنا فيه : ومن مميزات الطائفة العصرية انهم لا يعولون على كتب
الحديث وما فيها من الروايات المتعلقة بمعجزات نبينا . ولذا جاء كتاب « حياة محمد »
خلواً عن المعجزات الكونية وأقره عليه فضيلة الأستاذ المراغى والشيخ رشيد رضا
صاحب مجلة « المنار » . وللوصول الى هذه الغاية يطعن من يطعن منهم في مكان كتب
الحديث مطلقاً من الثقة، ويعنى من يعنى بعقريه سيدنا محمد بدل نبوته، لكنهم متفقون
في هذه المرحلة من الدس على الاعتراف بأهمية القرآن وسمو مكانه، قائلين: انه المعجزة
الوحيدة.

وقولى لهؤلاء القائلين - وهم دعاة العبقرية - : ان القرآن ان كان معجزة، وكان أفضل
وأعظم ما وصل الينا من محمد ﷺ فهو معجزة نبوته لا معجزة عبقريته، لان العبقرية
لا معجزة لها، وان الذين لجأوا اليها أرادوا أن يتخلصوا من المعجزات التي تدور
مع النبوات

وأصل المسألة أن النبوة كالمعجزة في كونها مخالفة للعالم الحديث الذي سبق قول
الأستاذ فريد أن دالت اليه الدولة في الأرض ، وفي كون الذين ينكرون المعجزات
من الكتاب ينكرون النبوات أيضا ، وان كانوا اليوم أجراً على المصارحة بانكار

المعجزات بالنسبة الى انكار المعجزات . بل العلم الحديث الذى يؤمنون به والذى قذف بالأديان جملة الى عالم الأساطير، يمنعهم من أن يؤمنوا بالله الذى لم يثبت وجوده الى الآن ثبوتاً علمياً مبنياً على التجربة الحسية ، ولذا قال الأستاذ فرح انطون منشى^(١) مجلة « الجامعة » فيما مضى عند مناقشة الشيخ محمد عبده

« ان الدين هو الايمان بخالق غير منظور، وآخرة غير منظورة ، ومعجزة ووحى ونبوءة وبعث وحشر وسؤال وحساب وثواب وعذاب فى الجنة والنار ، وكلها غير محسوسة ولا معقولة . ولهذا كان العقلاء من الفلاسفة ورجال الدين فى كل ملة ينادون بابعاد العقل من الدين » . وكان هذا القول أيضاً من الأسباب التى دفعتنى الى تأليف الكتاب المسمى : « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورساله » والذى هذا الكتاب الصغير جزء منه منشور قبله

أما الشيخ محمد عبده فلم يصل الى رده على مناظره بما يقنع قراء ذلك الوقت ومن بعدهم ، ولو كان أتى بجواب مقنع يشهد له بالغلبة على خصمه لما اجتراً الأستاذ فريد وجدى على أن يقول فيما كتبه رداً على^(٢) عند مناقشة مسألة المعجزات ، وذلك بعد المناقشة الجارية بين الشيخ المفتى والأستاذ المنشى بأكثر من عشرين سنة : « ان الشرق الاسلامى لما رأى دينه ماثلاً فى عالم الأساطير التى قذفت فيه الأديان جملة بيد العلم الحديث الغربى لم ينبس بكلمة لانه رأى الأمر أكبر من أن يحاوله ، ولكنه استبطن الاحاد وتمسك به متيقناً انه مصير اخوانه كافة متى وصلوا الى درجته العلمية »^(٢)

(١) والمناقشة منشورة فى باب « الردود » من كتاب « فلسفة ابن رشد » الأستاذ منشى^{*} المجلد المذكورة

(٢) فى قول الأستاذ فريد وجدى هذا أعظم دليل على ان الشيخ محمد عبده لم يكسب القضية لحساب الاسلام ، حتى ان الأستاذ لا يعد دفاعه عنه أمام طعن خصمه فى الأديان عامة بلسان العلم الحديث المبني على التجربة الحسية ، كلمة منبوسة . ومن هذا كنت جعلت كتابى هذا (الكبير) المار الذكر

وأما محاولات الأستاذ فريد نفسه اليوم أن يتكلم الفينة بعد الفينة ضد العلم الذى قذف بالاديان جملة - وفيها دين الشرق الاسلامى - الى عالم الأساطير، والذى جعل له الأستاذ الدولة فى الأرض ، وذلك بعد أن تولى الوظيفة الأزهرية، ومضى عليه زمان ظن أن الناس نسوا ما كتبه أولاً من ان الأمر - أى أمر دفاع الشرق الاسلامى عن دينه - أكبر من أن يحاوله، وكان الأستاذ قد أقفل بهذا الكلام الطريق على نفسه وعلى غيره، فليس من الأمر فى كبير ولا صغير كما يظهر من مطالعة كتابنا (الكبير). ونحن ان تفاضينا هنا عن صعود الخطر من دولة العلم - الذى ركع الأستاذ لسلطانه أولاً ثم لم يستطع أن يرفع رأسه - الى مسألة وجود الله، اكتفاء بما كتبنا عنها فى الباب الأول (من الكتاب الكبير) ولم نعتز فيما كتبناه من أول الأمر بأى سلطان من أى دولة. فنحن ان تفاضينا عن صعود الخطر الى مسألة وجود الله كفتنا الفتنة الناجمة فى مسألتى انكار المعجزة وإقامة البقرية مقام النبوة ، شراً حيث تسبب هذه الفتنة انهيار عقيدة كون القرآن كلام الله وأحاديث سيدنا محمد أحاديث رسول الله ، ويلائمه كل الملامة إن المصريين من علماء الدين مثل الشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة وعضو هيئة كبار العلماء فضلاً عن الدكاترة والأساتذة من الكتاب مثل الدكتور هيكى باشا مؤلف كتاب « حياة محمد » ، نراهم يستسهلون على أنفسهم المخالفة لمرويات كتب الحديث فيما لا يوافق أهواءهم طعنا فى ثبوت تلك الرويات عن رسول الله بحجة أن أهل النقد من علماء الحديث وجدوا فيها أحاديث موضوعة ، فيرتقى المصريون من غير علماء الحديث بهذه المرتبة من النقد الخاص لبعض الأحاديث ، الى الطعن فى جملتها باحتمال الكذب فى الاسناد حتى أصبحت السنة من بين الأدلة الشرعية ملغاة

استثناء لتلك المناقشة الجارية فيما مضى بين الشيخ محمد عبده والأستاذ فرح أنطون، فإن لم يكن الأستاذ فرح أنطون موجوداً اليوم، فالأستاذ فريد وجدى وغيره من ورثة عقلية أحياء يرزقون

عندهم ساقطة عن حيز الاعتداد والاعتماد. ولم يبالوا باحتمال الصدق القائم الغالب في غير ماتكلم فيه علماء الحديث الاخصائيون بالتعليل، بل فيما صرحوا فيه بالتصحيح أيضا وأصل منشأ الجرأة على التوسع في تكذيب الرواة الى حد أن لا يبالى بما يتضمن هذا التوسع من تكذيب الأحاديث الصحيحة أيضا الثابتة عند علماء الحديث عن رسول الله ﷺ فيصعد الأمر من تكذيب الرواة الى تكذيب الرسول، كون النبوة عندهم عبقرية لارسالة حقيقية من الله، فيكون سهلا عندهم على الرواة القدماء أن يسندوا اليه ما لم يقله، ويكون سهلا على المعصرين أن لا يصدقوه فيما قاله أيضا هذا حال الحديث وطريق رفضه، ثم يحىء دور القرآن، ويكون طريقهم الى رفضه استعمال الجرأة أيضا ان لم يكن في تكذيب روايته في تأويل معناه، لا عيبين بمقول القراء الغافلين، وغير مباليين بما يتعدون في تأويلاتهم عن حدود مراد القرآن - فلو نظروا اليه نظرهم الى كلام الله لالتزموا بعض التحوط وخشوا بعض الخشية أن يكونوا مخطئين في التأويل، لكن مبدأ التحول المعصرى من النبوة الى العبقرية يحل جميع هذه المشكلات ويفتح امام المؤول أوسع باب . مثلا: ان الآيات الدالة على رفع عيسى عليه السلام كنا ولا نزال نفهم منها رفعه حيا كما فهمه جميع السلف من المفسرين، حتى جاء الشيخ شلتوت فادعى أن المراد رفع روحه، فهل هو الذى أصاب في تفسيره حين كان الجميع متفقين على الخطأ؟ كلا، بل انه هو المخطئ كما يأتى بيانه في محله، لكن عقيدة انكار المعجزة ومبدأ التحول المعصرى من النبوة الى العبقرية يصغران أمثال هذه الخطايا في عيون مقترفيها

وأجراً نماذج التأويل في القرآن بعد ماسبق للاستاذ فريد وجدى من رد آيات المعجزات وآيات البعث بعد الموت التى تملأ كتاب الله الى التشابهات غير المفهومة، مادعاه الشيخ شلتوت منكر لوجود الشيطان كما صورته القرآن شخصا يرى ويسمع، ويقول ويجادل، ويتكبر فيؤمر بالسجدة لآدم ويعصى الله، ويمد ويمنى، وينسل ويعيش

الى يوم الوقت المعلوم. ثم يعذب في نار جهنم مع الذين اتبعوه ، من أن القرآن جارى عقيدة العرب الجاهليين في تصوير الشيطان. وهذا قلب دلالة القرآن ومرتبته مع مرتبة العرب في المتبوعية والتابعة رأسا على عقب . والواقع ان الشيخ نفسه حريص على مجارة الكتاب المصريين في انكار الأمور الغيبية مثل المعجزات وغيرها بدلا من مجارة القرآن عقيدة العرب

ويقرب منه في البعد عن مراد القرآن تأويل انفلاق البحر لموسى ومن معه حتى اجتازوه وغرق فرعون وجنوده ، بالجزر والمد البحريين، وقد عزى هذا التأويل الى الشيخ محمد عبده الذى يفهم ان بدعة انكار المعجزات في صورة تأويلها مأثورة للكتاب المصريين من زمانه، بل رد النبوة الى المبقرية - وقدراجت (موضته) أخيرا بين الكتاب - هو الذى عبّد طريقه بمصر حيث عرّف النبي والرسول في تعليقاته على شرح الجلال الدوانى للعقائد المضدية ، بغير ماهو معروف عند علماء الاسلام في تعريفهما وميأتى الكلام منا على كل من المسألتين ان شاء الله

ومثله تفسير الشيخ رشيد رضا صاحب « مجلة النار » قوله تعالى « انشق القمر » بقوله : « ظهر الحق » وتفسير الشيخ شلتوت آيات رفع المسيح عليه السلام برفع روحه، وقوله في نزوله الممدود من أشراط الساعة والمشار اليه في آيتين من القرآن : « انه لا محل له بعد سقوط رفعه حيا »

والشيخان لا يعتدان بعد الآيات بالأحاديث الواردة فيما أنكراه مهما كثرت ، حتى ان أحاديث نزول عيسى تبلغ سبعين حديثا على ما نقله صديقنا العلامة الشيخ زاهد في رده على الشيخ شلتوت من كتاب « التصريح بما تواترت في نزول المسيح » للمحدث الكشميرى لكن المنكر لا يلتفت اليها بحجة انها أخبار آحاد

سبعون حديثا مرويا عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالسنة رواة مختلفين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، لا بد أن تكون لها قيمتها التى لا يكفى لإسقاطها

التعلل بأنها أخبار آحاد، فلو أتى بمثلها سنداً لصحة خبر من الأخبار الواردة في كتب التاريخ لكفى في إفادة اليقين وزاد على الكفاية ، فان كفى هناك لكونها رواية تاريخية، ولم يكف هنا لكونه رواية المسلمين عن نبيهم، فما أسوأ هذه السمعة سمعة المؤلفين المسلمين عند المؤلفين المسلمين؟! وبئست التهمة شبهة الكذب !

نعم إن المؤلفين المسلمين مهما عظم شأنهم فلا ثقة بأمانة السلف منهم عند الخلف العصريين ، حتى أن الأحاديث المروية عن رسول الله لم يصح منها على تقدير مؤلف « حياة محمد » إلا واحد في كل مائة وخمسين حديثاً كما سيجي ذلك أيضاً . فعلى هذا لا يوزن للأحاديث السبعين الواردة في نزول عيسى إلا أقل من نصف قيمة حديث واحد صحيح .

ثم إن رواة تلك الأحاديث لمصلحة لهم في اختلاقها لأن رفع عيسى عليه السلام ونزوله مما لا يعنى الرواة المسلمين الذين آثمهم مؤلف « حياة محمد » في الأحاديث الدالة على معجزات نبيهم الكونية، بالمحابة الدينية . فلو كانوا اختلقوا هذه الأحاديث السبعين لزم أن يكون ذلك منهم تأييداً لآيات القرآن التي فهموا منها رفع عيسى ونزوله مع عدم المصلحة في هذا الفهم أيضاً . أما احتمال كون علماء الاسلام الماضين غالطين جميعاً في فهم آيات القرآن بشأن عيسى، وكاذبين في رواية الأحاديث تأييداً لهذا الغلط فهو غاية في سوء الظن بهم من ناحيتي الدراية والرواية ناشئة من ضعف صاحب الظن في هذه النواحي ، وإذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه . وسيجيء منا مزيد شرح لكون الغلط في فهم الشيخ شلتوت لآيات الرفع والنزول .

الحاصل أن المصريين من علماء الدين والدنيا المتعمدين لانكار الأمور الغيبية مثل المعجزات وغيرها ذهبوا في تفسير آيات القرآن وتقويم أحاديث نبينا مذهباً يكاد يكون ملعباً، فلا ينفعمهم في تصحيح باطلهم قول الله ولا قول رسول الله ، على أن الله ورسوله أيضاً من الأمور الغيبية . فاذا لم تقم آيات البعث بعد الموت في كتاب الله حجة

على وقوعه عند الأستاذ فريد وجدى، وآيات الشيطان على وجوده عند الشيخ شلتوت كشخص حى عاقل، ولا السبعون حديثاً على نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان فأى قول الله والرسول ينفع فى إثبات أى مطلب أو قطع أى نزاع؟^(١).

وأصل المسألة أن للمتعملين المصريين من الكتاب عقيدة راسخة أرسخها فى أذهانهم العلم الحديث المادى الذى يؤمنون به فوق إيمانهم بكتاب الله وسنة رسوله، وهى إنكار الأمور الغيبية مثل المعجزات والنبوة بمعناها المعروف عند الملىين^(٢) فلولم يكن فيهم هذه العقيدة ونظروا إلى قول الله ورسوله نظر المحاييد غير المقيد بعقيدة مانعة عن قبول ما يخالفها لأمكننا وقفهم فى حدود قول الله ورسوله^(٣).

فواجب علماء الدين اليوم غير المتفقيين مع الكتاب المذكورين مكافحة عقيدتهم المانعة عن الايمان بالأمور الغيبية مكافحة علمية تبين ما فى العلم الذى بنوا عقيدتهم عليه من الجهل . وفى زماننا طائفة من علماء الدين لم ير الدين خيراً منهم تهيّبوا مكافحة تلك العقيدة المانعة عن تصديق الأمور الغيبية مثل المعجزة والنبوة وغيرهما، ولم تهيّبوا مكافحة نصوص الكتاب والسنة بتكذيب الثانية وتأويل الأولى بما يحرف الكلم عن مواضعه . فأردت أن أقوم بهذا الواجب مستعيناً بتوفيق الله تعالى ، فوضعت الباب الأول (من الكتاب الكبير) لإثبات وجود الله الذى هو فى رأس الأمور الغيبية ، ووضعت هذا الباب الثالث لإثبات النبوة والمعجزة والنشأة الآخرة .

(١) ومن طريف التلق أن المعتدين على الآيات والأحاديث رفضاً أو تأويلاً مرهقا ، لا يتحملون حملات النقد من المدافعين عن حقوق كتاب الله وسنة رسوله ويعدونها اعتداء عليهم ، إذا وجدوا فيها شيئاً من الشدة التى ليست إلا وطأة الحق . وظنى أن كفى أصحاب « الثقافة » عن نشر مقالاتى فى الرد على مقالة الشيخ شلتوت المنتشرة فى « الرسالة » كان سببه هذا التلق .

(٢) وهم متفقون فى هذه العقلية العلية مع الأستاذ فرح انطون الذى ناظره الشيخ محمد عبده ولم يتغلب عليه .

(٣) لكنهم لما اقتنعوا بعدم وجود الأمور الغيبية واستحالة المعجزات فما رأوه منها فى كتب الحديث طعنوا فى صحته، وما رأوه فى القرآن أولوه .

موقف العقل والعلم

من الله ورسله والآيات التي أظهرها على أيديهم وموقفهما من البعث بعد الموت

إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا - ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يفررك تقلبهم في البلاد .

هذه الموضوعات أعنى النبوة والمعجزة وكذا النشأة الأخرى تذكر في كتب أصول الدين بعنوان : « السمعيات » بناء على أنها مستندة إلى السماع من الأنبياء المبعوثين من الله المؤيدين بالمعجزات، ومعجزاتهم منقولة بأخبار متواترة أو مشهورة . فمسألة وجود الأنبياء ومعجزاتهم، ووقوع البعث بعد الموت تنبنى على الأدلة السمعية لا على الأدلة العقلية التي يدركها الانسان ولولم يسمعها من الأنبياء كوجود الله . وليس وجود ما ثبت بالسمع كوجود ما ثبت بالعقل بمعنى أنه لا يترتب على عدم وجود السمعيات مثل الأنبياء محال عقلي كما يترتب على عدم وجود الله ، إلا أن يكون ذلك محالا بالواسطة أو بالأوفق لاصطلاح المتكلمين محالا بالغير، كلزوم الكذب في اخبارات الله تعالى، وبهذه الطريقة فقط يكون ما ثبت بالنقل ضروريا يعني أن وجود الله يُثَبَّتْ أولا بدليل عقلي ضروري، ثم يُثَبَّتْ إمكان السمعيات مثل النبوة والمعجزة والآخرة بدليل عقلي أيضا مبني على وجود الله ، ثم يُثَبَّتْ وقوعها باخبارات الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، عن الله الذي لا يتصور منه الكذب كما قال خضر بك من علماء الدولة العثمانية في زمن السلطان محمد الفاتح ، وهو أستاذ الخيالي صاحب التعليقات الدقيقة القيمة على شرح العلامة التفتازاني للعقائد النسفية - في منظومته التونية المعدودة من المتون الكلامية :

وواقع كل ما نص الصدوق به من ممكن كصراط أو كميزان

ولهذا الفرق بين الموضوعين سيراني القارىء لا أقيم على وجود الأنبياء ومعجزاتهم والنشأة الآخرة دليلا عقليا يساوى في القوة دليل وجود الله ، ولا أطيل الكلام في هذا الباب كما أطلت في الباب الأول إلا النقاش مع منكرى المعجزات الكونية مطلقا أو انبيننا محمد صلى الله عليه وسلم . وحسبك فارقا بين المسألتين أن النبي ليس بواجب الوجود . ولهذا أيضا ليس لمنكرى هذه المسائل أن يطالبونا باقامة الدليل العقلي عليها سوى إمكانها ، على أن لنا أن نقيم فيما سيأتى دليلا عقليا يكاد يفيد اليقين العقلي بلزوم وجود الأنبياء زيادة على دلالة معجزاتهم عليهم ، وكذا النشأة الآخرة في وجوبها نقلا وفي إمكانها عقلا

ومع أن النبوة لا يقوم عليها دليل يفيد الوجوب والضرورة المنطقية فهي واقعة تستند الى التجربة التي يعتبرها المصريون الدليل العلمى ، غير أن النبوة لا يجربها إلا النبي نفسه ، وغير النبي يجربها بمعجزته ، وتقوم تجربة معجزته مقام تجربة نبوته ، ومن هنا يعلم أن المعجزة لا تنفك عن النبوة ، ويعلم أيضا تفوق الدليل العقلي على الدليل التجريبي حيث ثبت بالأول وجود الله الواجب الوجود ، وبالتالي وجود النبي غير الواجب الوجود . وهكذا يكون إثبات كل ما لا يجب وجوده ، بالأدلة التجريبية التي تفيد مادون الوجوب أعنى الوجود العادى الوقوعى ، ويعلم أيضا أن تعبير المصريين عن الفلسفة المادية (بالفلسفة الواقعية) تفضيلا لها على الفلسفة الميتافيزيقية غير كافل للفضل المطلوب ، لأن هناك مرتبة أعلى من مرتبة الوقوع وهو الوجوب أى ضرورة الوقوع أما إثبات إمكان النبوة والمعجزة والنشأة الثانية فمن أسهل الأمور بعد ثبوت وجود الله القادر على كل شئ . ومن هنا قال « شيلهر ماخر » و « ريتجهل » : « إن الايمان بالمعجزات لا ينفك عن الايمان بالله » ومعناه أن من يؤمن بالله فلا بد أن يؤمن بالمعجزات أيضا . وقال « استوارت ميل » عند انتقاده لانكار « هيوم » المعجزات : « ان من لا يؤمن بوجود فوق الطبيعة ولا يتدخله في شؤون العالم لا يقبل فعل إنسان

خارق للعادة على أنه معجزة ويؤوله مطلقا بما يخرج به عن كونه معجزة ، لكن إذا
أومن بالله فلا يكون تأثيره في العالم وسلطته عليه فرضية محضة بل احتمالا جديا .
والحكم بعدم تدخل الله في شؤون العالم إنما يمكن بمعرفة السنة الالهية في الماضي ، أو
بمعرفة ما يلزم منطقيا أن تكون السنة الالهية كذلك » .

نعم معنى عموم قدرته تعالى على كل شيء أنه قادر على كل شيء ممكن إمكانا عقليا .
لكن نطاق هذا الامكان أوسع بكثير مما يظنه منكرو المعجزات ، فيدخل في الممكن كل
ما ليس بمحال عقلي ولا مستلزم للمحال كجمع النقيضين ورفعهما والدور والتسلسل .
ومن العجب أن منكرى المعجزات فقط ، أو منكرى المعجزات والنبوة معا ينكرونها على
ظن أنها غير ممكنة ، وهم من غفلتهم يقيسون الامكان والاستحالة بمقياس قدرة الانسان ،
وينسون قدرة الله التي ليس يعمد عنها أن تهدم السماوات والأرض وتنشئها من جديد .
ونحن لا نتكلم في هذا الكتاب إلا مع المعترفين بوجود الله ، فراضين أننا قد فرغنا
عن إثباته نهائيا في الباب الأول من الكتاب الكبير الذي لم ينشر بعد والذي أوشك
من طوله أن يكون كل الكتاب ، وقطعنا دابر المنكرين .

ولا شك أن الله الذي فطر السماوات والأرض لا يصعب عليه أن يرسل الى
بنى آدم الذين هو خالقهم أيضا رسولا منهم فيوحى اليه ما يشاء ، وأن يظهر على يديه
خارقة من خوارق العادات كخلق ثعبان من العصا ، وهو خالق العصا والثعبان وجميع
العالم من عدم ، من غير أن يعد خلقه أو خلقهما معجزة ولا يصادف منكرا . وما أبدع
ما قال « ويليام استانلي چوون » من كبار المنطقيين الانكليز : « القدرة التي خلقت
العالم لا تعجز عن حذف شيء منه أو إضافة شيء اليه ، ومن السهل أن يقال عنه إنه
غير متصور عند العقل ، لكن الذي يقال عنه إنه غير متصور ليس غير متصور الى
درجة وجود العالم » يعني لو لم يكن هذا العالم موجودا وقيل لمن ينكر المعجزات ولا
يتصور وجودها : سيوجد عالم كذا ، كان جوابه إن هذا غير متصور وكان نفى تصوره
أشد من نفى تصور المعجزات .

بل إذا نظرنا في خلق العقل الذى هو أكبر معجزة وأول رسول من الله الى عباده، ثم إذا نظرنا في أن يبعث رسولا اليهم ويجعل على يديه علامة لرسالته ليعلموا بالرسول الأول العام خالقهم، ويتعلموا من الرسول الخاص تفاصيل ما يأمرهم به الخالق وما ينهاهم عنه، كما يبعث الملك عامله الى رعيته بمرسوم من عنده، إذا نظرنا، فإن إرسال الرسل الى الناس وجعلهم ممتازين ببعض المعجزات التى هى أوسمة رسالتهم، أسهل من خلق معجزة العقل فى الانسان وجعل نوعه ممتازا بها^(١) لأن الأول من هذين الأمرين فى متناول القدرة البشرية أيضا، فيستطيع الملك أن يرسل رسولا الى شعبه ويخصه بمرسوم منه لا يوجد فى يد غيره، ولا يستطيع أن يمنح رسوله العقل، وكوننا نرى الأمر بالعكس فنظن ما هو أكثر وقوعا أسهل لكثيرته، وما هو أقل وقوعا أصعب لقلته، لا يغير الحقيقة المعقولة عند قطع النظر عن القلة والكثرة .

(١) ولهذا قال « شاتوبريان » : « الانسان حيوان ميتافيزيقى » لامتياز به بالعقل ، فالانسان نفسه يكفىنا مثالا للمعجزة

ولا يجوز أن يقال انتهاز الفرصة من قولنا بأن العقل أكبر معجزة : ان رسول العقل يغنى عن إرسال الرسل كما قال المعري :

أيها الغر إن خصصت بعقل فأسأله فكل عقل نبى

لأننا أجبنا فى ضمن أقوالنا عن هذا الاعتراض، فخصصنا العقل الذى هو أكبر معجزة لأكثر واجب وهو إثبات وجود الله، ولا نهمله بعد هذا أيضا فتحكم إليه فى جميع الأمور المهمة، وقد جعلناه فى هذا الكتاب (الكبير) صاحب الحكم الوحيد فى تمييز الممكن من المستحيل حتى بنينا عليه أيضا امكان بعث الأنبياء وامكان إظهار الحوارق على أيديهم من الله القادر على جميع الممكنات . ومع كل هذا فقد أشرنا قريبا الى أن الناس لا يستغنون بعقولهم عن عباد الله الذين اصطفاهم لدعوة الخلق الى صراطه المستقيم ، كما أن كون الرعية من ذوى العقول لا يغنيهم من أن يرسل إليهم الملك عاملا من عنده ينزلون الى قوله ويعتبرونه قول الملك

ثم إن معجزة العقل على عظم قدره بل عظم إعجازه لاتعد معجزة لكونه نعمة عامة فى سنة الله لجميع بنى آدم، فهو عادة من هذه الناحية لاخارق العادة، مع كون المعجزة فى عرف العلماء من الحوارق، ونحن إنما ذكرنا العقل ولفتنا الى أنه أهم من المعجزات الخارقة وإن لم يكن معدودا منها ، تقريبا للحوارق الى الأذهان .

وقولنا هذا أسهل وهذا أصعب مبنى على تقدير عقولنا في المقارنة بين الأمور من حيث السهولة والصعوبة ، والا فجميع الممكنات سهلة متساوية الاقدام في السهولة بالنسبة الى قدرة الله، والممكنات لا تتحد ولا تنهى إلا في المحال الذي يقدره العقل المحض ويفصل بينه وبين الممكن بميزانه، وليس لغير هذا الميزان حق البت في حدود الامكان والاستحالة. فلا يقال هذا ممكن وهذا محال بالنظر الى تجربة الوقوعات. وهذا على الرغم من أن الغافلين الذين ينكرون النبوات والمعجزات يعتمدون في انكارهم على تجربة الوقوعات الحاضرة لكونهم لا يقدرون الله وعظمة قدرته كما قال تعالى (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) وقال : (قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ولكونهم في عصر رواج التجربة وكساد العقل المحض فيرون السماوات والأرض مخلوقة فيعترفون بامكانها غير مستبعدين، ولا يرون في عصرهم نبيا ولا معجزته التي ليست بأعظم من السماوات والأرض ، فيقولون انها غير ممكنة ، ويقولون انها غير مؤلفة مع نظام العالم وبعض الجهال يقولون اكباراً لاكتشفات العلماء الغربيين في العصر الأخير

«معجزات العلم قد أوقت على معجزات الدين في ماضى القرون»

فيستصغرون معجزات الأنبياء عليهم السلام التي أنكرها منكروها استمظاما لحصولها باذن الله مباشرة من غير توسل اليها بالوسائل العلمية غير الخارجة عن الوسائل الطبيعية ، وفي هذا ميزة المعجزة التي يصغر بجانب أصغرها أعظم المكتشفات العلمية ، ومن هذا يقول المنكرون باستحالتها ويرون فيها خرق نظام العالم ، حتى ان بعض الجهال من هذه الطائفة المنكرة يحتاج الى تأويلها وتنزيلها الى مادون الخوارق ، مع ان المعجزة لا بد أن تكون خارقة لنظام العالم والا لاتكون معجزة بمعناها الحقيقي

فنقول للمنكرين وهم يدعون أنهم يؤمنون بالله : أليس واضع ذلك النظام هو الله؟

فكيف تقيدون الله بالنظام الذي هو واضعه بقدرته وارادته واختياره ؟ فهل يكون

القادر المختار عاجزا عن تغيير ماوضع ؟ أما انه لم يغيره فيما رأيناه وهو سنته التى لن تجد عنها تحويلا فذلك بالنسبة اليها ، ومعناه أنا لا نقدر على تبديل سنة الكون ، فلا تكون النار إلا حارة محرقة لكل ما من شأنه الاحتراق بموجب نظام العالم ومصالحتنا فى استمرار نظامه أنا نعتمد عليه مطلقا فى أمورنا وحاجتنا ونحصل لنا منه قواعد مضبوطة ، ولكن نظام النار هذا مثلا الذى نحن مقيدون به - لا خالق النار وواضع نظامها - ليس بمنافع أن يجعلها الله بردا وسلاما على نبيه وخليله ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، تأييدا لرسالته من عنده

فنظام العالم العام الذى كان فى الباب الأول من هذا الكتاب (الكبير) دليلا على وجود الله تعالى الذى هو واضع النظام ، يكون تغييره الذى نعبّر عنه بالمعجزة - والذى هو أيضا نظام من الله ، لكنه نظام خاص استثنائى - دليلا على وجود أنبيائه . ومن هذا يمكننا أن نعد تأييد الأنبياء بالمعجزات من سنن الله أيضا

والنظام الأول العام هو الذى يسمونه القوانين الطبيعية والذى يزعم منكرو المعجزات أنه لا يمكن تغييرها ، لكن الحق أنها قوانين موضوعة غير ناشئة من طبيعة الأشياء حتى لا يمكن تغييرها . ومعنى كونها قوانين أنها قضايا كلية مطردة الصديق اطرادا عاديا غير بالغ مبلغ الضرورة والوجوب ، فلا يكون خلافه محالاعقليا ، لان تلك القضايا مبنية على التجربة ، والتجربة مهما اطردت نتائجها وتبجح العلم الحديث وهواته بالاستناد اليها فلا تكفى فى استناد القضية الضرورية اليها ، لانها انما تدل على العادة لا على الضرورة المنطقية . وقد وفينا حق الكلام فى مبلغ التجربة من قوة الدلالة ، وفى مقارنتها مع الدليل العقلى فى أمكنة عدة من الباب الأول (من الكتاب الكبير) . فان كانت الضرورة شرطا فى القانون ولم يكف اطراد الصديق عاديا فليس هناك شئ يصح أن يقال « قوانين طبيعية » ولذا أنكر الفيلسوف « هيوم » العلم واجتهده « كانت » فى أن يجعل قوانين العلم أى العلم الحديث المبني على التجربة ،

ضرورية فلم ينجح. وقد سبق حل هذه المسائل أيضا (في الكتاب الكبير) . قال
« أميل سسه » : « ان العلم مع كونه ترقى كثيرا في مطالعة الطبيعة لم يثبت في وقت
من الأوقات أن القوانين الطبيعية قوانين ضرورية هندسية » يعني أنها ليست
مستحيلة التغير

وقال « له بينج » : « ليست القوانين الطبيعية عندية محضة كما ادعى « بابل » ولا
ضرورية بالضرورة الهندسية » وكان يقول « مايدار بالما كينة حسن لكنه غير
ضروري » وقال الرياضي الشهير « هانرى بوانكاريه » في كتابه « الفرضية والعلم » :
« القانون التجريبي عرضة دائما للتصحيح فهو لا يزال يتوقع تبدله بقانون أقوى منه »
وقال أيضا « لو كانت الهندسة علما تجريبيا كانت علما تخمينيا ووقتيا »

ومما يجدر بالذكر هنا أن مبنى علم الهندسة على أن كل ما ليس بمتناقض فهو ممكن.
وقال « هوكسلى » من مشاهير علماء الانكليز : « أنا لا أعلم محالا غير التناقض،
ولهذا يوجد محال منطقي ولا يوجد محال طبيعي » وفي معنى هذا كنت قلت فيما سبق
(من الكتاب الكبير) : يوجد محال عقلي ولا يوجد محال تجريبي

فلا شبهة في إمكان المعجزات، والذين ادعوا أنها محالات عقلية ، كالاستاذ فريد
وجدى عند مناظرته معى في مقالات كتبناها متقابلات ونشرتها جريدة الأهرام
قبل بضع سنين ، لم يميزوا ما هو غير واقع بالنظر الى تجربتنا ^(١) عما هو محال، في حين
ان بينهما فرقا عظيما، لأن المحال أخص مما ليس بواقع، فهو يزيد على غير الواقع بعدم
إمكان الوقوع ، وفي حين ان التجربة الدالة على مجرد الوقوع أو اللا وقوع لاتصمد
الى مرتبة الحكم بضرورة الواقع ولا باستحالة غير الواقع ، اذ الحكم بالضرورة

(١) على ان التجارب الماضية من مختلف الأمم في أزمنة الأنبياء تشهد بوقوع المعجزات، فوجود
الانبياء المعروفين صلوات الله وسلامه عليهم وشهود الناس بمعجزاتهم ثابتان، على أن لا يكون ثبوتها
دون ثبوت أى رجل من رجال التاريخ ووقائعه المشاهير

أو الاستحالة أو الامكان من اختصاص العقل ، وليس من شأن التجربة . فالامكان أوسع نطاقا من الوقوع بكثير، والوقوع ضيق، وضرورة الوقوع أضيق ، كما ان الاستحالة التي هي بمعنى عدم الامكان أضيق من عدم الوقوع، فهنا خمس مراتب : الامكان، والوقوع، وضرورة الوقوع، وعدم الوقوع، واستحالة الوقوع، فتحكم التجربة في الوقوع واللا وقوع فقط، حتى ان حكمها في اللا وقوع لا يكون كليا بتمام معنى الكلمة ^(١) أما الثلاثة الباقية فالخاكم فيها العقل . وقد يكون الممكن أمرا عظيما تقصر التجربة عن الوصول اليه، فيظنه قصير العقل مستحيلا أو يكون الواقع كثير الأمثال جدا فيظنه ضروريا ، مثلا يرى النار تحرق دائما مامن شأنه الاحتراق ، فيحكم بان احراقها ضرورى لا يمكن انفكاكه عنها ، مع ان الضرورة أو الاستحالة تندر جدا ولا تختلف مع عظمة الشيء أو تفاهته ، مثلا ان جعل العصاحية، أو إبراء الأكهم والأبرص، أو شق القمر من الممكنات بالنسبة الى قدرة الله، بل يمكنها ايجاد الكون العظيم في آن واحد، واعدامه بعد وجوده في الآن الثانى ، ولا يمكنها ايجاد بعوضة واعدامها معا في آن واحد، أو جعلها تحرك أجنحتها ولا تحركها في آن واحد، لأن فيه جمعا بين النقيضين، وهو محال لا تتعلق به حتى قدرة الله

فاذن يكون منشأ إنكار المعجزات واستبعاد وقوعها ان لم تكن عقيدة المنكر المستبعد في نظام العالم انه من طبيعة الأشياء لا يقبل الانفكاك عنها وليس بجعل اختياري من الله، حماقة محضة ، اذ لا بد اذا كان الله جاعل نظام العالم وكان مختارا في جعله، أن يقدر على تغييره متى شاء ذلك . فالله تعالى في عقيدة المؤمنين اذا شاء يسلب

(١) ومن هنا لا يرى « استوارت ميل » الوجوب والضرورة في أى مسألة تثبت بالتجربة مهما كثر عدد التجارب الواقعة في جميع أزمنة الماضى ، فليس بشئ ازاء عدد الحالات غير المتناهية التي يحتفظ بها المستقبل احتياطا . والقول بأنه لاسبب داعيا على أن لاتكون حالات المستقبل طبق الماضى مؤيدة للتجارب السابقة ، خروج عن مبدأ التجربة واقامة مبدأ آخر مكانها

الأشياء ما جرت سنته فيها، ويكون هذا السلب خرقاً منه للعادة لا خرقاً للعقل حتى يكون محالاً، فكما تكون إمامة الأحياء من القتلة باذن الله يكون إحياء الموتى من أنبياء الله أيضاً باذنه، ولا فرق بين الحالين إلا بكثرة وقوع الأول وقلة الثاني مع تساويهما في الامكان . وكذا الكلام في احراق النار ما تحرقه انه كما يكون باذن الله يكون كف النار عن الاحراق بأمر الله، ولا فرق بين الحالين بالنسبة الى قدرة الله^(١)

بل التحقيق أنه اذا وقع الاحراق فليس ذلك من النار، اذ الفاعل الحقيقي في كل شيء هو الله وليس في الكون مؤثر غيره، فمن عزا فعل الاحراق الى النار والاطفاء الى الماء وقال ان كلا منهما فاعل له فعل خاص به ثم ادعى بملء فيه أنه ثابت بتجربة ومعاينة كل أحد في كل زمان ومكان، فقدوهم لأن الثابت بالتجارب والملاحظات انما هو حصول الاحراق والاحتراق عند مماسة النار ومقارنتها، لا أن فاعل فعل الاحراق ومؤثر هذا الأثر أعني الاحراق هو النار . ولا يلزم من أطراد الأثر ودورانه مع النار أن تكون هي علته الفاعلية لأن العلة أمر لا يرى ولا تتعلق به المعاينة والملاحظة حتى يصح تعيين العلة على أنها النار، وحتى يدعى أن ذلك مجرب مشهود ! ومن هنا يتبين أن كثيراً من الأمور التي يظنها الظانون أنها ثابتة بالتجربة والمعاينة، ليس كما يظنون، فيجب على صاحب النظر الدقيق في المجربات أن يحدد مدلول التجربة تحديداً دقيقاً ولا يتعدى حدودها

وما أحسن ما قال الفيلسوف « مايرانش » كما في « المطالب والمذاهب » في مبحث « الدين في الأزمنة الأخيرة » : « انما نرى نحن توالى الحوادث ولا نرى الرابطة

(١) ولذا قال استوارت ميل: « ان الله الذي أوجد سلسلة الأسباب والعلل قادر على تعطيل عمل هذه السلسلة، فلا تكون المعجزة خارقة للعادة بهذا الاعتبار ولا يخطل قانون السببية، فسبب المعجزة ارادة الله » ومراده من عدم كون المعجزة خارقة انها غير محلة بقانون السببية وهو الناحية المهمة للمسألة لوجود سببها الذي هو ارادة الله، والا فالمعجزة تخرق العادة بتعطيل عمل سلسلة الأسباب

التي تربط أحد الطرفين بالآخر، فلماذا تبقى هذه الرابطة مستخفية عنا ؟ : لكونها شيئاً إلهياً لا يوجد مثله في المخلوقات »

وهذا عين ما قاله علماءنا الأصوليون : « لا تثبت العلية بالدوران » . ففي حادثة الاحراق والاحتراق نرى الاحتراق والجسم المحترق ونرى معهما النار ، ولا نرى كون المحرق هو النار أى لا نعين النار على أنها هي فاعل الاحراق وعلته كما نعين القابل أى المحترق على أنه الجسم الفلاني ، وإن كنا نرى الاحراق والاحتراق فيما رأيناه دائماً يقتربان بالنار ويدوران معها . وذلك لأن العلية لا ترى ولا تثبت بالدوران ، وليست رؤية المقارنة رؤية العلية . فهذه الدقيقة قد فهمها « مالبرانش »^(١) وفهم قبله علماء الاسلام المجتهدون ونعم ما فهموا ، وزاد مالبرانش في الفهم عند تطبيقها على المسائل المادية فقال : إن سبب كون العلية غير مرئية أنها شيء إلهي لا يوجد مثله في المخلوقات، ونحن انما نرى المخلوقات في الحوادث

ولا تقل أيها القارىء إن التردد في كون علة الاحتراق الفاعلية هي النار بعد مشاهدة النار مع كل حوادث الاحتراق، مكابرة ظاهرة لأنى أقول : على أى دليل قطعى الدلالة تبني حكمك هذا ؟ فإن بنيته على التجربة المشاهدة فالتجربة لا تشهد العلية لأن العلية أمر معنوى لا يرى ، وانما مدلول التجارب ومشهودها كون النار مجتمعة مع حادثة الاحتراق والجسم المحترق ودائرة حيثما دارا ، وإن بنيته على الدليل المنطقي فالمنطق

(١) حتى أن الفيلسوف « هيوم » الذى هو أشهر مشاهير المنكرين للمعجزات فهمها أيضا بدليل قوله : « إذا أمعنا في النظر فنحن لا نرى القوانين والأسباب، وإنما نرى الحوادث والنتائج فنقول بالعلية والضرورة من غير أن نراها، فإذا ضربنا إحدى كرتي « بيلاردو » تأخذ الكرة الثانية تتحرك أيضاً، فالذى نرى بحواسنا هو هذا القدر ليس فيه غير الحوادث، وليس فيه غير تقدم حادثة وتأخر أخرى، فالحوادث ترى أنفسها دون عللها وأسبابها » انتهى مع قليل من التوضيح وقال « كوييه » ترى نقل الحركة من جسم إلى آخر موضعاً لنا ، منشأ اعتيادنا الحاصل من مصادفته في كل مكان. وقال « كانت » « مسألة أنه كيف تكون المقابلة والمناسبة بين الجواهر مشكلة ولا شبهة في أن حلها خارج عن نطاق علم البشر »

لا يعترف بدلالة دوران شيء مع شيء ودوام اقترانه به، على كون صلة أحدهما بالآخر صلة العلة بمعلولها، لاحتمال أن تكون صلة الاقتران واطراد الاقتران المشهودة بينهما غير صلة العلية والمعلولية، فادام احتمال أن يكون الله الذى هو خالق كل شيء والذى نحن نتكلم فى مسألة نبوة الأنبياء ومعجزاتهم مع المعترفين بوجوده وكونه خالق كل شيء، هو خالق فعل الاحراق، وأن تكون إرادته هى العلة للاحتراق وهو معلولها وأثرها الصادر منها دون أن يكون صادرا من النار وإنما توجد النار مع الاحتراق كالشرط العادى غير محتاج اليه فاعله وقد اشترط ليكون نظاما ووسيلة يتوسل بها عباد الله فى قضاء حاجاتهم أى ليكون شرطا بالنسبة اليهم لا بالنسبة الى الفاعل يحتاجون الى مراعاته ولا يحتاج هو اليها، بمعنى أن خلقه الاحتراق مع النار وبدون النار سواء عنده وبالنسبة الى قدرته وإرادته، فلو شاء أن يخلق الاحتراق مع الماء والانطفاء مع النار لفعل .. ما دام هذا الاحتمال موجودا ومرجحا على احتمال كون فاعل الاحراق هو النار، توحيداً لفاعل الكائنات ^(١) واختياراً لصيانة انتظامها من التشتت الحاصل من تعدد الفاعل تعدداً يكاد يكون على قدر عدد الكائنات، وما نرى فيها من الأسباب المؤثرة فى المسببات أو بالأصح اشباه الأسباب فجرد ظواهر ساترات للسبب الحقيقى الوحيد الذى هو إرادة الله. ولا يجوز القول بالأسباب فى دين التوحيد إلا على تقدير أن تكون سببيتها مجعولة مستعمارة لا أصلية غير قابلة للتبديل والتغيير، ولا يقول لشيء من الأشياء فى الكائنات بخاصة ناشئة من ذاته غير قابلة للانفكاك عنه إلا الطبيعى المنكر للاله بالمرءة أو المعترف بالاله غير المختار. ولذا قال « مالبرانش » الفيلسوف المار الذى ذكر كما فى مبحث المعرفة من « المطالب والمذاهب » :

« ليست العلة الحقيقية إلا واحدة لأن الاله الحق واحد والقوة التى فى الطبيعة وفى كل شيء عبارة عن إرادة الله، فالاعتراف مثلاً بأن الشمس تعطى الحركة والحياة

(١) ألا نرى أن علماء أصول الدين من أهل السنة قائلون بأن الله تعالى هو خالق أفعال عباده لا العباد أنفسهم، مع كون الانسان أولى بأفعاله من النار بفعل الاحراق

للأشياء يكون شركا . وباستطاعة الملائكة والمقربين لو اجتمعوا لتحريك ورقة من أوراق شجرة يكون تناقضا »

وقال المتكلمون الأشاعرة قبل « مالبرانش » ونعم ما قالوا : « إن الكائنات بأجمعها مستندة الى الله من غير واسطة »

ويحسن أن نتذكر هنا ما سبق ذكره (في الكتاب الكبير) عند مناسبة النفس مع البدن من القانون الذي وضعه « له بينج » وسماه « الوفاق السابق التقدير » « آرموني پره أتابلي » وهو قانون كبير شامل لجميع أجزاء العالم الفردية في مناسبة بعضها ببعض ، فلا تأثير ولا تأثر بينها أصلا عنده لكون كل منها بسيطا لا روازن لها حتى تدخل فيها أشياء وتخرج ، وإنما حصول أثر الواحد « مونا د » في الواحد الآخر بتدخل الله ، بمعنى أنه تعالى أراد عند تنظيم الأشياء أن يراعى الواحد في تنظيم غيره ، وأن يراعى غيره في تنظيمه فيتوازن الجميع

وقال « هيوم » : « اذا نظرنا الى أى شيء أول مرة فلا ندري ما الذى يستعد ذلك لأن يفيد ؟ وليس فى الكون ذرة نستطيع تخمين ما تحوزه من قوة ، ولا أى شيء نستطيع القول بأنه معلول تلك القوة فتعقب واقعة واقعة أخرى ، لكن حواسنا لا ترى القوة التى تمشى بهذه الماكينة ، لا نراها فى أى صفة محسوسة من صفات الأجسام المادية ، فكل ما نعلمه ان النار حارة ، لكن التلازم بين النار والحرارة يظل دائما فوق علمنا »

يريد أن يقول : إن كل صفة أو خاصة من صفات الأشياء وخواصها ليس بينها وبين تلك الأشياء تلازم عقلى يجعلها ضرورية لها ، ويجعل انفكاكها عنها مستحيلا ، فلا نعلم لماذا كان السكر حلوا والملح مرا والسم قاتلا والنار محرقة . فكما لا نعرف أسباب ذلك لا يُعرف قبل التجربة اتصافها بصفات الخاصة ، فلا ترون فى مرآتها الخارجية ما يفيد معنى من تلك المعانى ، حتى إن من لم ير السم اذا رآه لا يخطر بباله

أنه يقتل الإنسان وربما لا يأبى تناوله، فكل هذه الأحوال يرينا أنه ليس بين الأشياء وخواصها تلازم عقلي غير قابل للانحلال كالتلازم بين الأربعة وزوجيتها والثلاثة وفرديتها، ولذلك تعلمه أنت قبل تجربتهما، كما تعلم أن الثلاثة في ثلاثة تكون تسعة، ولا تحتاج في تعلمه الى التجربة ، فهذه مسائل رياضية تفيد القطعية والضرورة لكونها مبنية على الأساس العقلي، وتلك مسائل طبيعية مبنية على التجربة التي لا يبلغ مدلولها مبلغ الضرورة، ولا يستحيل خلافه عند العقل. ولهذا: أى وكون مسائل العلم الطبيعي مبنية على التجربة التي لا تدل على القطعية الضرورية وإن دلت على القطعية الواقعية، أنكر « هيوم » وجود القوانين الطبيعية وقال: إنها عادات مشهودة على أنها نتائج الحوادث وليس بأمور أزلية ضرورية تتبعها الحادثات . وهذا الكلام من هذا الرجل الملحد لدرجة « بوختر » الألماني ولكنه أذكى منه بكثير وأدق فهما ، يؤيد ما نهينا اليه على طول كتابنا (الكبير) من بطلان الدعوى التي تجعل الثقة العالمية مقصورة على التجربة وتفضلها على البراهين العقلية المنطقية والتي هي أساس الإلحاد المصري. هذا ، ولا يعاب على أن استظهرت بكلام فيلسوف ملحد مثل « هيوم » لا يدين بالله ولا بالنبي ومعجزته ، في الرد على الذين يعدون معجزات الأنبياء من المستحيلات، ولا يشقون بالأدلة العقلية ثقتهم بالتجارب الحسية التي تبنى عليها قواعد العلم الحديث، لأنى أنظر في القول ولا أنظر في القائل، فأنتبع من أقوال كل قائل ناحيتها الأقوى، ولا يعنينى أن يكون القائل من أنصار عقيدتى أو من خصومها ، بل يعجبني أن أجد شاهدا لها في كلمات الخصوم . أليس أولى بموقفى تجاه منكرى المعجزات بحجة منافاتها لقوانين الطبيعة ، أن يكون أحد من الفلاسفة المعروفين تكلم في قيمة تلك القوانين، ولم يكن ذلك منه لإثبات إمكان المعجزات كما أنى أتكلم فيها لإثباته . فاعترض « هيوم » على القوانين الطبيعية حق في نفسه غير مجاب عنه، والفيلسوف نفسه بعيد عن الاتهام بمحاباة المؤمنين بالأنبياء ومعجزاتهم .

وقال « هيوم » أيضا : « إن الناس عامة لا يرون أى أشكال فى الحوادث الطبيعية مثل سقوط الأجسام الثقيلة الى الأرض ونمو النباتات وتكثر الأنواع بالتوالد والتناسل، وتربى الأبدان بالأغذية ، وهم مقتنعون بفهم القوة التى تلد هذه النتائج فلا يبقى عندهم احتمال الخطأ فى النتائج ، وفى الحقيقة انهم لما يرون العلة بحسب التجربة والعادة يحكمون بظهور معلول يوافق تلك العلة ، فمن الصعب اقناعهم بكون أى علة يعقبها غير معلولها . ولكنهم اذا وقعت زلزلة أرضية أو مصيبة غير معتادة يؤمنون لذلك بقوة غير مرئية، ومع هذا ذات عقل واردة، ويقولون بكون تلك الحوادث غير القابلة للإيضاح أفعال هذه القوة

» بيد ان أصحاب الأفكار العميقة والفلاسفة يعلمون ان القوة التى توجد الحوادث المضادة الواقعة كل يوم غير قابلة للإيضاح أيضا مثل القوة الموجدة للحوادث الهامة غير المعتادة ، ولذلك يحملون الحوادث كلها على فعل القوة التى يحملون الوقائع غير المعتادة على فعلها، فليست العلة الحقيقية عند هؤلاء الفلاسفة لكل معلول قوته الفطرية بل ارادة الوجود الأعلى »

وهذا القول أيضا الذى يتضمن تحبيذ أولئك القائلين بتوحيد القوى ورد كلها الى ارادة الوجود الأعلى ، مما يعجبني صدوره من « هيوم » رغم كونه من ملاحدة الفلاسفة ومن غلاة منكرى المعجزات ، وهو والفلاسوف الفرنسى الملحد أيضا « جوستاف لوبون » ماسرتنى أقوال فلاسفة الدين نقلت عنهم واستشهدت بهم فى هذا الكتاب (الكبير) سرور قولها ، اذ وجدت فى قول « لوبون » أبلغ شهادة بوجود الله وأصرحها كما سبق فى آخر الفصل الرابع من الباب الأول ، ووجدت فى قول « هيوم » أقوى رد على منكرى المعجزات بادعاء استحالتها، وهذا على الرغم من كون « هيوم » نفسه منكرا للمعجزات مشتهرا بانكارها لعدم اعترافه بوجود الله الذى لاعمى لانكار المعجزات بعد الاعتراف بوجوده

الحاصل ان المعجزات لا ينكرها الا المنكرون لوجود الله، ومن الغرابة ان جمهورهم يتمسكون هنا بنظام العالم الذى أنكروه حين أنكروا وجود الله فيقولون : انه نظام للعالم ناشئ من طبيعة الأشياء لا يمكن خرقه بالمعجزات. وقد كنت علمت مما سبق فى الكتاب الكبير ان «بوختر» امام الملاحدة أو بالأصح لسانهم المحامى عن مذهب الالحاد يجعل نظام العالم عبارة عن المصادفة والفوضى، فكيف يمكنه أن يدعى فى مسألة المعجزة انها تخالف نظام العالم مع انه منكر لنظام العالم قبل انكاره المعجزة بحجة أنها تغيير لنظام العالم ؟ فأى مانع فى المصادفة والفوضى يمنع تغيير شيء فى مجاريهما احتفاظا بنظامهما الذى هو عدم النظام ؟

أما اذا كان الله موجودا عند أناس ، ثم رأيتهم لا يعترفون بسعة قدرة الله التى وسعت خلق السماوات والأرض ، نخلق معجزة بتغيير أقل جزء من أجزائهما ، فذلك منهم حماقة تختلف عن حماقة الالحاد، ان لم تكن أكبر منها كانت أظهر ، وما أحسن قول أبى الملاء :

إذا آمن الانسانُ بالله فليكن لبيا ولا يَخْلُطَ بإيمانه كفرا

ثم ان انكار المعجزة يتضمن انكار النبوة، فتشتد الحماقة وتضاعف فيمن يؤمن بالأنبياء وينكر معجزاتهم، لان نبوتهم تبدأ من الايمان اليهم الذى ان لم تكن معجزة لعدم اقترانه بالتحدى فهو معجزة من حيث انه خارق للعادة، وان منكر المعجزة ينكرها لخرقها العادة

وبناء على شدة الاتصال بين انكار المعجزات وانكار النبوة نرى الذين يكتبون عن الأنبياء عليهم السلام من غير تعرض لمعجزاتهم ، يصورونهم ويترجمون عن حياتهم كأنهم لا يمتازون عن الناس الا بما يمتاز به العظماء والحكماء الأمثال من دون أن يكون لهم صلة خصوصية بالله تعالى غير فطرتهم التى فطرهم على أن يكونوا عظماء وفى مقدمتهم

وقد يكون تصوير الأنبياء كما صور أولئك الكتاب موافقا لرأى الشيخ محمد عبده حيث قال فى تعليقاته على شرح الجلال الدوانى للعقائد المضدية بعد ذكر الأقوال فى تعريف النبى ص ٣ :

« أقول قد يعرف النبى بانسان فطر على الحق علما وعملا أى بحيث لا يعلم الا حقا ولا يعمل الا حقا على مقتضى الحكمة ، وذلك يكون بالفطرة أى لا يحتاج فيه الى الفكر والنظر، ولكن التعليم الالهى ، فان فطر أيضا على دعوة بنى نوعه الى ما جبل عليه فهو رسول أيضا والا فهو نبى فقط، وليس برسول فتفكر فيه فانه دقيق »

وأنا أقول ليس فى تعريف الشيخ شىء من خصائص النبوة والرسالة لا وحى ولا ملك مرسل ولا كتاب منزل ولا معجزة ، وعليه فمن أين يعرف كونه « لا يعلم الا حقا ولا يعمل الا حقا » من أين يعرفه هو نفسه؟ ومن أين يعرفه بنو نوعه اذا دعاهم؟ نعم فى تعريف الشيخ : «ولكن التعليم الالهى» لكنه يمكن حمل هذا التعليم أيضا على الفطرة، ثم ىرد عليه السؤال المذكور : من أين يعرف أنه تعليم إلهى^(١) . ويؤيد ما قلنا أن الشيخ بنى حتى دعوة بنى نوعه على الفطرة لا على أمر خاص من ربه كما يؤمر به الانبياء ، حيث قال معرفا للرسول بعد تعريف النبى : « فان فطر على دعوة بنى نوعه الى ما جبل عليه » فنص فى موضعين من هذه الجملة على الفطرة والجبله ، ثم ختم كلامه بقوله : « فتفكر فيه فانه دقيق » وتفكر أنت أيها القارىء فى أن النبى والرسول على تعريف الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية سابقا ليس بالنبى والرسول

(١) ولهذا ترى علماءنا الذين دونوا العلوم الاسلامية يدخلون البعث والوحى ، ولا سيما الوحى فى تعريف النبى والرسول ، ويقولون هو إنسان بعثه الله الى الخلق لتبليغ ما أوحى اليه ، ثم يقسمون الوحى الى ثلاثة أقسام : الأول ما ثبت بلسان الملك فوق فى سمعه بعد علمه بالمبلغ بآية قاطعة والقرآن من هذا القليل . والثانى ما وضح بإشارة الملك من غير بيان بالكلام . والثالث ما ألهمه الله تعالى بأن أراه بنور من عنده . والذين يرون الاجتهاد للأنبياء من علماء الأصول جعلوه قسما رابعا وسموه وحيا خفيا ، وما ينقسم الى الثلاثة الأولى التى بها يصير النبى نبيا ، وحيا ظاهرا .

الذين يعرفهما الاسلام والمسلمون بل المليون كلهم ، وانما هو رجل من أمثال الذين يثقون بأنفسهم في صحة آرائهم ومبادئهم، ويأمل الناس فيهم الصلاح والاصلاح . ولا يكون مراد الشيخ إلحاق هذه الطائفة الممتازة من الناس بالأنبياء والرسل ، بل مراده تنزيل الأنبياء والمرسلين المعروفين صلوات الله عليهم ، الى منزلتهم تفاديا عن مؤونة الخوارق التي تلازمهم في معجزاتهم وكيفية الإيجاء اليهم .

تفكر فيه وفي كون صحافة مصر المنحرفة عن الثقافة الاسلامية الى الثقافة الغربية لا تزال تشيد باسم الشيخ قائل هذا القول والآمر في خاتمته بالتفكر الدقيق، ثم تفكر في إنكار الأستاذ فريد وجدي معجزات الأنبياء جهارا نهارا على صفحات «الأهرام» أثناء مناقشته إياي في إمكانها بله وقوعها ، تلك المناقشة التي استمرت أياما وعين الأستاذ قبل انتهائها مدير « مجلة الأزهر » المسماة يومئذ « نور الاسلام » ورئيس تحريرها، ثم تفكر في كتاب « حياة محمد » لمعالى الدكتور حسين هيكل باشا وهو مثل فؤاد أم موسى في معجزات نبينا المثلة لحياته المعنوية، والتي خصص لها الأستاذ الهندي كاتب حياته ﷺ قبيل الكاتب المصري مجلدات، في مجلدين

فان قيل: ^(١) ليس هناك من ينكر معجزة القرآن ولا يشهد بها، وانما يحلون حياة نبينا ﷺ عما يسمونه المعجزات الكونية لعدم ثبوتها تواترا كما ثبت القرآن، ولا مكان التأويل في بعضها بالحداثات العادية كما أول معالى هيكل باشا حادثة جواد « سراقه » في طريقه الى المدينة الذي كبا مرة ورمى را كبه على الأرض وخسف حافره الأرض مرة ثانية ، وكان خرج لتعقيب الرسول أثناء الهجرة ؛ فأولها بالكبوة العادية ^(٢) وكما أول سورة الفيل اتباعا لتأويل الشيخ محمد عبده في تفسيره ،

(١) هذا السؤال يطول ذيله الى آخر ما سأقله من مقدمة كتاب « حياة محمد » وجوابه أطول ذيلا وأعني به تمام ما كتبت بعد انتهاء النقل من ذلك الكتاب الى آخر كتابي هذا تقريبا، فضلا عما كتبت في أثناء النقل من التعليقات .

(٢) مع أن سراقه صاحب الجواد لم يؤولها بها، بل تشاءم منها واضطر الى الاصطلاح مع النسي

ولصعوبة تمييزها من حادثات السحر والشعوذة وأفعال أهل الصناعات الغريبة، ولذا قال الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » في عدده الذى صدر بعد كتاب « حياة محمد » راداً على الذين اعترضوا على الكتاب ، وقد أثبتته معالى مؤلفه فى مقدمة الطبعة الثانية وأنا أنقل منها :

« أهم ما ينكره الأزهريون والطريقون على هيكىل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتها فى كتاب « الوحي المحمدى » من جميع مناحيها ومطاويعها فى الفصل الثانى وفى المقصد الثانى من الفصل الخامس بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على نبوة محمد ﷺ بالذات، ونبوة غيره من الأنبياء بشهادته لا يمكن فى عصرنا إثبات آية إلا بها، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه (أى علماء عصرنا) لا حجة ، لأنها موجودة فى زماننا ككل زمان مضى ، وأن المفتوتين بهم الخرافيون من جميع الملل ، وبنيت سبب هذا الافتتان والفروق بين ما يدخل منها فى عموم السنن الكونية والروحية وغيرها »

وقال فضيلة الأستاذ الأبر محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فيما كتبه تعريفاً بكتاب هيكىل باشا ورداً على المعارضين : « لم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلا فى القرآن ^(١) ، وما أبدع قول البوصيرى :

لم يمتحننا بما تعبى العقول به حرصاً علينا فلم نرتب ولم نهم »

وكان فضيلته يريد أن يستشهد بقول البوصيرى رحمه الله هذا على عدم ظهور المعجزات الكونية على يد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وانحصار معجزته فى القرآن ،

صلى الله عليه وسلم ، والعجب من منكرى المعجزات أنهم إذا رأوا ما يقبل التأويل قالوا هذا ليس بمعجزة لأنه لا يخرق العادة، وإذا رأوا ما يخرقها قالوا هذا محال يخالف لسنن الكون .

(١) فقد ظهر اتفاق فضيلة الشيخ المراغى والشيخ رشيد رضا بل الشيخ محمد عبده أيضاً مع الدكتور هيكىل باشا والأستاذ فريد وجدى فى انكار المعجزات

وسيجيء جوابنا إن شاء الله مفصلاً على تقرّيط هذين الشيخين: شيخ المتار وشيخ الأزهر
وقال معالى هيكمل باشا فى مقدمة الطبعة الثانية لكتابه اعتذارا عن عدم
ذكر شىء من معجزات نبينا الكونية فى الكتاب المسمى « حياة محمد » وجوابا على
مؤاخذة من الدين سماهم المشتغلين بالعلوم الدينية :

« إننى لم آخذ بما سجله كتب السيرة وكتب الحديث، ولم أنهج فى التعبير عن
مختلف الحوادث نهجها . ولقد كان يكفينى رداً على هذا أننى أجرى فى هذا البحث
على الطريقة العلمية الحديثة^(١) وأكتبه بأسلوب العصر ، وإننى أفعل ذلك لأنه الوسيلة
الصالحة فى نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون، وما كان
لى ، وذلك شأنى ، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها، وبين هذين وبين النهج
والأساليب فى عصرنا الحاضر بون عظيم ، إن النقد فى الكتب القديمة لم يكن مباحا
بالقدر الذى يباح به اليوم ، وإن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية
تعبدية على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالنهج العلمى والنقد العلمى^(٢) لكنى
رأيت من الخير أن أتبسط بعض الشىء فى بيان الأسباب التى دعت المفكرين من أئمة
المسلمين، كما تدعو كل باحث مدقق ، الى عدم الأخذ جزافا بكل ماورد فى كتب السيرة

(١) الطريقة العلمية التى يتبجح بها معالى المؤلف ويباهى باتباعها فى تحرير كتابه، والتى يدعى أنه
بنى عليها انكار المعجزات، هى الطريقة نفسها التى يدعى ملاحدة الغرب انهم بنوا عليها أنكارهم
لوجود الله .

(٢) إذا كان قانون الدين لا سيما حديث (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)
يجزى الكاذبين بنار جهنم ، وقانون التحرر من القيود الدينية لا يعترف بالجزاء على أى جرم جرى
فى الخفاء وبقي على ذلك ، فمن أظلم السخافة وأسخف الظلم أن يوضع أقوال الكتاب المؤمنين
بالدين تحت شبهة الكذب لكونهم مؤمنين متقيدين فى أقوالهم ، ويؤتمن بأقوال الكتاب غير
المقيدين بالدين لعدم كونهم متقيدين به ، والله در المعرى حيث يقول :

وما الناس إلا خائفو الله وحده إذا وقع التمي فى كف ناقد

وفي كتب الحديث^(١) وإلى التقيد بقواعد النقد العلمي « ص ٤٦-٤٧ »
« وأول هذه الأسباب ما بين تلك الكتب من خلاف في رواية الكثير من
الأمور المنسوبة إلى النبي العربي ، فقد لاحظ الذين درسوا هذه الكتب أن ما روت
من أنباء الخوارق والمعجزات ومن كثير غيرها من الأنباء كان يزيد وينقص دون
مسرغ الاختلاف الأزمان التي وضعت هذه الكتب فيها ، فقديمها أقل رواية
للخوارق من متأخرها ، وما ورد من الخوارق في الكتب القديمة أقل بعداً عن مقتضى
العقل مما ورد في كتب المتأخرين ، وهذه سيرة ابن هشام أقدم السير المعروفة اليوم
تغفل كثيراً مما كتبه أبو الفداء في تاريخه ، ومما ذكره القاضي عياض في الشفاء ، ومما
ذكر في كتب المتأخرين جميعاً ، وكذلك الشأن في كتب الحديث واختلافها^(٢) . فبعضها

(١) لم يبق في كتب الحديث والسيرة محل للاختلاف فيها أن يأخذ به جزافاً بعد أن غر بلها
ونخلها علماء الإسلام أنفسهم بدقة لا مثيل لها في الدنيا ، فنقد الرجال ، أي نقد رجال الحديث ،
علم مدون في الإسلام فعلاً ليس كالنقد العلمي قولاً مجرداً يكرر لجاذبيته في أفواه الكتاب
العصريين ، وليس بعد غر بلة الأحاديث النبوية وروايتها بأيدي علماء الإسلام الاختصاصيين
بمجال لم يدقق إلا مدققاً معادياً ير كل الغربال والمنخل ويرفض الكل جزافاً . ولنا كلام
في هذا الصدد لا تسعه هذه التعليقة الموجزة فنرجئه إلى ختام النقل عن كتاب المؤلف

(٢) الزيادة في كتب متأخرى المؤلفين في السير على ما كتبه متقدموهم ، كان الأقرب
إلى العقل والانصاف أن تحمل على اطلاع الأواخر على ما لم يطلع عليه الأوائل كما هو
الباعث المعروف على تلاحق التأليفات بعضها مع بعض ، فلو كتب الحديث عين ما كتبه
القديم ولم يزد عليه شيئاً لاستغنى عن كتابه . وهناك سبب آخر وهو أن موضوع كتب
السيرة كان يختص بغزوات النبي ﷺ يؤيده أن تلك الكتب تسمى أيضاً بالمغازي ،
حتى قال الحافظ ابن حجر : إن السير والمغازي مترادفتان ، وفي الفقه كتاب السير والجهاد ،
كما أن فيه كتاب الصلاة وكتاب البيوع مثلاً ، ثم توسع المتأخرون في الموضوع فزادوا
فيه من سيرته ﷺ مطلقاً . فالما لم يعرف مؤلف « حياة محمد » هذا التطور في موضوع

يروى قصة من القصص وبعضهم ينفصلها وبعضهم يضعها^(١)، فلا بد للباحث في هذه الكتب جميعا بحثا علميا أن يضع مقياسا يعرض عليه ما اختلفت فيه وما اتفقت عليه، فما صدقه هذا المقياس أقره الباحث، وما لم يصدقه وضعه موضع التمهيص، اذا كان مما يقبل التمهيص ص ٤٧ - ٤٨

« وسبب آخر يوجب تمهيص ماورد في كتب السلف ونقده نقداً دقيقاً على الطريقة العلمية ان أقدمها كتب بعد وفاة النبي بمائة سنة أو أكثر وبعد ان فشت في

كتب السيرة، أو بالأولى لما لم يعرف خصوصية ما قبل التطور، أساء ظنه بزيادات المتأخرين نعم ان كتب السيرة مطلقاً لاتعدل كتب الحديث في صحة الرواية، ومعالي المؤلف كما أخطأ هنا في التسوية بينهما في عدم الاعتماد أخطاءً أيضاً في اختيار ما في كتب السيرة على ما في كتب الحديث اذا وقع الخلاف بينهما، مثل غزوة ذي قرد كتب أصحاب المغازي كونها قبل صلح الحديبية وتبعهم المؤلف، لكن مسامحة يذكرها بعده وهو الأصح كما حققه ابن حجر في « فتح الباري »، ومثل غزوة ذات الرقاع يقدمها أصحاب المغازي على غزوة خيبر وتبعهم المؤلف لكن الأصح كونها بعدها كما في صحيح البخاري . ومن هنا يظهر ان تأليف كتاب عن حياة محمد ﷺ على وجه الصحة يتوقف على درس كتب الحديث أكثر من كتب السيرة الذي هو أسهل بكثير من الدرس الأول والذي لاتجاوزه استطاعة أمثال معاليه

ثم ان المؤلفين في المغازي كثيرون وليس ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ أقدمهم فالتأليف يبتدىء من ابان بن عثمان رضى الله عنه المولود سنة ٢٠ ثم عروة بن الزبير المولود بعد ابان بقليل ، ثم شرحبيل بن سعد، ثم الزهري المولود سنة ٥٠ وهو أستاذ أستاذ البخاري وامام كبير في الحديث لقي عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز ويحتمل ان يكون تأليفه في المغازي بأشارة الأخير

(١) والمؤلف يتبع الغفل والمضعف إما محافظة على مبدأ سوء الظن بالمؤلفين المؤمنين ، أو فراراً من مؤنة التدقيق الذي يمكن أن يسفر عن بعد نظر مثبت القصة

الدولة الإسلامية دعايات سياسية وغير سياسية كان اختلاق الرويات والأحاديث بعض وسائلها الى الذبوع والغلب ، فما بالك بالتأخر مما كتب في أشد أزمان التقلقل والاضطراب . وقد كانت المنازعات السياسية سببا فيما لقيه الذين جمعوا الحديث ونفوا زيفه ودونوا ما اعتقدوه صحيحا منه من جهد وعنت أدى اليهما حرص الجامعين على الدقة والتمحيص حرصا لا يتطرق اليه ريب . ويكفي ان يذكر الانسان ما كابده البخارى من مشاق وأسفار في مختلف أقطار الدولة الإسلامية لجمع الحديث وتمحيصه ، وما رواه بعد ذلك من أنه ألقى الأحاديث المتداولة تربى على ستمائة ألف حديث لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف ، وهذا معناه أنه لم يصح لديه من كل مائة وخمسين حديثا الحديث واحد . أما أبو داود فلم يصح لديه من خمسمائة ألف حديث غير أربعة آلاف وثمانمائة وكذلك شأن سائر الذين جمعوا الحديث ^(١) وكثير من هذه الأحاديث التي

(١) مسألة تمحيص الأحاديث النبوية وتمييز ما يوثق به منها عن غيره ، واختيار أفضل طرق التمييز وأسماها مهما شق ذلك ، لا يمكن أن يعالجها ويقوم بواجب تحقيق الحق فيها لوجه الحق الذي قد سبق في مقدمة الكتاب (الكبير) ان الدكتور هيكل باشا يبحث عنه في كتب الغربيين أحد أو طائفة أو أمة ، لاسيما في الأعصار الأخيرة التي ليس فيها وجه ينظر اليه غير وجه المادة ، مثل ما عالجها علماء الاسلام المتقدمون وقاموا بواجب تحقيق الحق فيها « لوجه الحق » الذي لا يكون له معنى أصدق من « وجه الله » ولنكتب هنا مرة ثانية قول المعري :

وما الناس الا خائفو الله وحده اذا وقع التمي في كف ناقد

فلو أخذت أشرح أهمية المسألة وما بذله أولئك العلماء الأعلام في انتقاد الأحاديث وانتقائها لزم ان أكتب كتابا في ضخامة مجموع كتب الحديث مع شروحها والمعلقات عليها ، تلك الكتب التي تفص بها دور الكتب الإسلامية والاستشراقية ، لأن كتب الحديث كلها انتقاد وكلها انتقاء . =

صحت عندهم كان موضع نقد وتمحيص عند غيرهم من العلماء انتهى بهم الى نفي الكثير

= حسبك شاهدا في هذا مقاله هيكل باشا نفسه : إن البخارى وحده انتقى ما كتبه في صحيحه وهو أربعة آلاف حديث من ستمائة ألف حديث وأبا داود وحده انتقى ما كتبه في سننه وهو خمسة آلاف الالمائتين من خمسمائة ألف حديث . فأى همة جبارة هذه وأعنى بها تدقيق ستمائة ألف حديث لكتابة أربعة آلاف حديث أو تدقيق خمسمائة ألف حديث لكتابة خمسة آلاف : فهذا العمل العظيم الحير للعقول في سبيل تمحيص الأحاديث النبوية والذي يحق أن يكون نفرا لعلم الحديث الاسلامى وعلمائه ، يستخدمه هيكل باشا في زعزعة مكان الثقة بكتب الحديث في قلوب الناس ، وقد كان الامامان البخارى وأبو داود توخيا بعملهما هذا النثل الأعلى في التمحيص والتوثيق . فليخش الله وليتقه أو ليسدد فهمه من قلب الأمر فاتخذ تهمة وسلاحا ضد كتب الحديث مطلقا ، على أن يكون فيها كتابا البخارى وأبى داود أيضا اللذان ليس كل منهما الارواح التمحيص بالنظر الى تعريف المتهم نفسه

ولقد أساء معاليه جدا في تفسير اختيار هذين الامامين ما اختاراه في جامعهما من الأحاديث فقال في اختيار البخارى مثلا : « وهذا معناه انه لم يصح لديه من كل مائة وخمسين حديثا إلا حديث واحد فقط » فهو يزعم ان البخارى مثلا ينفى صحة جميع ما بقى بعد استثناء أربعة آلاف من الستمائة ألف حديث التى كانت لديه ، مع أن البخارى لم يقصد استيعاب ما لديه من الأحاديث الصحيحة بله استيعاب الأحاديث الصحيحة مطلقا ، وانما أراد وضع مختصر يحتوى من الأحاديث النبوية طائفة في أعلى درجات الصحة نظرا الى الشروط الضيقة الملزمة عنده حتى أخذه مسلم عليه في أول صحيحه وعده من الافراط في الاشتراط وذهب الحاكم وتبعه البيهقي والحافظ أبو بكر بن العربى وان لم يسلم لهم بذلك ، الى أن شرط البخارى ومسلم أن لا يخرجوا إلا حديثا سمعاه من شيخين عدلين ، وكل واحد منهما رواه أيضا عن عدلين كذلك الى أن يتصل الحديث على هذا القانون برسول الله ﷺ . وقال الحافظ أبو بكر محمد بن موسى الحازمى في =

منها . فاذا كان ذلك شأن الحديث وقد جهد فيه جامعوه الأولون ما جهدوا ، فما بالك

= كتابه «شروط الأئمة الخمسة» : «لم يلتزم البخارى ان يخرج كل ماصح من الحديث، كما انه لم يخرج عن كل من صح حديثه ولم ينسب اليه شئ من جهات الجرح وهم خلق كثير يبلغ عددهم نيفا وثلاثين ألفا، لأن تاريخه (أى البخارى) يشتمل على نحو أربعين ألفا وزيادة، وكتابه فى الضعفاء دون سبعمائة نفس، ومن أخرج عنهم فى جامعه دون ألفين وكذا لم يخرج كل ماصح من الحديث. ويشهد لصحة ذلك ما أخبرنا أبو الفضل ابن أحمد بن محمد أنبأنا ابن طلحة فى كتابه عن أبى سعيد المالينى أنبأنا عبد الله بن عدى حدثنى محمد بن أحمد قال سمعت محمد بن حمدويه يقول سمعت محمد بن اسماعيل (يعنى البخارى) يقول احفظ مائة ألف حديث صحيح واحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح» وأنبأنا أبو مسعود عبد الجليل بن محمد فى كتابه أنبأنا أبو على أحمد بن محمد بن شهر يار أنبأنا أبو الفرج محمد بن عبد الله بن أحمد أنبأنا أبو بكر الاسماعيلي قال سمعت من يحكى عن البخارى أنه قال «لم أخرج فى هذا الكتاب إلا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر»

فانظر ما قاله البخارى نفسه من أنه يحفظ مائة ألف حديث صحيح وأن ما تركه من الصحيح أكثر مما كتبه فى كتابه، ثم انظر ما قاله هيكىل باشا عن البخارى إنه لم يصح لديه من الأحاديث المتداولة وهى ستمائة ألف إلا أربعة آلاف، يقول هذا فى مقدمة كتابه التى ادعى أنه كتبه على الطريقة العلمية فيسند إلى البخارى ما صرح هو بخلافه، أفهنا طريقته العلمية ؟ وقد كنت لما كنت فى بلادى قرأت فى كتاب أحد من كتاب الترك العصريين أيضا حديث انتقاء أربعة آلاف حديث للبخارى من ستمائة ألف مع استغلال هذا الانتقاء لأثارة الشبهة ضد كتب الحديث ، فهذا الاتفاق بين كاتبين شرقيين يدل على اتحاد مأخذهما وكون ذلك المأخذ كتب أعداء الاسلام المستشرقين فيكون معنى الطريقة العلمية التى ادعى مؤلف «حياة محمد» اتباعها تبريرا لعدم اعتماده على كتب الحديث ، هى الطريقة العدائية لتلك الكتب ومكانتها فى الاسلام كأن أصحاب هذه الطريقة أعلم من الأحاديث بما صح لدى البخارى من البخارى نفسه =

بما ورد في التأخر من كتب السيرة، وكيف يستطاع الأخذ به دون التدقيق العلمي

= مقصود معاليه من إثارة الشكوك جهد ما يستطيعه وما لا يستطيعه في صحة كتب

الحديث والسيرة ، تأييد ما ادعاه من عدم وجود معجزة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم غير القرآن ، باسقاط ما روى في كتب السيرة ثم ما روى منها في كتب الحديث ، عن حيز الاعتداد متوسلا إلى هذا الاسقاط باسقاط تلك الكتب نفسها أو على الأقل بتزييل ما فيها من الأحاديث الصحيحة منزلة النادر الذي هو في حكم المعلوم .

وعلى كل حال كان الواجب على معالي وزير المعارف بمصر لا سيما وهو مؤلف كتاب « حياة محمد » أن يعلم أن أحاديث نبينا الصحيحة الصادرة عنه مدة حياته بعد مبعثه لا يمكن أن تنحصر عند البخاري فيما ذكره في جامعه بله في بعض ما ذكر فيه كما ادعاه ولا أن يكون مملسو خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم مقصرين نحو نبهم الى حد أنهم لم يضبطوا من أحاديثه إلا مقدار بعض ما في جامع البخاري أو أبي داود .

ثم اذا فرضنا فرض المحال أن أحاديثه المضبوطة تنحصر في ذاك المقدار كان الواجب على مؤلف « حياة محمد » أن يعلم أنه لا يخلو حتى ذلك القدر المضبوط من أحاديثه عما يكفي لاثبات أن له معجزات غير القرآن ، مع أن الأحاديث الصحيحة كثيرة جدا . قال صديقنا العالم الكبير الشيخ زاهد في تعليقاته القيمة على « شروط الأئمة الخمسة » المارة الله كره : « قال الشيخ أبو بكر بن عقال الصقلي في فوائده على مارواه ابن بشكوال إنما لم يجمع الصحابة سنن رسول الله ﷺ في مصحف كما جمعوا القرآن لأن السنن انتشرت وحقى محفوظها من مدخولها ، فوكل أهلها في نقلها إلى حفظهم ولم يוכלوا من القرآن الى مثل ذلك ، وألفاظ السنن غير محروسة من الزيادة والنقصان كما حرس الله كتابه ببديع النظم الذي أعجز الخلق عن الاتيان بمثله ، فكانوا في الذي جمعه من القرآن مجتمعين ، وفي حروف السنن ونقل نظم الكلام نصا مختلفين ، فلم يصح تدوين ما اختلفوا فيه ، ولو طمعوا في ضبط السنن كما اقتدروا على ضبط القرآن لما قصرُوا = (٤ — القول الفصل)

== في جمعها، ولكنهم خافوا إن دونوا ما لا يتنازعون فيه أن تجعل العمدة في القول على المدون فيكذبوا ما خرج عن الديوان فتبطل سنن كثيرة، فوسعوا طريق الطلب للأئمة فاعتنوا بجمعها على قدر عناية كل واحد في نفسه، فصارت السنن عندهم مضبوطة فمنها ما أصيب في النقل حقيقة الألفاظ المحفوظة عن رسول الله ﷺ وهي السنن السالمة من العلل، ومنها ما حفظ معناها ونسى لفظها، ومنها ما اختلفت الروايات في نقل ألفاظها واختلفت أيضا روايتها في الثقة والعدالة، وهي تلك السنن التي تدخلها العلل فاعتبر صحيحها من سقيمها أهل المعرفة بها على أصول صحيحة وأركان وثيقة لا يخاص إليها طعن طاعن ولا يوهنها كيد كائد. انتهى ما قاله أبو بكر بن عقال الصقلي.

ثم قال الشيخ زاهد: «ومما يلفت إليه النظر أن الشيخين (يعني البخاري ومسلم) لم يخرجوا في الصحيحين شيئا من حديث الامام أبي حنيفة مع أنهما أدركا صغار أصحاب أصحابه وأخذوا عنهم. ولم يخرجوا أيضا من حديث الامام الشافعي مع أنهما لقيا بعض أصحابه ولا أخرج البخاري من حديث أحمد إلا حديثين: أحدهما تعليقا، والآخر نازلا بواسطة مع أنه أدركه ولازمه، ولا أخرج مسلم في صحيحه عن البخاري شيئا مع أنه أدركه ولازمه ونسج على منواله ولا عن أحمد إلا قدر ثلاثين حديثا. ولا أخرج أحمد في مسنده عن مالك عن نافع بطريق الشافعي وهو أصح الطرق أو من أصحابها، إلا أربعة أحاديث، وما رواه عن الشافعي بغير هذا الطريق لا يبلغ عشرين حديثا مع أنه جالس الشافعي وسمع موطأ مالك منه وعده من رواة القديم. والظاهر من دينهم وأمانتهم أن ذلك من جهة أنهم كانوا يرون أن أحاديث هؤلاء في مأمن من الضياع لكثرة أصحابهم القائلين بروايتها شرقا وغربا، وجل عناية أصحاب الدواوين بأناس من الرواة ربما كانت تضع أحاديثهم لولا عنايتهم بها لأنه لا يستغنى من بعدهم عن دواوينهم في أحاديث هؤلاء دون هؤلاء. ومن ظن أن ذلك لتحامهم عن أحاديثهم أو لبعض ما في كتب الجرح والتعديل من الكلام في هؤلاء الأئمة كقول الثوري في أبي حنيفة وقول ابن معين في الشافعي وقول الكرايسي في أحمد وقول الذهلي في البخاري ونحوها ==

= فقد حملهم شططا ... وأما ما قاله العلامة ابن خلدون في مقدمة تاريخه من أن أباحنيفة لتشدده في شروط الصحة لم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثا ، فهفوة مكشوفة لا يجوز أن يغتر بها ، لأن رواياته على تشدده في الصحة لم تكن سبعة عشر حديثا فحسب بل أحاديثه في سبعة عشر سفرا يسمى كل منها بمسند أبي حنيفة خرجها جماعة من الحفاظ وأهل العلم بالحديث بأسانيدهم اليه ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغهم من أحاديثه ، وقلما يوجد بين تلك الأسفار سفر أصغر من سنن الشافعي رواية الطحاوي ، ولا من مسند الشافعي رواية أبي العباس الأصم اللذين عليهما مدار أحاديث الشافعي . وقد خدم أهل العلم تلك المسانيد جمعا وتلخيصا وتخريجا وقراءة وسماعا ورواية ، فهذا الشيخ محدث الديار المصرية الحافظ محمد بن يوسف الصالحى الشافعي صاحب الكتب الممتعة في السير وغيرها يروى تلك المسانيد السبعة عشر عن شيوخ له ما بين قراءة وسماع ومشافهة وكتابة بأسانيدهم الى مخرجها ، في كتابه « عقد الجمان » وكذا يروى بطرق محدث البلاد الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون في « الفهرست الأوسط » وهما كانا زينى القطرين في القرن العاشر . وكتاب « عقود الجواهر المنيفة » للحافظ المرتضى الزبيدي شذرة من أحاديث الامام ، وللحافظ محمد عابد السندی كتاب : « المواهب اللطيفة على مسند أبي حنيفة » في أربع مجلدات أكثر فيه جدا من ذكر المتابعات والشواهد ورفع المرسل ، ووصل المنقطع ، وبيان مخرجى الأحاديث والكلام في مسائل الخلاف . ومن ظن أن ثقات الرواة هم رواة الستة فقط فقد ظن باطلا . وقد جرد الحافظ العلامة قاسم ابن قطلوبغا الثقات من غير رجال الستة في مؤلف حافل يبلغ أربع مجلدات ، وهو ممن أقر له الحافظ ابن حجر وغيره بالحفظ والاتقان »

فقد تبين مما تقدم لاسيما من النفلين القيمين الأخيرين أن الأحاديث الصحيحة ليست كما أوهمه معالى المؤلف أقل من القليل ، بل على العكس أكثر من الكثير ، وكما أن لكتاب الله حفاظا فالسنة أيضا حفاظ حفظ الله بهم حكم قوله في كتابه « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » ولولم تكن السنة محفوظة بل ضائعة بعد وفاة =

= الرسول ﷺ لضع معها حكم هذه الآية في غير شطرها الأول ، مع أن هذا الشطر أيضا محتاج في الأكثر الى بيان السنة ، وضاع أيضا حكم قوله تعالى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» ولا يجوز أن يكون وجوب طاعة الرسول مقصورا على المؤمنين الموجودين في عصره . ولا ضرورة في حمل الآية عليه بعد أن كانت سنة خاتم النبيين محفوظة بهم رجال أرادوا بدافع جهلهم لدين الاسلام أن تكون محفوظة و بذلوا في حفظها جهودا تنهر العيون إلا عين من أراد إعدامها وقلب الأمور حتى عد دافع الحب الديني منقصة للحافظ !

وما أعجب عقلية الكتاب العصريين لا يرون في أنفسهم وهم صفوة الشرق ، ولا في كتاب الغرب وهم قادتهم ، معجزة فينسكرون معجزات الأنبياء ولا يرون في أنفسهم قدرة وحماسة في حفظ أحاديث نبيهم ، ولا لتدقيق محافظ الحفاظ حتى ولا دافعا دينيا اليه فينسكرون صحة الأحاديث المحفوظة ، ويحطون من قيمة الدافع الديني ويعلمون أنفسهم بدعوى الطريقة العلمية في تأليف الكتب من غير دليل لهم على هذه الدعوى غير تقليد الغربيين . فان كان الغربيون المؤلفون في السيرة الحمديدية يلتزمون الطريقة العلمية وينتهجونها في تدقيق حياة محمد ﷺ حين لا ينتهجها أئمة الاسلام المحدثون وكانت الطريقة العلمية توصل منتهجها الى الحق وكان معالى مؤلف « حياة محمد » يعتقد بكون نبوة محمد حقا ، لزم أن يصدق الغربيون أصحاب التأليف في السيرة الحمديدية نبوة محمد ﷺ فيسلموا أو أن لا تكون الطريقة التي سلكوها في تدقيق حياته طريقة علمية أو أن لا تكون الطريقة العلمية تذهب بسالكها الى الحق والحقيقة . فلا مندوحة من أن تكون النتيجة المنطقية للمقدمات الثلاثة المذكورة أحد هذه الأمور الثلاثة ، ولا يمكن نقض هذا الانتاج المنطقي ولو حدث مائة ألف (موضة) من الطريقة العلمية يتمسك بها العصريون مستخفين بالمنطق القديم . نعم لا مندوحة من أحد الأمور الثلاثة الأولى التي أزمناها أحد الثلاثة الأخرى . وأجدر ما في تلك الثلاثة بالرجوع عنه هو كون طريقة الغربيين المؤافين في حياة سيدنا محمد ﷺ طريقة علمية أقوم من طريقة علماء الاسلام =

== فقد علم القارىء سوء ظن معالى مؤلف « حياة محمد » بكتب الحديث ورواته ورميهم بالأغراض الدينية والسياسية، وفي مقابل ذلك حسن ظنه بالمؤلفين الغربيين لاتباعهم الطريقة العلمية؛ وليسمع الآن باختصار ماذا يقول العالم الهندى مولانا شبلى النعمانى مؤلف كتاب غم فى الحياة النبوية قبيل كتاب معالى هيكىل باشا، بهذا الصدد وكيف يتبدىء كتابه : [*]

« إن أسمى الوظائف والواجبات وأعظم الأفعال فى هذه الدنيا السعى لاصلاح وإكمال الأخلاق الانسانية وآدابها . فواجب الانسان فى هذه المهمة أولا أن يقتنع بفكرة صحيحة فى القواعد الأساسية لفضائل الأخلاق والزهد والتقوى والشرف والكرامة والارحية والمسامحة والعفو والصفح والعزم والصبر والتضحية والجد والهمة، ثم السعى لنشر هذه الفكرة فى وجه الأرض وارساخها فى الازهان »
« وطرق القيام بهذه الخدمة كثيرة كالوعظ للجماعات ، وإلقاء الخطب وتأليف الكتب القيمة ونشرها أو تحميل تلك الفضائل للناس بالقوة ومنعهم عن خلافها .
« لكن أفضل الطرق الى هذه الغاية وأنفعها إراءة موجود تاريخى يثبت كون تلك الأسس الأخلاقية والتلقينات الأدبية فعلية حقيقية، ويكون مثالا مجسما للفضائل لأن هذا الموجود التاريخى دليل قطعى لمتانة تلك الأسس وسموها وماهيتها الفعلية، فكل قول من أقوال هذه الشخصية التاريخية يكون أوقع فى النفوس من ألف كتاب فى الأخلاق وكل إشارة منها يكون مطاعا كالأمر المبرم ، وفى الأصل أن الأمثلة أحسن من الدساتير وأقرب الى الفهم .

« وكل الدنيا اليوم باعتبار ما فيها من الفضائل الأخلاقية مدين لأمثال هؤلاء القادة الروحانيين والشخصيات القدسيين أعنى أنبياء الله المبعوثين الى الناس فى أزمنة مختلفة وليس مساعى الدنيا غير تلك الفضائل الاطلاع لبنيان المدنية .

« بيد أنا نفهم مما علمنا من تاريخ العالم أن كل واحد من الشخصيات العالية التى هى مثل الاقتداء يمثل نوعا من الفضائل ويحسم صفحة من الكمال الخلقى، فالمسيح =

(*) ترجم هذا الكتاب الى اللغة التركية وأنا عربت هذه الكلمة من تلك الترجمة .

== عليه السلام يعلم الحلم والعفو والصبر والاحتمال والصلح والسلام والقناعة والتواضع لكن تعليمه هذا لا ينطوى على قواعد الأخلاق اللازمة للحكومة والادارة. وما علمه سيدنا موسى ونوح من نوع الفضائل والكمالات لا ينطوى على ما علمه سيدنا عيسى منها « فيظهر أن كل دور من أدوار التاريخ الانساني المختلفة كان محتاجا الى واحد من تلك الشخصيات المقدسة، وكانت حاجة ذلك الدور الخاصة به تقضى بذلك الواحد، ومع هذا كانت الانسانية منتظرة للانسان الكامل الذى ليس بملك فقط أو قائد فقط بل زاهد متق أيضا فى الوقت نفسه، وزعيم عام وموجود متواضع مطيع لخالقه مشفق على الخلق كريم قنوع فقير. فهذا الانسان الكامل الجامع لكل موجودية إنسانية ذروة البشرية العليا وأكبر موفقياتها.

« وكما أن كل شىء فى الدنيا فان فهذا الانسان الكامل أيضا ليس بخالد من حيث المادية، فلهذا يجب أن يسجل ماقاله وان ينقل من سلف الى خلف وان يثبت كل ناحية من سجايه ويضبط كل عمل من أعماله ويروى بكل صدق وإخلاص، وأن تصور كل حالة من حالاته ومواقفه، لأن كل واحد من ذلك منبع نور لارشاد البشر فى كل زمان وذخر هداية لادارة الناس فى كل واد من أودية الحياة

« ومن المصادفات الجديرة بالدقة والتأمل أن المعلومات التاريخية المتعلقة بمؤسسى الأديان السائرة صلوات الله وسلامه عليهم كلها ناقصة، وفى هذا مشابهة لكون كل منهم ممثلا لبعض أقسام الفضائل الخلقية المختلفة فحسب، فنحن لانعلم مثلا من وقائع حياة المسيح الممتدة ٣٣ سنة الا ما يختص منها بثلاث سنين، حتى ان هذا النقص الزائد فى حياته المضبوطة حدا كثيرا من النصارى الى إنكار وجود سيدنا المسيح بالمرّة. ونحن لانطلع على مجدى إيران الدينيين الا بشهنامه الشاعر الفردوسى. أما المرشدون الدينيون الذين ظهروا فى الهند فتاريخهم منتقب بنقاب الأساطير. ومنبع المعلومات عن حياة سيدنا موسى الكليم هو التوراة التى جمعت بعد وفاته بثلاثمائة عام

« وربما كان هذا النقص فى المعلومات التاريخية عنهم حكم الطبيعة لأن تلقينات هؤلاء الأنبياء وأولئك المجددين والمرشدين لم تكن مما لا بد منه بالنسبة الى كل زمان ==

= فر بما من أجل ذلك لم يخلد تاريخهم بجميع تفاصيله، وإنما حفظت أقسامه التي كان لازما أن تعلم وتحفظ ، وأكبر حاكم في تعيين حاجات كل دور من أدوار الزمان هو الطبيعة فمضى أحست هي حاجة أي دور الى شيء فآله تعالى يعطيه من فضله

« ثم ان كل ملة وكل طائفة من معتنقى الأديان تقدر دينها وتفضله على دين غيرها فلو وجهنا سؤالا عاما الى جميع أهل الأرض عمن له الموجودية الفائقة من بين مؤسسي الأديان فلا شك ان الأجوبة على هذا السؤال ترد مختلفة بعدد اختلاف مرسلها في الدين ، ولكن اذا زدنا تفصيلا وايضاها في لفظ السؤال فقلنا مثلا : من ذا الذي ضبط جميع نصوص كتابه المنزل عليه ضبطا وثبت حرفيا بموقفية وصدقة لم تكونا من حظ الكتب المقدسة ؟ ومن ناحية أخرى قيد ونقل جميع وقائع حياته وجميع أفعاله وأقواله وأسفاره وأخلاقه وعاداته حتى شكل لباسه وصورة تلبسه وخطوط وجهه وكيفية تكلمه ومشيه وطرز معاشرته، وحتى أكله وشربه ونومه وتبسمه ومسامحه بجميع فروعه وتفاصيله ؟ فالجواب لابد ان يكون : محمد ﷺ »

لقد أحسن هذا المؤلف الفاضل في التنبيه الى امتيازه ﷺ على سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بل امتيازه على جميع مشاهير الدنيا وعظماء الدينين والدينيين بضبط حياته وسيرته وحفظ أقواله وأفعاله ، وأحسن خصيصا في التنبيه على حكمة هذا الامتياز بكونه مجمع كل نوع من أنواع الفضيلة وخصال العظمة لاختصاص ببعضها . وأنا أضيف اليه أن كونه خاتم النبيين يقتضي أن يكون جامع الفضائل ومتمم مكارم الأخلاق، وأن تكون تلك الفضائل الجامعة والمكارم الشاملة مأثورة عنه محفوظة ، اذ لا يأتي بعده نبى آخر يتمها ويصلح مافسد منها . فيلزم أن يكون نبينا ﷺ ممتازا على أسلافها الكرام بجمع أسباب العظمة في نفسه وانتقال أنبائه وأحاديثه محفوظة بحفظ الله تعالى ، الى أمته التي بعث اليها وهي كافة الناس الموجودين فيما بين مبعثه وقيام الساعة . وليس في القرآن ذكر سيرته وسنته ولو بقدر ما في الكتب المقدسة القديمة من أنباء الأنبياء الذين نزلت عليهم تلك الكتب ، فلزم ان تكون سنته محفوظة بحفظ مستقل كما حفظ كتابه، وقد كانت كذلك بفضل الله وبحمده ، فالآن وفي كل زمان من حق =

== الاسلام ان يباهى جميع الأديان بحفظ كتابه وسنته. ولئن دخلت في الأحاديث موضوعات فما لبث علماء الحديث ونقاده أن تعقبوها وتعرفوها وميزوها عن الصحيح الثابت. وليس في الذين أثاروا الشك في السنة من المستشرقين ومقلديهم من المسلمين العصريين بحجة وجود الأحاديث الموضوعة ، أحد وجد حديثا موضوعا بتعقيب وتدقيق من عند نفسه غير ما وجدته علماء الاسلام المتقدمون

ولا مغالاة أصلا في نفي من يساوى محمدا ﷺ أو يدانيه في كون حياته بعدمبعثه الى وفاته ولا سيما أحاديثه مع المناسبات الداعية الى ورودها ، مضبوطة مدونة . ولا محل لأن يقول قائل : كون حياته ﷺ بكل تفاصيلها موضع اعتناء وتدوين لم يقع مثلها لأى أحد في الدنيا مسلم به ، وإنما الشبهة في صحة المعلومات المدونة والأحاديث المروية ، لا محل لهذا القول بناء على ان الاعتناء المنقطع النظر إنما يؤيد صحة المدون المضبوط لاشبهة المشتبهين في صحته ، فكما زاد الاعتناء بالضبط ازداد احتمال صحة المضبوط قوة والشبهة في صحته ضعفا . ولا تعالى أيضا اذا قلنا ان ضبط سنة نبي الاسلام أصبح وأثبت من ضبط كتب أهل الكتاب

فقد أدى كمال الاعتناء الاسلامي بحياة نبينا وتتبع أقواله وأفعاله الى الاعتناء بحياة المتابعين أنفسهم أعنى الرواة عنه ، وليس في الدنيا أحد عنى في سبيل العناية به بكل من لقيه وبكل من روى شيئا ، وبمن روى عمن روى الخ وألف فيهم الكتب فكتب في طبقات ابن سعد وطبقات ابن ما كولا ، وكتاب العجوبة لابن السكن ، وكتاب ابن جرود ، وكتاب العقيلي ، وكتاب ابن أبي حاتم الرازي ، وكتاب الأزرق ، وكتاب الدولابي ، وكتاب البغوي و«أسد الغابة» و«الاستيعاب» و«الاصابة» ثلاثة عشر ألف صحابي مع تراجمهم ، ودرس في كتب أسماء الرجال سن التابعين وتبع التابعين حياة مائة ألف رجل على الأقل. وعلى تخمين العالم الالمانى « اشبره نكر » خمسمائة ألف . فلا أغالى اذا قلت أيضا ان كيفية الاعتناء بحياة محمد ﷺ معجزة من معجزات الاسلام لكن معالى هيكل باشا مؤلف « حياة محمد » يحاول الخط من قيمة هذا الاعتناء لكونه من منكرى المعجزات. قال العالم الالمانى المار الذكر في مقدمة كتاب تولى تصحيحه ==

= وطبع في « كالكوتا » اسمه « صانه » : « ان الدنيا لم تزل ترأمة مثل المسلمين ، فقد درس بفضل علم الرجال الذي أوجدوه حياة نصف مليون رجل » كافي سيرة المؤلف الهندي المسار الذكر ، وكتابه أصبح وأثرى مراجع اسلامية أو غربية بما لا يقاس عليه كتاب معالي هيكل باشا

كان كل هذا التوسع في تدقيق أحوال الرجال للاطلاع على منزلة رواة الأحاديث في الصدق والضبط والأمانة . قال المؤلف الفاضل الهندي : « وسائر الأمم كانوا اذا أرادوا تدوين تاريخ قوم قيدوا كل ماسمعه عنهم حتى ماسمعوا في الشوارع ، وكل رواية لا أساس لها من الصحة ، وليس لرواة تلك المسموعات وجود حقيقى جدير بالاعتماد فينتخب من تلك الروايات ما هو أنسب للتخمين وأوفق للقراءن المتعلقة بذلك العهد وتعتبر هذه المفعلات بعد مدة تاريخا . فقد أنشأ كتاب أوروبا تاريخ الأوروبيين بهذا الشكل » والمطلوب الأول عند علماء الحديث أن يكون الراوى ممن له صلة بالحادثة التي رواها أو استطاع إراءة سلسلة الاسناد مبتدئة ممن روى الحادثة متصاعدة الى الراوى الأسمى وينظر خلال ذلك في سجية كل من ذكر اسمه في سلسلة الاسناد وخلقه ومسلكه وعقله ودقته وقوة ذاكرته وأمانته وعلمه ، ولم يكن من السهل الاحاطة بهذه الأحوال ، لكن المئات بل الألوف من المحدثين كرسوا جهودهم وأنفقوا أعمارهم في هذا السبيل فكانوا يسيحون في البلاد ويلاقون الرواة ويفحصون أحوالهم ويتعلمون أحوال من مات منهم من معارفه الأحياء ، فحصل من ذلك علم أسماء الرجال بجانب علم الحديث

اما تأثير سياسة الحكومات في رواية الاحاديث أو وضعها فيتداركه التزام تزكية الرواة . على ان الاموية والعباسية كانتا من أكبر دول العالم في عهدهما ، وكان الامويون يسبون عليا وأولاد فاطمة رضى الله عنهم في خطب الجمعة ، ويختلقون أحاديث في مدح معاوية رضى الله عنه وكذلك وضعت أحاديث في زمن العباسيين تزلفا اليهم ، ومع هذا فلم يلبث ان أعلن أئمة الحديث كونها زيوفا ولم يبق شيء منها حتى بقدر ما بقي من الاحاديث التي وضعها الشيعة والتي لم تنج هى أيضا من تعقب المحدثين

=

« والواقع ان المنازعات السياسية التي حدثت بعد الصدر الأول من الاسلام أدت الى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها . فلم يكن الحديث قد دون الى عهد متأخر من عصر الأمويين ، وقد أمر عمر بن عبد العزيز بجمعه ، ثم لم يجمع إلا في أيام المأمون بعد ان أصبح الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود على قول الدارقطني ^(١) ولعل الحديث لم يجمع في الصدر الأول من الاسلام لما كان يروى عن النبي انه قال : « لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن ومن كتب شيئاً غير القرآن فليمحجه » على ان أحاديث النبي كانت متداولة على الألسن من يومئذ وكانت الروايات تختلف فيها . ولقد أراد عمر بن الخطاب أثناء خلافته أن يتدارك الحال في ذلك بأن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبي في ذلك فأشاروا عليه بأن يكتبها فطفق عمر يستخير الله شيئاً ثم أصبح يوماً وقد عزم الله (أى خلق له أسباب العزم من القوة والصبر) فقال : « انى كنت أريد أن أكتب السنن وانى والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً » وعدل عن كتابتها ، وكتب في الأمصار عنها : « من كان عنده شيء فليمحجه » وظلت الأحاديث بعد ذلك تتوالد وتتداول حتى جمع ماصح لدى جامعيه منها في عهد المأمون ^(٢) » ص ٤٩ — ٥٠

(١) قول الدارقطني هذا الذى هو تمثيل الموجود بالمعدوم شطط منه حيث يعدم الاحاديث بقوله هذا ، وهو أى هذا القول أحق بالاعدام لتناقضه مع فعله لكونه نفسه أيضاً من جامعى الحديث والغريب ان الدارقطني من المجسمة المستدلين على مذهبه السخيف ببعض الاحاديث وهو القائل في الله تعالى :

فلا تعجبوا انه قاعد ولا تعجبوا انه مقعد

أى يقعد من شاء الى يمينه ومن شاء الى شماله . فيفهم ان الشعر الأبيض في جلد الثور الأسود هو تلك الاحاديث الحقيقة لان تكون في رأس الشعرات السوداء لتضمنها مالا يقبله العقل بشأن الله تعالى

(٢) لو كان مؤلف « حياة محمد » مشى على الطريقة العامية كما يدعيه لما كتب =

== هذه الكلمات ولم ينقل هذه الروايات مستدلاً بها على عدم جواز الاعتماد على صحة الاحاديث المروية في كتب الحديث ، اذ لو كان النبي ﷺ نهى عن كتابة احاديثه وأمر بمحو ما كتب أمراً ونهياً باتين لما حاول عمر من أول الامر أن يكتبها ولا استفتى الأصحاب في ذلك ولا أفتواهم بذلك . ثم لو كان عمر عاد أخيراً الى العمل بقول النبي ﷺ (من كان عنده شيء فليمحه) وكانوا هم محوا ما كتبوه لما كتب المحدثون بعدهم كتبهم التي نراها مثل موطأ مالك ومسانيد أبي حنيفة والشافعي ومسنند أحمد بن حنبل وصحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، فهل يقبل العقل ان الأمة كلهم حتى عمر والأصحاب خلفوا رسول الله ﷺ ولم ينتهوا بنهيه ، وزاد المحدثون مخالفاً اجماع الصحابة أيضاً وأثبتوا ما محوا ، بل لم يثبتوا الا زيوف ما محوا بعد ان ضاع الاصل بمحوهم . فهذا غاية في سوء الظن بكتب الحديث وعلمائهم من مؤلف « حياة محمد » ثم ان الماشي على الطريقة العلمية في الكتابة يلزمه أن يفكر فيما ذا قد يكون مراد النبي ﷺ بالنهي عن كتابة احاديثه والأمر بمحو ما كتب منها ؟ فهل النبي رجع عن الأحاديث التي قالها ؟ أو كان لا يريد أن تبقى احاديثه بعده بل تنسى لكونه نفسه أيضاً شاكاً في صحتها كمؤلف « حياة محمد » ؟ أم يريد شيئاً آخر يأتلف مع العقل وان لم يأتلف مع مقصد المؤلف ؟ وكان يلزمه أن يفكر أيضاً كيف وصل اليه حديث الأمر بمحو الأحاديث المكتوبة ولم يجمع مع الأحاديث ؟ أليس هو أيضاً حديثاً ؟ أم يصل اليه ما يحلوه ولا يصل الى الناس مالا يحلوه ؟

كل هذه الأسئلة ترد على ناقل تلك الروايات الناهية عن كتابة الحديث نقلاً يقصد به التشكيك في صحة الأحاديث الموجودة في كتب الحديث بحملتها . نعم هذه الروايات معلومة أيضاً لأئمة الحديث ومعترف بها على انها أساس مذهب بعض الاجلة ، فقد انقسمت آراء الأقدمين في المسألة على طرفين من الكتابة وعدمها ، ولكل من الطرفين أدلة نقلية تمسكوا بها . ولم يذكر مؤلف « حياة محمد » مذهب القائلين بكتابة الحديث وأدلتهم وكاتبه منذ عصر النبي ﷺ ، صيانة لدعواه التي التزمها في تأليفه من الانتقاص كما هو دأب المؤلفين الغربيين ، فتكون لهم عقلية مخصوصة في مسألة تاريخية قبل أن ==

= يكتبوا كتابا يتعلق بها، فيلتزمون تفسير ما صادفوه عند البحث في المسألة على وجه يلائم عقليتهم المقررة، ويكون هذا الالتزام وهذا التفسير منهم طريقة عامية، وقد يجرحهم التزامهم الى خطايا أخرى عظيمة فلا يجتنبون ارتكابها في سبيل الاصرار على عقليتهم، وقد يصطدمون بما ينههم على خطاياهم فلا ينتهون. ومؤلف « حياة محمد » كتبها مقتنعا بفكرة يحسبها فكرة عامية وهي عدم امكان المعجزات ومن أجل ذلك قال ان محمدا ﷺ لا معجزة له غير القرآن . فاذا ذكر ما في كتب الحديث من معجزاته أنكر صحة ما في تلك الكتب فارتقى الامر من انكار المعجزات وانكار الأحاديث الواردة فيها الى انكار الأحاديث مطلقا ، وارتقى من الانكار الثاني الى انكار كتابة الحديث عن النبي ﷺ . فالطريقة العامية أو بالأصح الطريقة المزعومة عامية أضلته السبيل وجرت عليه جرائر . وتراه يكتب في كتابه عن النبي في خطبته التي ألقاها في حجة الوداع قوله (١): (وقد تركت فيكم ما ان اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة رسوله) وكيف يقول انه ترك في أمة سنته ليعتصموا بها مع كتاب الله وقد كان نهى عن كتابة السنة وأمر بحجوها كتب منها ، فأين السنة وأين خطبة حجة الوداع ؛ لانها أيضا مقضى عليها بالحو بناء على حديث (من كتب مني غير القرآن فليمحاه)

هذا دأب مؤلفي الغرب ينقلون من الروايات ما يوافق عقليتهم ويتركون ما يخالفها ، لكن مؤلفي الاسلام ولا سيما أئمة الحديث الناقلين عن رسول الله لا يستنكفون عن رواية الآثار التي لا تؤيد ما اختاروه من المذهب مراعاة لشرط الأمانة . وأشد مما فعله مؤلف « حياة محمد » من التنويه بذكر الحديث الناهي عن كتابة الحديث فقط تاركاً ذكر ما يقابله من أحاديث أخرى ، وأعظم منه جرماً ، أنه حرف مذهب المانعين عن كتابة الحديث الذي تمسك به كل التمسك ، عما أرادوه بمذهبهم هذا ، فقد اختلف في كتابة الحديث وعدم كتابته ولكن لم يستخرج أحد من مذهب منع الكتابة عدم الاعتماد على الأحاديث الموجودة في كتب الحديث

وقد عقد الحافظ ابن عبد البر في كتابه « مختصر جامع بيان العلم وفضله » بابين =

= بصدد هذه المسألة عنوان أولهما «باب ذكر كراهية كتاب العلم وتخليده في الكتب»
والثاني «باب الرخصة في كتاب العلم» فذكر في الباب الأول حديثاً رواه أبو سعيد
الحدرى رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن
فمن كتب عنى شيئاً غير القرآن فليمحاه) ثم قال : وعن أبى نضرة قلت لأبى سعيد
الحدرى ألا نكتب ما نسمع منك قال تريدون أن تجعلوها مصاحف؟ إن نبيكم ﷺ
كان يحدثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ . وعن ابن وهب قال سمعت مالكا يحدث ان
عمر بن الخطاب أراد أن يكتب هذه الأحاديث أو كتبها ثم قال : « لا كتاب مع كتاب
الله » وقال وعن الوليد بن مسلم قال سمعت الازعاعى يقول « كان هذا العلم شيئاً شريفاً
إذا كان من أفواه الرجال يتسلاقونه ويتذاكرونه فلما صار فى الكتب ذهب نوره
وصار الى غير أهله » ثم قال المؤلف أعنى الحافظ ابن عبد البر : « من كره كتاب العلم
كره لوجهين : أحدهما أن لا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به، ولئلا يتشكل الكاتب على
ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ كما قال الخليل :

ليس بعلم ماحوى القمطر ما العلم الا ماحواه الصدر »

أقول ويحسن هنا تذكير ما نقلناه سابقاً عن «فرائد» ابن عقال الصقلى : « انما
لم يجمع الصحابة سنن رسول الله ﷺ فى مصحف كما جمعوا القرآن لان السنن انتشرت
وخفى محفوظها من مدخولها فوكل أهلها فى نقلها الى حفظهم ولم يوكلوا من القرآن الى
مثل ذلك، وألفاظ السنن غير محروسة كما حرس الله كتابه ببديع النظم الذى أعجز الخلق
عن الاتيان بمثله ، فكانوا فى الدين جمعوا من القرآن مجتمعين وفى حروف السنن ونقل
نظم الكلام نصاً مختلفين، فلم يصح تدوين ماختلفوا فيه، ولو طمعوا فى ضبط السنن كما
اقتدروا على ضبط القرآن لما قصروا فى جمعها ولكن خافوا ان دونوا ما لا يتنازعون أن
تجعل العمدة فى القول على المدون فيكذبوا ما خرج عن الديوان فتبطل سنن كثيرة
فوسعوا طريق الطلب للامة فاعتنوا بجمعها على قدر عناية كل أحد فى نفسه » وهو
كلام حسن جداً

وقال الحافظ ابن عبد البر أيضاً . « من ذكرنا قوله فى هذا الباب فانما ذهب =

== في ذلك مذهب العرب لانهم كانوا مطبوعين على الحفظ مخصوصين بذلك، والذين كرهوا الكتاب كابن عباس والشعبي وابن شهاب والنخعي وقتادة ومن ذهب مذهبهم وجبل جبلتهم كانوا قد طبعوا على الحفظ فكان يجترى بالسمعة، ألا ترى انى ما جاء عن ابن شهاب انه كان يقول انى لأمر بالبقيع فأسد آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخفاء فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته. وجاء عن الشعبي نحوه. وهؤلاء كلهم عرب وقد جاء عن ابن عباس حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة : « أمن آل نعم أنت غاد فمبكر » في سمعة واحدة فيما ذكروا وليس أحد اليوم على هذا ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم. وقد أرخص رسول الله ﷺ في كتاب العلم ورخص فيه جماعة من العلماء وحمدوا ذلك ونحن ذاكره بعد هذا ان شاء الله . وقد دخل على ابراهيم النخعي شيء في حفظه لتركه الكتاب . وعن منصور قال كان ابراهيم يحذف الحديث، فقلت له ان سالم بن الجعد يتم الحديث قال ان سالما كتب وأنا لم أكتب (قال ابن عبد البر) فهذا النخعي مع كراهته لكتاب الحديث قد أقر بفضل الكتاب »

وقال في الباب الثاني : « عن أبي هريرة : لما فتحت مكة قام رسول الله ﷺ وخطب قال فقام رجل من اليمن يقال له أبوشاة فقال يا رسول الله اكتبوا لي، فقال ﷺ (اكتبوا لأبي شاة) يعنى الخطبة . وعن عبدالله بن عمرو قال كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتنى قريش وقالوا أكتب كل شيء تسمعه ورسول الله ﷺ يتكلم في الرضا والغضب فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه الى فيه وقال (اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق) وعنه أيضا ما يرغبني في الحياة إلا خصلتان: الصادقة والوهط أما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله ﷺ وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها . وكتب رسول الله ﷺ كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمر وبن حزم وغيره . وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قيدوا العلم بالكتاب)

« وفي باب العلم من صحيح البخارى قول أبي هريرة . ليس في أصحاب رسول الله ==

= **عليه السلام** أحد أعلم مني بأحاديثه إلا عبد الله بن عمرو بن العاص المارز كره أسلم قبيل أبيه وكان هو وعلى وأنس ممن يكتبون الحديث . ففي « تقييد العلم » لخطيب البغدادي أن الصحابة كانوا يجتمعون حول أنس ليستمعوا منه أحاديث رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وكان يخرج من جيبه صحيفة ويقول « هذه أحاديث سمعتها من رسول الله **صلى الله عليه وسلم** فقيدها » « وعن اسحق بن منصور قال: قلت لأحمد بن حنبل من كره كتابة العلم؟ قال كره قوم ورخص فيه آخرون قلت له لو لم يكتب العلم لذهب، قال نعم لولا كتابة العلم أى شيء كنا نحن . قال اسحق وسألت اسحق بن راهويه فقال كما قال أحمد » .

وفي سيرة الفاضل الهندي المارة المذكورة نقلنا عن سنن أبي داود وابن ماجه « انه لما مات رسول الله **صلى الله عليه وسلم** كانت هذه الوثائق حاضرة: الأحاديث التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص وعلى وأنس ، اليهود المكتوبة مثل صلح الحديبية ، الأوامر المرسلة الى القبائل المختلفة والرؤساء ، أسماء ألف وخمسمائة صحابي . »

فقد انجلي من كل هذا انه كتب في عهد رسول الله **صلى الله عليه وسلم** شيء كثير من أحاديثه ومالم يكتب منها بقيت محفوظة في الصدور الى ان جمعها أئمة الحديث في كتبهم . وعدم كتابتها أولا كان ناشئا من اهتمام العرب بالحفظ أكثر من الكتابة فكانهم كانوا يعدون المكتوب عرضة للاهمال وعدم الاهتمام بالنسبة الى المحفوظ في صدورهم على عكس ما يتوهم . فمن استخرج من عدم كتابتهم الأحاديث اعتمادا على حفظهم عدم صحة الاعتماد على ما كتبه جامعوا الصحاح بعد زمان مما وصل اليهم من محفوظات الرواة واعتباره مكتوبا من غير أساس صحيح كما فعله مؤلف « حياة محمد » ، كان كمن استخرج من اعتماد الحفاظ على حفظهم معنى عدم الاعتماد وقلب نفس الأمر الى عكسه

بل نقول: وقبل ان جمع الأحاديث جامعوها مثل البخارى ومسلم وغيرهما قام أئمتنا المجتهدون مثل أبي حنيفة ومالك والشافعى وأصحابهم بتدوين علم الفقه الذى هو أيضا من معجزات الاسلام الخاصة به فدونت السنة أيضا في ضمن هذا العمل العظيم قبل تدوين الحديثين فازدوجت المعجزتان وكتب الخلود للسنن وكان هذا مساعدة كبيرة متقدمة لعلم الحديث ونقل روايته، ألا يرى أن عمل امام معروف من أئمة الفقه بحديث من الأحاديث يعتبر مؤيدا لدرجته من الصحة =

« ومع ما أبداه جامعو الحديث من حرص على الدقة لا ريب فيه فقد جرح بعض العلماء كثيرا من الأحاديث أثبتتها جامعوها على أنها صحيحة . قال النووي في شرح مسلم : « قد استدرك جماعة على البخارى ومسلم أحاديث أخلا بشرطهما فيها ونزلت عن درجة ما التزمه ^(١) ذلك ان الجامعين قد جعلوا مقياس السند والثقة بالرواية أساسهم فى قبول الحديث ورفضه ، وهو مقياس له قيمته لكنه وحده غير كاف ، وعندنا ان خير مقياس يقاس به الحديث ويقاس به سائر الأنباء التى ذكرت عن النبي ماروى عنه عليه السلام انه قال : « انكم ستختلفون من بعدى فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله وما خالفه فايس عنى ^(٢) » وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ المصور

= بقى أنه لا يرد علينا وعلى الحافظ ابن عبد البر الذى نقلنا شيئا من كتابه عندما دعينا اهتمام العرب بالمحفوظ أكثر من المكتوب ، الاعتراض بالقرآن ، لأنه مكتوب ومحفوظ معا ، لكن الحديث لمسلم يكن فى مرتبة القرآن لزم إما أن يكون مكتوبا فقط أو محفوظا فقط ، فمن فضل الكتابة نظر الى أنها أبقي ومن فضل الحفظ نظر الى انه أدعى الى الاهتمام وان زيادة الاهتمام كفيلا بالبقاء أيضا . وهذا تمام تحقيق المقام

(١) قد عرفت مما سبق ان النزول عن درجة ما التزمه ليس نزولا عن درجة الصحة الى درجة عدم الصحة كما أوهمه أسلوب كلام معاليه وانما معناه النزول عن أعلى درجات الصحة ، بل النازل عن درجة الصحة مطلقا فى اصطلاح الحديث يكون حديثا حسنا والنازل عن درجة الحسن يكون حديثا ضعيفا ، والحديث الموضوع أو الحديث المنكر غير ذلك ثم ان ما انتقد على البخارى ومسلم اللذين جمعا فى صحيحهما ما يقرب من عشرة آلاف حديث مثنان وعشرة أحاديث فقد اشتركا فى اثنين وثلاثين منها واختص البخارى بثمان وسبعين ومسلم بمائة ، وليس مثنان وعشرة من عشرة آلاف بكثير مع ان الانتقاد على البخارى ومسلم فى تلك الأحاديث قد كان على انها غير مستجمعة لشروطها لأنها أحاديث غير صحيحة

(٢) هذا الحديث موضوع قال عبدالرحمن المهدي : الزنادقة والخوارج وضعوا —

الأولى وما زال المفكرون منهم يأخذون به الى يومنا الحاضر^(١)»

= حديث « ماأنا كم عنى فاعرضوه على كتاب الله الخ » وكذلك قال يحيى بن معين: « ان هذا الحديث موضوع وضعته الزنادقة » والعجب من معالى الباشا يرمى الأحاديث الصحيحة بشبهة الوضع ثم ينتقى حديثا موضوعا لاثبات مدعاه فى رعى الاحاديث ، ومعناه ان ظنه بالزنادقة أحسن من ظنه بأئمة الحديث. ومما زاد فى الغرابة أنه لو عرض هذا الحديث الذى تمسك به على القرآن لخالف ماورد فيه من أمرالله باتباع رسوله فيما آتاه مطلقا غيرمقيد بعرضه على القرآن : قال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا)

(١) معالى هيكىل باشا يظن أن أهل الحديث لم يراعوا ما ذكره مقياسا لقبول الحديث أو رفضه من موافقة القرآن أو مخالفته، فقد راعوه فى حدود معقولة وغيرمحتاجة الى بنائه على حديث وضعته الزنادقة وأعجب معاليه لتوافقه مع غرضه ، وراعوا معه شروطا تتعلق برواية الحديث وشروطا تتعلق بدرأيته والمقياس الذى ذكره داخل فى شروط الدراية وليس مقياس القبول والرفض منحصرافيه بل معه شروط أخرى درائية وشروط أخرى روائية . ومعاليه لايعبر اهتماما بشروط الرواية التى هى أول مايجب على جامعى الأحاديث مراعاتها كما لا يهتم بها مؤرخو الغرب عشرمعارض اهتمام الحديثين، مع أن علم الحديث كالتاريخ من العلوم العقلية التى يلزم أن تكون صحة النقل هى أول ما يطلب كونه مضمونا فيها . أما ناحية الدراية فلا يكون لها المنزل الأول مهما كانت أهميتها وإلا انقلبت العلوم العقلية علوما عقلية . ثم ان النظر فى الناحية العقلية من اختصاص المجتهد أكثر من المحدث الذى موقفه موقف الصيدلانى من الطبيب وان العقول متفاوتة ، فلعل الحديث الذى لايتفق مع عقل امرىء فيرفضه رغم أمانة الراوى يتفق مع عقول آخرين أبعد منه نظرا وأقوم فهما . والحديث المشهور : (نضرالله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها قرب مبلغ أوعى من سامع) يشير الى هذه الدقيقة المهمة . فهذا الحديث الجليل يدل المحدث على أهدى سبيل =

وقال أيضا : « وحق أن المسلمين قد بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي حدا دعا الدعاة الى اختلاف الآلاف المؤلفات من الأحاديث والروايات ، ومنذ قتل لؤلؤة بن المغيرة عمر بن الخطاب ، ومنذ تولى عثمان بن عفان الخلافة بدأت الخصومة التي كانت بين بنى هاشم وبين بنى أمية قبل رسالة النبي العربي فظهرت من جديد . فلما قتل عثمان وقامت الحرب الأهلية بين المسلمين وخاصمت عائشة عليا وأيد عليا من أيده بدأت الأحاديث الموضوعة تكثر الى حد أنكروه علي بن أبي طالب حتى روى عنه انه قال « ما عندنا كتاب نقرؤه

= وفي إمكانى أن أوضح هذه الدقيقة بمثال لأحتاج الى استحضاره من بعيد :
فلو فرضنا كون معالي هيكل باشا من المحدثين واعتبرنا مخالفة القرآن مقياسا لرفض الحديث كما اعتبره هو ، كان كل حديث ورد في معجزات نبينا محمد ﷺ غير القرآن مرفوضا عنده بناء على أن القرآن يمنع في زعمه وجود معجزة لنبينا غير معجزة القرآن حتى ان هذا الزعم هو الذي حدها الى تفضيل هذا المقياس على غيره مع أن كون القرآن يمنع وجود معجزة لنبينا غير معجزة القرآن فكرة خاطئة استولت على عقل الباشا تقليدا منه لدعوى المستشرقين التي سنبطلها إن شاء الله . فهذا المقياس الذي له قيمة الى حد ما ، لم تصل بهذا المحدث الى نتيجة سالمة عن الخطأ لكونه مقياسا عقليا يختلف باختلاف عقل القائس قوة وضعفا .

ثم ان كون مخالفة القرآن مقياسا لرفض الحديث لا يستقيم في جميع الأوقات إذ يمكن أن يكون الحديث المخالف قطعى الثبوت ومتأخر الورود عن القرآن الذي يخالفه فيكون ناسخا للقرآن كحديث (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) هذا مثال للسنة القولية الناسخة للقرآن ، ورجم الزاني المحصن والزانية المحصنة المعدود من الحدود الشرعية المعنى بإقامتها في الاسلام على طول تاريخه ، ثابت بالسنة المشهورة الفعلية فإن النبي ﷺ رجم ماعزا وغيره ، وبها نسخت آية الزنا في القرآن القائلة (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) في حق المحصن والمحصنة . وهذه المسائل =

عليكم إلا ما في القرآن» وما في هذه الصحيفة أخذتها من رسول الله ﷺ فيها فرائض الصدقة^(١) «على أن ذلك لم يقف رواة الحديث عن روايته ، ولم يقف قوما عن وضع الحديث لهوى يدعون اليه أو لفضائل يزعمون أن الناس أحرص على اتباعها حين ينسب إلى رسول الله حديثها ...» ٥٠ — ٥١

« وقد كثرت هذه الأحاديث الموضوعة كثرة راعت المسلمين لمنافاة الكثير منها لما في كتاب الله ، ولم تنجح المحاولات التي بذلت لوقفها في زمن الأمويين فلما كانت الدولة العباسية وجاء المأمون بعد قرابة قرنين من وفاة النبي كان قد أذيع من هذه الأحاديث الموضوعة عشرات الألوف ومئاتها ، وكان بينها من التضارب وفيها من التفاوت مالا يحظر بالبال . اذ ذاك قام الجامعون بجمع الحديث وتولى كتاب السيرة كتابتها فقد عاش الواقدي وابن هشام والمدايني وكتبوا كتبهم أيام المأمون وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة في آرائه مخافة ما يحل بهم^(٢) لذلك لم يطبقوا بما يجب

= التي لا يعرفها معالي هيكل باشا ، وربما يتعجب منها لكونه لا يقيم للسنة وزنا تستحق به أن تصح في نفسها بله أن تكون ناسخة للقرآن ، هذه المسائل أيضا مما ينبغي عن الأهمية الراجعة لناحية الرواية في الحديث كما ذكرنا من قبل . ثم إن لمعالي الباشا مسلكا عجيبا في فهم معنى موافقة الحديث ومخالفته للقرآن سيطلع عليه القراء

(١) لماذا لم يحج على رضى الله عنه الصحيفة التي كتب فيها ما أخذه عن رسول الله ﷺ من فرائض الصدقة بناء على الحديث الموضوع الذي تمسك به معاليه وعده من أسباب عدم اعتماده على الأحاديث المجموعة في كتب الحديث وهو : (لا تكتبوا عنى شيئا غير القرآن ومن كتب شيئا غير القرآن فليمحه) ؟

(٢) من المعروف عن المأمون وأخيه المعتصم انهما كانا يقولان بخلق القرآن ويرهقان العلماء على القول به حتى إنهما كانا يعاقبان من خالفهما منهم في ذلك ومحنة الامام أحمد في عهديهما من أجل هذه المسألة أشهر من أن تذكر . فيلزم بالنظر الى إدعاء معالي الباشا أن تكون كتب الحديث - لاسيما وقد كتبت في أيام المأمون - مشحونة بأحاديث =

= موضوعة تعضد مذهبه ، مع أنه لا يوجد حديث واحد ينطق بخلق القرآن وان وجد ما ينطق بأنه غير مخلوق . فمعاليه يدعى أنه ما كان للعلماء ان ينازعوا الخليفة في آرائه مخافة ما يحل بهم ، والواقع يشهد بأنهم نازعوه وانهم لم يخافوا ما يحل بهم . ومعاليه يدعى أن في كتب الحديث آلافا مؤلفة بل عشرات الألوف ومئاتها من الأحاديث الموضوعة على وفق أهواء الخلفاء الأمويين والعباسيين الشديدي البطش ، وليس فيها أحاديث من ذاك القبيل وإن كان هناك أحاديث موضوعة في مواضيع أخرى ما خفيت عن أنظار المحدثين النقاد ، وفي حادثة التوكل مع ابن السكيت لما طلب التوكل منه المفاضلة بين إبنيه وبين الحسن والحسين رضي الله عنهما فأجاب بأن قنبرا خادم على أفضل من إبن التوكل فقتله في الحال - دليل على عكس ما ادعاه معاليه

ومن أمثلة شجاعة الغناء الجبارة الجديرة بالذكور هنا ما كتبه صديقنا الأستاذ الكبير الشيخ محمد الحضر حسين في مجلة « الهداية الإسلامية » الغراء من إن عبد الملك ابن مروان رأى ان يدعو الناس الى مبايعة ابنه الوليد وسليمان بولاية العهد ، وكتب فيها كتب الى والى المدينة هشام بن اسماعيل أن يدعو أهل المدينة الى هذه المبايعة ففعل وأطبق أهل المدينة على البيعة الا سعيد بن المسيب فانه امتنع بعله ان النبي ﷺ نهى عن بيعتين . فكتب هشام الى عبد الملك يخبره بأن أهل المدينة بايعوا قاطبة ولم ياب منهم إلا سعيد بن المسيب ، فكتب عبد الملك الى هشام بأن يأمر سعيدا بالمبايعة فان أبى عرضه على السيف فان أصر على عدم المبايعة جلده خمسين سوطا وطيف به في أسواق المدينة

وصل كتاب عبد الملك الى هشام واتصل بهشام ثلاثة من أصدقاء سعيد وهم سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله ، فأخبرهم هشام بما أمر به في شأن سعيد . والظاهر أن هشام لم يطلعهم إلا على ما أمر به عبد الملك من عرض سعيد على السيف ان امتنع من البيعة ، ولم يذكر لهم ما جاء في الخطاب من ترك قتله اذا أصر على رأيه واستبدال الجلد بالقتل . ارتاع الفقهاء الثلاثة لهذا الخبر وخشوا أن يصمم السعيد على عدم المبايعة ، فينال عقاب القتل ، فأخذوا يدبرون وجها لتخليص سعيد من هذه =

= الورطة متى صمم على عدم البيعة حتى وصلوا الى تدير عرضوه على الوالى فقبله ، وكانوا يظنون ان مادبروه من الوجوه لانقاذ سعيد سيجد من سعيد ليئا وقبولا حسنا لذلك ذهب الفقهاء الثلاثة الى سعيد وقالوا جئناك فى أمر عظيم : ان عبد الملك كتب الى الوالى يأمره بأن يعرض عليك المبايعة فان لم تفعل ضرب عنقك ، ونحن نعرض عليك خصالا ثلاثا فأعطنا إحداهن وهى :

أن يقرأ عليك الكتاب فنسكت ولا تقول لا ولا نعم ، فيكتفى الوالى منك بهذا السكوت فتمضى على ما صممت عليه من عدم المبايعة وتدرأ عن نفسك عقوبة القتل سعيد : ما أنا بفاعل

الفقهاء الثلاثة : تجلس فى بيتك ولا تخرج الى الصلاة أياما فيعتمد الوالى فى عدم إنفاذ أمر عبد الملك على أنه قد طلبك من مجلسك فلم يجده

سعيد : افعل هذا وأنا أسمع الأذان فوق أذنى : حى على الصلاة ؟ ما أنا بفاعل الفقهاء الثلاثة : انتقل من مجلسك بالمسجد الى مكان غيره ، فان الوالى يطلبك فى مجلسك فان لم يجده أمسك عنك

سعيد : أفرقا من مخلوق ؟ ما أنا بمتقدم شيئا ولا متأخر . ولما رأى الفقهاء صلابة سعيد وأيسوا من قبوله إحدى الخصال التى عرضوها عليه خرجوا والأسف على سفك دم سعيد يملا صدورهم

وما كان من سعيد إلا أنه خرج الى صلاة الظهر وجلس فى مجلسه الذى اعتاد الجلوس فيه من قبل ولم يكن من الوالى إلا أنه بعث اليه فأتى به ، فقال له : ان أمير المؤمنين كتب يأمر إن لم تبائع ضرب بنا عنقك

سعيد : نهى رسول الله ﷺ عن بيعتين

هشام : اخرجوا سعيدا الى الشدة ومدوا عنقه وسالوا عليه السيوف ففعلوا وسعيد مصر على عدم البيعة

فلما رأى هشام إصراره أمر به فجرد من بعض الثياب ليزوق ألم الجلد وضربه خمسين سوطا ثم طافوا به فى أسواق المدينة ومنعوا الناس أن يجالسوه =

من الدقة ، هذا المقياس الذى روى عن النبي عليه السلام من وجوب عرض ما روى عنه على القرآن، فما وافق القرآن فعن الرسول، وما خالفه فليس عنه ..^(١) وقد ورث المتأخرون عن السلف هذه الطريقة فى كتابة السيرة لاعتبارات غير اعتباراتهم . ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبقوا الحديث على سيرة النبي العربى فى جملتها وفى تفصيلها دون استثناء لأى نبا روى عنها لا يتفق وما ورد فى القرآن الكريم^(٢) فما لم يكن مما تجرى به سنة الكون ولم يرد ذكره فى كتاب الله لم يثبتوه، وما كان مما تجرى به سنة

أقول : فكان مافعله سعيد بن المسيب كقال فضيلة الاستاذ كاتب المقالة فى عنوان مقالته « مثلا أعلى لشجاعة العلماء » وكان مافعله عبد الملك وواليه مثلا أعلى لسخافة الملوك وعمالهم . ومعالي الدكتور هيكل الذى لا يرجو من علماء عهد الأمويين والعباسيين - عهد تدوين الأحاديث النبوية - غير الماشاة لأهواء الزمان وحكامه ، انما يقيس أولئك العلماء بمشايخ الأزهر الذين شجعوه على تأليف كتابه فى السيرة مسيئا ظنه بروايات السيرة والحديث ، والذين أنشأوا على هذا الكتاب أو دافعوا عنه

(١) يعقل الى حد ما اشتراط عدم المخالفة للقرآن فى قبول الحديث ولكن اشتراط موافقته للقرآن لا يترك للسنة مكانا مستقلا بين الأدلة الشرعية بل يجعلها مستغنى عنها لاسيما اذا أريد بموافقة الحديث للقرآن ورود ذكر ماورد فى الحديث، فى القرآن كما فسرها بعد أسطر من كلامه

(٢) أطال المؤلف الكلام فى وجوب اتخاذ الموافقة للقرآن أو مخالفته مقياسا لقبول الحديث أو رفضه على الرغم من كون هذا الوجوب المزعوم مبنيًا على حديث موضوع مخالف للقرآن، وقد نهينا من قبل على ان عدم الاتفاق مع القرآن لا يوجب رفض الحديث مطلقا اذ قد يكون الحديث المخالف ناسخا للقرآن وقد تكون مخالفة الحديث للقرآن فى زعم الزاعم لافى نفس الأمر . والعجب أن أحاديث المعجزات التى أراد معالى المؤلف رفضها وأثار فى سبيل رفضها الشبهة فى صحة ما كتب فى كتب الحديث مطلقا ، من هذا القبيل كما ستعلمه

الكون محصوه ثم أثبتوا منه ما ثبت لديهم بالدليل اليقيني، وتركوا منه ما لم يقدّم الدليل عليه^(١) ٥١ — ٥٢

« وأكبر ظني أن الدين كتبوا السيرة كانوا يؤثرون هذا الرأي لولا أحوال العصر أيام المتقدمين ، ولولا أن ظن المتأخرون أن في ذكر ما لم يرد به القرآن من خوارق ومعجزات ما يزيد الناس إيماناً على إيمانهم ؛ لذلك حسبوا أن ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضر، ولو أنهم عاشوا إلى زماننا ورأوا كيف اتخذ خصوم الاسلام ما ذكره منها حجة على الاسلام وعلى أهله لالتزموا ما جاء به القرآن^(٢)، ولقالوا بما قال به الغزالي ومحمد عبده والمراغي وسائر المدققين من الأئمة^(٣)، ولو أنهم عاشوا في زماننا هذا ورأوا كيف تزيج هذه الروايات قلوباً وعقائد بدل أن تزيد إيماناً وتثبتنا لكفاهم ذكر ما في كتاب الله من آيات بينات وحجج دامغة^(٤) ٥٣

(١) اشترط في صحة الحديث هنا موافقته لسنة الكون زيادة على شرط موافقته للقرآن وهذا الشرط الزائد هو أساس الشرط الآخر عنده بل أساس الداء الذي جر عليه ما أحصيناه من جرائر الأخطاء

(٢) لا يجوز رفض ما ورد في السنة من سيرة نبينا ﷺ بمجرد أنه لم يرد به القرآن ولا بمجرد أن خصوم الاسلام اتخذوه حجة على الاسلام وعلى أهله وإنما ينظر إلى كونه حجة عليهما في نفس الأمر، وستتضح لك حقيقة هذه المسألة إن شاء الله

(٣) ذكر المؤلف من ذكرهم من الأئمة الثلاثة المدققين على ترتيب أزمنتهم لا على أن محمد عبده يقل عن الغزالي والمراغي يقل عنهما في الإمامة والتدقيق . وأنا لأدري كيف يكون للغزالي رأى في مقياس قبول الحديث أو رفضه يتفق مع رأى معالي هيكل باشا أو مع رأى من يتفق معه من الامامين ، في نفي معجزات نبينا غير القرآن وفي عدم الاعتماد على كتب السيرة وكتب الحديث التي كتبت فيها أحاديث المعجزات وفي مخالفة تلك الاحاديث للقرآن

(٤) لنا كلام فيما سيأتي ان شاء الله على هذه النقاط

« اما ومضرة الروايات التي لا يقرها العقل والعلم قد أصبحت واضحة ملموسة فمن الحق على كل من يعرض لهذه الأمور أن يراعى جانب الدقة العلمية في تحصيلها خدمة للحق وخدمة للإسلام ولتاريخ النبي العربي ... »

« ولو اننا عرضنا كثيرا من الأمور التي ترونها كتب السيرة وكتب الحديث على مافي القرآن لما وسعنا الا أن نأخذ برأى الأئمة المدققين ، فقد كان أهل مكة يطلبون الى النبي أن يجري ربه على يديه المعجزات اذا أرادهم أن يصدقوه ، فنزل القرآن يذكر ما طلبوا ويدفعه بحجج مختلفة . قال تعالى : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) وقال تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ولم يرد في كتاب الله ذكر لمعجزة أراد الله بها أن يؤمن الناس كافة على اختلاف عصورهم برسالة محمد الا القرآن الكريم^(١) هذا مع أنه ذكر المعجزات التي جرت باذن الله على أيدي من سبق محمدا من الرسل كما انه

(١) لم يحسن معاليه التعبير عما حاول إفادته هنا فاستعمل « الارادة في محل الأمر والتكليف ، إذ لو كان الله أراد بمعجزة القرآن أن يؤمن الناس كافة برسالة محمد ﷺ لآمنوا ولم يبق على وجه البسيطة أحد إلا وقد أسلم . ولعله لا يعرف أن ارادة الله تستلزم وقوع ما أراده من غير أدنى تخاف ، ولا الكلمة الماثورة المشهورة : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا إجماع المسلمين عليها

جری بالكثير مما أفاء الله على محمد، وما وجه اليه الخطاب فيه، وما ورد في الكتاب عن النبي العربي لا يخالف سنة الكون في شيء^(١) ص ٥٤

« اما وذلك مايجرى به كتاب الله، وما يقتضيه حديث رسول الله (يعنى القول المذكورالموضوع) فأى داع دعا طائفة من المسلمين فيما مضى ويدعو طائفة منهم اليوم الى اثبات خوارق مادية للنبي العربي ؟ انما دعاهم الى ذلك أنهم تلوا ماجاء في القرآن عن معجزات من سبق محمدا من الرسل فاعتقدوا ان هذا النوع من الخوارق المادية لازم لكمال الرسالة فصدقوا ما روى منها^(٢) وان لم يرد في القرآن^(٣) وظنوا انه كلما ازداد

(١) فيه امتداح معجزة نبينا محمد ﷺ بأنها لا تخالف سنة الكون كما إن فيه شيئا

من انتقاص معجزات غيره من الأنبياء عليهم السلام بأنها تخالف سنة الكون

(٢) فيه تصديق المعجزات الكونية للأنبياء الماضين، وتكذيب معجزات نبينا

الكونية وتكذيب روايتها للمسلمين وهو يتضمن عارا ان لم يكن على نبينا فعلى أمته . ومعاليه متوهم في كل ذلك

(٣) عدم وروده في القرآن لا يوجب عدم وروده في الحديث ، وهو يصر على

توهم التلازم بين الأمرين وعلى عدم التمييز بين المخالفة للقرآن وبين عدم الوجود فيه .

ومن البين أنه لو لم يقبل مماورد في كتب الحديث والسيرة إلا ماورد مثله في القرآن

لكان نبينا محمد ﷺ الذى هو أشهر رجل في تاريخ الدنيا وأكثره من ناحية العلم

والضبط بحياته، من أقل الرجال في ذلك لأن القرآن لا يتضمن من أنباء حياته غير القليل

إلا أن القرآن ملأ هذا الفراغ باعتنائه بسنة الرسول قائلا (وما آتاكم الرسول فخذوه

وما نهاكم عنه فانتهوا) وقائلا (وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى) وقائلا

(وأنزلنا عليك الكتاب لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) وقوله تعالى (فإذا

قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) على ان بيانه ﷺ من بيان الله فلولا السنة

أولولا الثقة بالسنة التى هى مبينة لمجملات القرآن ومتممته من هذه الحيثية على الأقل

كانت رسالة القرآن - بالتعبير الحديث - مختلة غير مؤداة حق الأداء . فضياع السنة في

عددها كانت أدل على هذا الكمال وأدعى الى أن يزداد الناس بالرسالة ايمانا . ومقارنة النبي العربي بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق فهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهو مع ذلك أول رسول بعثه الله للناس كافة ولم يبعث الى قومه وحدهم ليبين لهم ، لذلك أراد أن تكون معجزة محمد انسانية ^(١) عقلية لا يستطيع الإنس والجن الاتيان بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، هذه المعجزة هي القرآن وهي أكبر المعجزات التي أذن الله بها ^(٢) وقد أراد جل شأنه منها أن تثبت رسالة نبيه بالحجة البينة والدليل الدامع سلطانه ٥٤ — ٥٥

« ولو أراد الله أن تكون المعجزة المادية وسيلة الى اقتناع من نزل الاسلام على رسوله بينهم لكانت ولذا كرها في كتابه لكن من الناس من لا يصدقون الا ما يقره العقل » ^(٣) ٥٥

قرون الاسلام الأولى ضياع القرآن في الجملة ، ووعده الله تعالى بحفظ القرآن في قوله (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) يتضمن وعده بحفظ السنة أيضا . فأين تذهبون أيها المدعون ضياع السنة الصحيحة التي وعد الله حفظها في ضمن حفظ القرآن

(١) مامعنى كون بعض المعجزات انسانية وبعضها غير إنسانى ؟ سنتكلم عليه

(٢) لاشك ان القرآن أفضل المعجزات ولكن اذا كان لتبييننا معجزات أخرى مع القرآن ولم يكن جميع كتب الحديث والسيرة كاذبة وانما الكذب في دعوى كون أصحاب تلك الكتب تلوا ما جاء في القرآن من معجزات من سبق محمدا ﷺ فاختلقوا معجزات له تقليدا لمعجزاتهم وافتراء على الله ورسوله ، ولم يكن التقليد منهم بل من معالى مؤلف « حياة محمد » لأعداء الاسلام المفتريين الكذب على كتب السيرة والحديث ... إذا كان الواقع فى نفس الأمر كذلك فهل يكون حقا علينا ان ننفى تلك المعجزات مراعاة لحاظر معاليه أو لحاظر أعداء الاسلام ؟

(٣) فيه انتقاص لمعجزات سائر الأنبياء عليهم السلام بأنها لا يقرها العقل وهو أشد من انتقاصها بما سبق من مخالفتها لسنة الكون لأن ما لا يقره العقل يكون مستحيل

وقال في مقدمة الطبعة الأولى ص ١٤ : على أن لهؤلاء الذين يحملون الاسلام وزر انحطاط الشعوب الاسلامية من العذر أن أضيف الى دين الله شئ كثير لا يرضاه الله ورسوله واعتبر من صلب الدين ورمى من ينكره بالزندقة ^(١) وندع الدين جانبا ونقف عند سيرة صاحبه عليه السلام فقد أضافت أكثر كتب السيرة الى حياة النبي مالا يصدقه العقل ^(٢) ولا حاجة اليه في ثبوت الرسالة . وما أضيف من ذلك قد اعتمد عليه

الوقوع وينجلي منه رجحان معجزة نبينا أعنى القرآن على معجزاتهم عند معاليه . أما لزوم كون القرآن حين ينطق بتلك المعجزات ناطقا بالمحال وكونه مقرا لما لا يقره العقل فذلك لا يهم معاليه !!

(١) ليس سبب انحطاط شعوب المسلمين دخول ما ليس من دينهم في دينهم إذ لا يمكن ان يدعى أحد ان الاسلام طرأ عليه التحريف بأكثر مما طرأ على المسيحية مع ان الشعوب المسيحيين لا يعتبرون مع الشعوب الاسلامية في دركة واحدة من الانحطاط لاسيما عند معاليه وأمثاله من المسلمين العصريين . ثم ما هي التي أضيفت الى الاسلام واعتبرت من صلبه وكان منها للذين حملوا الاسلام وزر انحطاط الأمم الاسلامية العذري هذا التحميل ؟ فان كانت هي المعجزات الكونية المضافة الى معجزة القرآن ولم يكن لها أساس من الصحة ، فكيف تسبب زيادة المعجزات الكونية المكذوبة على معجزة نبينا انحطاط شعوب المسلمين حين لم تكن تلك المعجزات الكونية لسيدنا موسى وعيسى وهي غير مكذوبة عليهما ، سببا لانحطاط اليهود والنصارى ؟ فهل من اللازم مطلقا أن لا يكون لنبينا معجزة كونية حتى تحمل كتب السيرة والحديث في سبيل نفيها الكذب ويحمل إثباتها أوزار انحطاط الشعوب الاسلامية ؟

(٢) لم يذكر هنا كتب الحديث بجانب كتب السيرة لا لأنه يصدق ما فيها من أحاديث المعجزات بل لأنه ما راجع كتب الحديث عند تحرير كتابه «حياة محمد» وهذا نقص لكتابه مهم وهو في ذلك أيضا مقتف لآثار المستشرقين الذين لا يراجعون كتب الحديث عند كتابتهم عن حياة سيدنا محمد لأن مراجعتها تكلفهم عناء كبيرا لا يحتملونه مهما كانوا ناشطين كأنبه عليه الفاضل الهندي كاتب السيرة

المستشرقون ، واعتمد عليه الطاعنون على الاسلام ونبيه وعلى الأمم الاسلامية، وانخذوه
تسكاتهم في مطاعنهم الى يومنا الحاضر» (١)

« وقال ص ١٧ » وهذا الاستعمار يؤيد كذلك دعاة الجمود من المسلمين وكذلك
تضافر عمل الاستعمار على تأييد ماس على الاسلام من خرافات لا يسيغها العقل ولا
يقبلها الذوق» (٢)

وقال في مقدمة الطبعة الثانية ص ٥٥ : « ولو ان أمة مسلحة آمنت اليوم بهذا
الدين ولم تحتج الى التصديق بمعجزة غير القرآن لما طمن ذلك في دينها ولا نقص من
اسلامها» (٣).

(١) طعنات المستشرقين في الاسلام وفي نبيه تثير سخط معاليه نحو كتب السيرة
والحديث وزرواة الحديث ولا تثير سخطه نحو الطاعنين أنفسهم

(٢) مايطابق الواقع ان الاستعمار يؤيد التجديد الهدام للاسلام ويعادى الجمود
على الاسلام ويعده جمودا في وجهه يشهد بهذا معاداة الاستعمار لتركيا القديمة ومحاباته
لتركيا الجديدة محابة أوهمت الغافلين من قوة الاستعمار العميقة قوة الترك الكمالين
وضعف غالبي الحرب الماضية أمامهم في غدها

(٣) الايمان بدين الاسلام مع عدم الايمان بمعجزة نبي الاسلام غير القرآن يضر
بالدين ويكون نقصا فيه اذا كان سببه عدم الاعتماد على غير القرآن والاعتقاد بأن
ماثبت في الاسلام إنما يثبت بالكتاب ولا اعتداد بالسنة أو كان سببه عدم المعجزات
الكونية من المستحيلات العقلية . ومن أبعد مايتصور الى درجة مثيرة للضحك أن
يكون معالي هيكل باشا التزم تأليف الكتاب عن حياة سيدنا محمد مستمدا في ذلك من
القرآن فحسب كقال في آخر صفحة من مقدمة الطبعة الثانية لكتابه : « وفي مقدمة
ما يجب علينا خدمة للحقيقة وللعلم والانسانية ان نتعمق في دراسة سيرة النبي العربي
تعمقا يهدي الانسانية طريقها الى الحضارة التي تنشدها والقرآن أصدق مرجع لهذه
الدراسة وهذا الكتاب لا يأتيه الباطل ولا تعلق به الريبة .. فكل ما تعلق بسيرة محمد

فما دام الوحي لم ينزل بها ^(١) فلا جناح على من يؤمن بالله ورسوله أن يجعل ما يتصل به من أمرها محل تمحيص، فما ثبت بالحجة اليقينية أخذ به وما لم يثبت فله فيه رأيه ولا تريب عليه، فالإيمان بالله وحده لا شريك له لا يحتاج إلى معجزة ^(٢) ولا يحتاج إلى أكثر من النظر في هذا الكون الذي خلقه الله . والشهادة برسالة محمد الذي دعا الناس بأمر ربه إلى هذا الإيمان وجنبهم ما يزيغ قلوبهم عنه لا يحتاج إلى معجزة غير القرآن ولا يحتاج إلى أكثر من تلاوة الكتاب الذي أوحاه الله إليه ^(٣)

يجب أن يعرض على القرآن فما وافقه كان حقا وما لم يوافقه لم يكن بحق » والمراد بما وافق القرآن ما ورد به القرآن وقد عبر به في كثير من كلماته التي سبق نقلها . ويؤيده أن مرمى هذه المقدمة التي كتبها لطبعة كتابه الثانية وخلاصتها أنه لا يرى كتب الحديث وكتب السيرة مرجعا صادقا لاتعلق به الريبة . فحينئذ يكون من حق امرئ أن يقوم فيرد كل ما ورد به كتاب « حياة محمد » تقريرا ، بحجة أنه لم يرد به القرآن

(١) يظن معاليه أن الوحي ينحصر في الكتاب المنزل ولم يوح إلى نبينا غير القرآن مع أن الله تعالى قال في كتابه : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) وقال : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) فهو لا يعرف كون الوحي على قسمين : وحي متلو وهو الكتاب ووحى غير متلو وهو السنة

(٢) إذا كان المانع من الاعتراف بالمعجزات الكونية عدم اعتراف العلم بما يخالف سنن الكون فهذا العلم الذي يخضع لحكمه العصريون من المسلمين لا يعترف أيضا بالله وحده لا شريك له ولذا قال معاليه في أواخر مقدمة الطبعة الأولى لكتابه عن علاقة الإنسان بالكون وخالق الكون : « قد يقف العلم بوسائله حائرا امامها لا يستطيع أن يثبتها ولا أن ينفيها وهو لذلك لا يعتبرها حقائق علمية » ص ٢٢

(٣) إن كان لنبينا محمد ﷺ معجزات غير القرآن وهذا ما نعتقه بأدلة من السنة بل من الكتاب أيضا كما سيتبين للقارىء ، فلا يجوز للمسلم أن يجازف ويقول : ليس لنبينا معجزات كونية ولا يحتاج الإيمان بالله ولا الشهادة برسالة محمد إلى تلك

وقال أيضا ص ٥٦ : « لم يذكر التاريخ أن معجزة حملت أحدا من الدين آمنوا بالله ورسوله في حياة النبي العربي على أن يؤمن به ^(١) بل كانت حجة الله البالغة

المعجزات ، كأن الله تعالى أظهر تلك المعجزات على يده عبثا مستغنى عنها . ثم لما كان نبينا مبعوثا الى الناس كافة وفيهم أمم غير العرب لا تدرك إعجاز القرآن إلا من أكب منهم على تعلم اللغة العربية وأنفق شطرا كبيرا من عمره فيه وجبل على طبع أدبي سليم ، فلا تصح دعوى استغناء هذه الكثرة العظمية في تصديق رسالة محمد ﷺ عن معجزاته الكونية التي روتها كتب الحديث أو على الأقل روت بعضها بصحة تفوق روايات تاريخ الأمم المقبولة

ان لسيدنا موسى معجزات يؤمن بها اليهود والنصارى ولسيدنا المسيح معجزات يؤمن بها المسيحيون وهذا قبل أن نزل القرآن وآمنا بهما وبمعجزاتهما نحن المسلمين أيضا ، وليس طريق إيمان اليهود والنصارى بتلك المعجزات الواصلة اليهم بروايات من سلفهم الى خلفهم ، أقوى وأثبت من أحاديث معجزات سيدنا محمد المروية في كتب الحديث ، فلماذا إذن يؤمن كل من اليهود والنصارى بمعجزات نبيهم ولا يؤمن نحن المسلمين بمعجزات نبينا ؟ فهل كون القرآن أكبر معجزة وأفضلها يمنع من وجود معجزات أخرى لنبينا ﷺ ؟ وهل الغرض من هذا التفريق بين معجزات الأنبياء وبين معجزات نبينا تكذيب روايات المسلمين وتخصيصها بعدم الوثوق أم الغرض تبرئة نبينا من معجزات الأنبياء الماضين التي لا يقرها العقل ؟

(١) يرد عليه ان ماسماه التاريخ ان كان مأخوذا من كتب السيرة والحديث فهي تشهد بمعجزات نبينا وان لم يكن مأخوذا منها وكان يذكر معجزات نبينا من غير ذكر من حملته المعجزات على الايمان فلماذا يفضل غير المذكور في التاريخ على المذكور المنصوص عليه إن كان ذلك التاريخ حائز الثقة ؟ وان كان ماسماه التاريخ لا يذكر معجزة ولا من حملته المعجزة على الايمان فكيف يصح له القول بأن التاريخ لم يذكر أن معجزة حملت أحدا من الدين آمنوا بالله ورسوله في حياة النبي على أن يؤمن لأنه لما لم يذكر

عن طريق الوحي على لسان نبيه ، وكانت حياة النبي في سموها هي التي دعت الى
الايمان من آمن منهم وان كتب السيرة لتذكر أن طائفة من الذين آمنوا برسالة
محمد قبل الاسراء قد ارتدت عن ايمانها حين ذكر النبي أن الله أسرى به ليلا من
المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي بارك حوله ^(١) ولم يؤمن سراقه بن
جمعهم لما اتبع محمدا حين هجرته الى المدينة ليأتى أهل مكة به حيا أو ميتا، طمعا في
مالهم على رغم ما روت كتب السيرة من معجزات الله في سراقه وفي جواده ^(٢)
ولم يذكر التاريخ أن مشركا آمن برسالة محمد لمعجزة من المعجزات ^(٣) كما آمن
سحرة فرعون لما لقفت عصا موسى ماصنعوا «

معجزات نبينا لم يذكر أيضا أنها حملت أحدا على الايمان وليس للمؤلف الحق منطقيا
ان يستخرج من هذا حكمه بأن المعجزات لا تحمل أحدا على الايمان
(١) ماذا يريد أن يقول هيكل باشا ؟ فهل هو ينتقد حادثة الاسراء بأنها فشلت
ولم تنفع في هداية الناس الى الايمان برسالة محمد ﷺ ثم يتوسل بنفي فائدة المعجزات
الى نفي المعجزات ؟ لكن المعجزات كما قيل انها تنقسم الى معجزة هداية ومعجزة إنذار،
منقسمة أيضا الى معجزة تكريم للنبي كافي الاسراء به الى المسجد الأقصى ثم الى السماوات
ولا يلزم ان تكون المعجزة حتى معجزة الهداية ضامنة للهداية بالنسبة الى كل زمان وكل
انسان ، وهذا القرآن مع كونه في رأس معجزات الهداية ما آمن به إلا من شرح الله
صدره للاسلام . فمسألة الهداية بيد الله فهو يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويهدي
من يهديه اذا شاء من غير معجزة ومن غير نبي إلا انه لا يعذب الناس حتى يبعث رسولا
وبالمعجزات تم حجته عليهم . وبهذا البيان يسقط ما ذكره معاليه هنا جملة

(٢) هو آمن بعد حين وأعطى أسورة كسرى في فتح إيران

(٣) لا معجزة عند معاليه غير القرآن ومراده من المعجزات التي لم يذكر التاريخ
ان مشركا آمن عند واحدة منها برسالة نبينا ، هي المعجزات التي اختلقها التاريخ نفسه
فلماذا اذن لم يخلق هذا التاريخ إيمان مشرك على الأقل مع كل معجزة اختلقها ؟ فهل

وقال أيضا ص ٦٢ « ان الفترة التي انتهت بقتل عثمان هي التي تقررت فيها القواعد الصحيحة للحياة الاسلامية العامة وهي لذلك وحدها التي يمكن الاعتماد الثابت اليقيني على ماوقع لمعرفة هذه القواعد الصحيحة ^(١) أما فيما بعد هذه الفترة فانه على الرغم من ازدهار العلم والمعرفة أيام الأمويين وبخاصة أيام العباسيين قد اندست يد العبث بهذه القواعد الأساسية الصحيحة لتقيم مقامها قواعد تتنافى في كثير من الأحيان وروح الاسلام تحقيقا لاغراض شعوبية في أكثر أمرها، وقد كان الاعاجم وكان الذين تظاهروا بالاسلام من اليهود والنصارى هم الذين روجوا لهذه القواعد الجديدة ، غير متورعين في تأييدهم عن اختراع الاحاديث ونسبتها الى النبي عليه السلام ^(٢) ولا عن ادعاء أشياء على الخلفاء الاولين لا تتفق وسيرتهم ولا تلتئم ومزاجهم »

عجز عن اختلاق الثاني الذي هو أسهل من الأول ؟

(١) استثنى هذه الفترة الأولى التي جمع فيها القرآن لتلا يسرى العبث والتزييف اللذان ادعى استيلاءهما على الفترات اللاحقة وافسادهما لحجية الأحاديث المجموعة في تلك الفترات ، الى القرآن

(٢) هذا القول وهذه الدعوى تشبه قول الشيخ محمد عبده أثناء مناظرته الأستاذ فرح انطون منشئ مجلة « الجامعة » - ومقالات المناظرة منشورة في آخر كتاب الأستاذ المذكور المسمى « فلسفة ابن رشد » تحت عنوان « باب الردود » - مامعناه وخلاصته ان الاسلام استعجم في عهد المعتصم بدخول العناصر الأجنبية عن العرب فيه كالفرس والترك . ولعل معالى هيكىل باشا اقتبس هذه الفكرة من الشيخ محمد عبده ثم مزجها بأقوال المستشرقين . وكنت أنا قبل رؤية هذه الأسطر من مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « حياة محمد » أحمل كلام الشيخ ذاك على مغزى سياسى قومى وأقول فى نفسى إنه يغضبه إفلات الحكم من يد العرب حتى لايسره ازدياد قوة الاسلام بدخول عناصر جديدة فيه وانضمامهم الى المسلمين . والآن وبعد أن ازددت علما

انتهى مارأينا نقله من كلمات هيكل باشا في مقدمة كتابه . وقد أظننا في النقل عنه كما أطلال هو في التدليل على أنه أحسن صنعا في تجريد « حياة محمد » عن المعجزات الكونية ، حرصا منا على أن لانكون قد عزونا عند النقد عليه ما لم يقله أولم يكن هو مراده مما قاله وانما أسأنا نحن الفهم والتفسير وبفينا اعتراضاتنا عليه

فقد انجلى من هذه النقول الطويلة ان معاليه يتوسل الى اسقاط معجزات نبينا ﷺ الكونية عن مرتبة الثبوت باسقاط جميع الأقوال المروية عنه غير القرآن مع الأفعال المنسوبة اليه وجميع ما جرى عليه في حياته مما ذكر في كتب الحديث والسيرة ولم يذكر في القرآن ، عن رتبة الجدارة بالتعويل عليه ، على أن يكون سواء في ذلك ما يتعلق بالمعجزات وما يتعلق بغيرها وان يحق لكل شك في صحة ماورد في تلك الكتب من أولها الى آخرها ، شكه !! (١)

فان صحت لمعاليه هذه الدعوى لزم ان يكون أول واجبه الاحجام عن تأليف هذا الكتاب الذي أسماه « حياة محمد » فمن أى مصدر كتب ما كتبه فيه ان كانت كتب

بأفكار الشيخ ومبادئه أذهب في فهم معنى قوله المذكور مذاهب بعيدة ومراعى عميقة لو سرتها لخرجت عن الموضوع الى موضوع آخر لا يمكن توفية حقه إلا بتأليف مستقل (١) لم تقتصر مطاعن هيكل باشا في كتب الحديث والسيرة على ما فيها من الروايات المتعلقة بالمعجزات كما نهنا عليه من قبل أيضا ، وما كنا مغالين في هذا التنبيه ، بل سعى معاليه لالقاء الشبهة في كل ماورد في تلك الكتب وان كان مقصوده الطعن في رواياتها المتعلقة بالمعجزات فحسب ، وكان دافعه الى اطلاق القول انه لم يجد سبيلا خاصا للوصول الى مقصوده هذا فعم كل ما فيها بالطعن ولم يفكر فيما يترتب عليه أولم يبال به . وعليه فارتقى واجبنا في نقد كلامه من الدفاع عن معجزات نبينا غير القرآن وعن الروايات الواردة بصدها في كتب الحديث والسيرة ، الى الدفاع عن ركن السنة مطلقا في الاسلام

السيرة والحديث غير جدرة بالثقة والتعويل ^(١) وأصحابها متهمين بالأغراض السياسية والدينية؟ وليس في القرآن ما يكفي من المعلومات اللازمة لتأليف كتاب عن حياة محمد ﷺ مثل كتاب هيكل باشا، لأن كتاب الله ليس كتاب السيرة والترجمة عن حياة نبيه. فان كان التشكيك المطلق في صحة ما عزي الى النبي ﷺ من الأفعال أو روى عنه من الأحاديث في كتب الصفوة من أئمة المسلمين، غريبا من أى مسلم فهو ممن وضع كتابا عن « حياة محمد » أغرب! فمن أى أصل اقتبس اذن ماضنه في كتابه؟ حتى انه لا يمكنه أو بالأصح لا يجوز له - بالنظر الى عقليته المفهومة واضحة من كلماته التي نقلناها وأطلقنا في النقل - ان يأخذ من كتب المستشرقين الذين يقدرون لمحمد ﷺ وحياته قدرها ولا يعتمدون الحق والانصاف - على فرض وجود فريق منهم بهذه الصفة - لأن مصادرهم في كتبهم أيضا لا بد أن تنتهي الى كتب الاسلام التي زعزع هيكل باشا ثقة الناس بها وهدم معها كتب الآخذين منها

ولا يمنع هذه الزعزعة وذلك الهدم كون معاليه استدرك الأمر فاستثنى الفترة الأولى من تاريخ الاسلام المعتبرة من بدئه الى مقتل عثمان وأولائها الثقة حيث قال ص ٦١ « ففي الفترة الأولى بقى اتفاق المسلمين تاما لم تغير منه روايات الاختلاف على الخلافة ولا غيرت منه حروب الردة ولا فتح المسلمين البلاد التي فتحوها . أما بعد مقتل عثمان فقد دب الخلاف بين المسلمين وقامت الحروب الأهلية بين على ومعاوية واستمرت الثورات ظاهرة تارة خفية أخرى ولعبت الأهواء السياسية دورا خطيرا في الحياة الدينية نفسها » اذ لم يجمع أحاديث النبي ﷺ جامعوها ولم يكتب السيرة

(١) لو انتقد تلك الكتب بأنها تحتوي روايات وأحاديث لا يوثق بها ثم عينت تلك الأحاديث والروايات وبينت أسباب النقد كما يفعل النقاد من علماء الحديث لكان الأمر ولم يقع جميع ما في تلك الكتب تحت الشبهة بحيث لا يميز صحيحه - ان كان فيها صحيح - عن سقيم

كتابها الا بعد الفترة الأولى ، فلا يكفي في الوثوق بواقعات التاريخ الاسلامى كون زمان وقوعها قبل مقتل عثمان ، بعد أن كان كتابها وجامعوها من رجال الفترة الثانية المفروض فيهم الغش والتغريض ، ألا يرى ان الأحاديث والروايات الخاصة بالمعجزات لا ريب في أنها باعتبار مصادرها تتقدم الفترة المشبوهة ومع ذلك لم ينجحوا بتقديمها الزمنى عن تشكيك معاليه في صحتها

ولا يفتح امام الباشا طريقا لامكان تأليف كتابه بعد أن أقفل الطريق على نفسه ان يوجد هناك أحاديث صحيحة على نسبة حديث واحد في مائة وخمسين حديثا ورواية واحدة في مائة وخمسين رواية يمكن الاعتماد عليهما في وضع كتاب عن حياة نبي الاسلام ﷺ كما ذكر الباشا نفسه هذه النسبة واعترف بها عند ذكر اهتمام الامام البخارى وأبى داود بتمحيص الأحاديث ونقدها ، لأن معاليه ذاهب الى اختلاط القلة الضئيلة بتلك الكثرة القاهرة المؤدى الى فساد الجميع ، غير واثق بتمحيص البخارى وانتقائه أربعة آلاف من ستمائة ألف حديث . ولعل معاليه يبنى عدم وثوقه هذا على ما ذكره - وقد نقلنا عنه سابقا - من تجريح بعض العلماء لكثير من الأحاديث التى أثبتتها جامعوها في كتبهم على أنها صحيحة ^(١) فعلى المؤلف مدع لفساد الكل حتى الباقي بعد اسقاط مئات الالوف وحتى الباقي بعد تجريح بعض معين من الباقي الأول . فلو لم يدع ذلك لوجد أحاديث المعجزات في البقية الباقية من انتقاء بعد انتقاء وتقد بعد نقد ، وما وسعه ان يجعل كتابه عطلا عن المعجزات

هذا هو النقد العلمى الذى يكرر الباشا ذكره عند ذكر الأسباب الناعية على أحاديث المعجزات ورواياتها والذى يدعى انه أسس كتابه عليه والذى أيضا ينقض هو نفسه أساس كتابه نفسه مع أساس المعجزات وأحاديثها . ويجعله معلقا على الهواء . وخلاصة نقدنا أن كتاب الباشا ينقض نفسه بنفسه . هذا واحد

(١) قد بينا فيما سبق معنى هذا التجريح وعدد الأحاديث المنتقدة في صحيح البخارى ومسلم

الثاني هل فكر معاليه فيما يترتب على ما فعله حين أثار الشبهة في صحة الأحاديث النبوية بجملة ما وفي أمانة رواياتهم بجملة ما وفي جدارة كتبها بجملة ما بأن يعول عليها؟ يترتب عليه ويلزمه لزوما عقليا بينا هدم الركن الثاني من الأركان الأربعة التي يعتمد عليها الاسلام أعنى الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وهدم ما يبنى على الثاني من الثالث والرابع . ولنقل جدلا : لينهدم ما يلزم انه دمه ان لم يكن مبنيا على أساس صحيح وكانت الحقيقة على خلافه ولا نبال بانهدام صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا بانهدام ركن السنة لا بتناء أحكامها التفصيلية عليها وكون الأحاديث مبنية لاجمال القرآن ومتومة له بهذه الحثية ، فما كنا ندرى - لو لم تكن السنة - كيف نصلى؟ وكم نركع ونسجد وكيف نركى وكم يخرج المزكى من ماله؟ وكيف يحج الحاج ومن ذا يعلم مثلا ان المرأة لاتصلى ولا تصوم أيام حيضها ثم تقضى الصوم ، وأن الصلاة تجب على المريض ولا تجب على الحائض ، والتفاصيل المذكورة في كتب الفقه عن مسائل هذه العبادات لانجدها في الكتاب . فيلزم عند اقتصار مدار العمل على الكتاب أن يكون لقائل أن يقول : « هذه الأعمال التي يعملها المسلمون الى يومنا هذا لاتستند الى أساس صحيح ثابت في الدين » وهذا انه دهم صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا ^(١) ولنقل لينهدم ما ينهدم ولا نبال به ، لكن سنة نبي الاسلام ليست كما زعمه وزير معارف مصر واهية الأساس لاتقاوم النقد والتحريض على الطريقة العلمية أو لا يبقى منها بعد النقد

(١) عجيب مالتى الاسلام والعلوم الاسلامية بمصر في زماننا فاني أسمع كثيرا من العلماء والعقلاء فيها يتبرمون بمناقشات المتكلمين وخوضهم في مباحث الفلسفة مدعين الغنى عنها في الاشتغال بمطالعة السنة ، مع أنك ترى ما طرأ على مكان السنة بمصر من اعتداء المؤلفين العصريين بكتبهم عليها ومن تواني الجمهور من علماء الدين في كبج جماع المعتدين وتنبيه الغافلين بل ومن اشادة البعض من العلماء بتلك الكتب

والتحريض شيء تبني عليه الأحكام ، بل الطريقة المتبعة في الاسلام لتوثيق الأحاديث النبوية أفضل طريق وأعلاها لاتدانيها في دقتها وسموها أى طريقة علمية غربية أتبعتم في توثيق الروايات . حسبك أن نقد الرجال أى رجال الحديث أصبح علما مدونا في الاسلام له كتب خاصة لاتستوعبها المجلدات ، نذكر منها «تهذيب الكمال» للمزى وعليه شرح علاء الدين المغلطاى في ثلاثة عشر مجلدا و«تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر في عشر مجلدات يذكر في أوله انه ألّفه في ثمانية عشر عاما و « الفاصل بين الراوى والواعى » للرا مہرمزى و « ميزان الاعتدال » للذهبي و « لسان الميزان » لابن حجر . وقد ذكرنا من قبل أسماء الكتب الجامعة لتراجم ثلاثة عشر ألفا من الصحابة وشهادة الدكتور « اشبره نكر » الألماني بامتياز الأمة الاسلامية بين أمم الدنيا في الاهتمام بتمحيص الروايات واحاطة الموضوع من أوسع نطاقه . ففى صحيح البخارى مثلا ألفان وستمئة واثنان من الأحاديث المسندة سوى المكررات انتقاها من مائة ألف حديث صحيح يحفظها . وقريب من ألفى راو اختارهم من نيف وثلاثين ألفا من الرواة الثقة الذين يعرفهم . وكتاب البخارى البالغ أربع مجلدات كبيرة يبقى بعد حذف أسانيده على حجم مجلد واحد متوسط الحجم ، فهل سمعتم وسمعت الدنيا أن كتاب تاريخ فى هذا الحجم يروى ما فيه سمعا من ألفى رجل ثقة يعرفهم المؤلف وغيره من أهل هذا العلم بأسمائهم وأوصافهم ، على أن يكون كل جملة معينة من الكتاب مؤلفة من سطر أو أكثر أو أقل تقريبا سمعها فلان وهو من فلان الى ان اتصل بالنبي ﷺ فيقام لكل سطر من الكتاب تقريبا شهود من الرواة يتحملون مسؤولية روايته ؟

ولم يتأخر جمع الأحاديث الى عصر المأمون كما ادعاه الباشا فيما سبق تمديدا للزمان الحائل بين مصدرها وجمعها ، بل جمع فى عهد عمر بن عبد العزيز المتوفى فى ١٠١ وكان قد أمر فى هذا الشأن بتشكيل دواوين يبلغ عددها ألّوفا فجمع أربعة آلاف حديث

تتعلق بتفاصيل الأحكام الشرعية، وخمسمائة حديث تتعلق بأصولها وكان الخليفة نفسه من كبار المجتهدين والمحدثين . ولم يتأخر التأليف في الحديث أيضا الى عصر المأمون فقد كان ابن شهاب الزهري المتوفى في ١٢٢ مؤلف أول كتاب في زمن عمر بن عبدالعزيز وكان ابن جريج في مكة المتوفى في ١٥٠ وابن اسحق في ١٥١ ومالك في ١٧٩ في المدينة وسفيان الثوري في ١٦٠ في الكوفة وحماد بن سلمة ١٦٧ وأوربيع بن صبيح في ١٦٠ وسميد بن أبي عروبة في ١٥٦ في البصرة والأوزاعي في الشام متقدمين في جمع الأحاديث نعم قد يوجد بين الأحاديث أحاديث موضوعة وأحاديث منكرة وأحاديث ضعيفة - ويوجد شيء منها في أحاديث المعجزات أيضا - لكن هناك مع كل ذلك أحاديث متواترة وأحاديث مشهورة وهناك أخبار آحاد متواترة المعنى وأخبار آحاد في رتبة الصحة وأخبار آحاد في رتبة الحسن . وهناك أحاديث مرفوعة وأحاديث مرسلة ^(١) فأتت الحديث أنفسهم ورجالهم الثقات رتبوا الأحاديث الواصلة اليهم بأسانيد مختلفة على هذه المراتب ويميزوا زيوفها من صحاحها وكان الرواة المتهمون بالكذب أو عدم الدقة معلومين عندهم فإذا دخل واحد من المتهمين أو المجعولي الحال في سلسلة الاسناد

(١) وقد قال رسول الله ﷺ (لا ألفين أحكم متكئا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتقينا) رواه الشافعي في الام ، وكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي رافع مولى رسول الله وفي رواية الترمذي (الا اني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه) وفي رواية مقدم (ألا وان ما حرم رسول الله كما حرم الله) وهذا الحديث معدود من معجزاته ﷺ المتعلقة بأخباره عن الغيب قال الفاضل الهندي كاتب السيرة المارة الذكروا من قبل : « ان هذا الاخبار كما ينطبق على المعتزلة القدماء ينطبق أيضا على طائفة حديثة من الهنديين والمصريين لا يعولون على الأحاديث ويسمون أنفسهم أهل القرآن »

لأى حديث أخل برتبته من القبول . واليوم أصبحت مرتبة ثبوت كل واحد من الاحاديث المضبوطة في جوامع الكتب المحصاة بمئات الالوف متعينة عندنا تعينا لا محل للريبة فيه . فالذين ينظرون من بعيد الى مايجرى في علم الحديث الاسلامى من النقد الحر والرقابة الدقيقة ويطلمعون منه على ان علماء الحديث لا يقيمون فيما بينهم لبعض الاحاديث وزنا . و يقيمون لبعضها وزنا ناقصا ، ليس من الانصاف ان يتخذوه وسيلة طعن مطلق في قيمة الحديث وموقعه بين أدلة الشرع الاسلامى . ولولا ان علماء الحديث أنفسهم لم ينقدوا ما يستحق النقد من الاحاديث لما أمكن المستشرقين ان يعيبوا صحاحها بمعتلاتها . فنقد علماء الحديث من تلقاء أنفسهم ما يستحق النقد من الاحاديث لا يكون نقيصة لصحاحها تزيل الثقة عنها بل مزية تجعلها جديرة بالثقة وهذه الصحاح يبنى عليها أكثر أحكام الشريعة الاسلامية من عباداتها ومعاملاتها . ومن المؤسف المؤلم للمسلم ان يرى بلادا اسلامية اجتري فيها على استبدال قوانين الأمم غير المسلمة بقوانين شريعتها ، ولم يكفها الغاء العمل بشرعة الاسلام حتى زيد في الاجترار وطعن في تلك الشريعة بدعوى عدم استنادها من ناحية السنة على أساس متين وقصر الأساس الصحيح على الكتاب ، مع ان العمل ببعض الكتاب مهجور أيضا في تلك البلاد . فلم يبق الا دور اهل البعض الباقي ثم الطعن في أساس الكتاب^(١)

(١) وانى لأثق باخلاص العصريين من الكتاب والعلماء الذين يقصرون اهتمامهم على القرآن ويهملون أسس الاسلام الأخرى ، لأثق باخلاصهم في اهتمامهم بالقرآن زيادة على عدم وثوق بكفائتهم العالسية التى توجب عليهم تقدير الأسس الأخرى فقد قرأت مقالة في مجلة « الرسالة » بعنوان « القرآن والمسامون » للشيخ العصرى محمد شلتوت وكيل كلية الشريعة وقرأت معها مقالة لصاحب المجلة الأستاذ الزيات يشيد بمقالة الوكيل ويعدّها انبعاث الأزهر ورأيت مقالة الشيخ المثنى عليها تغفل ذكر ما عدا القرآن وتنحى باللوائم على كتب التفسير المعروفة المتداولة في أيدي العلماء مدعيا أن أهل التفسير =

= الماضية ما فهموا القرآن . وهذا القول منه يتضمن القدح في الأئمة المجتهدين الذين استنبطوا الأحكام من القرآن ، بل ان التفاسير القديمة ينتهى طرفها الأول الى تفسير الصحابة والرسول ﷺ

ولعل الشيخ الفادح لا يعجبه الامثل تفسيره في مقالة سابقة له قائلة بأن القرآن جارى عقيدة العرب في تصوير الشيطان كشخص ذى حياة مع كونه في الحقيقة عبارة عن نزعات الشر المنبثة في العالم . فليس ببعيد ان يلغى في التفسير الجديد الذى يعجبه كثيرا من الأحكام المنصوص عليها في القرآن بادعاء كونها مجازاة لأهواء العرب في عهد الرسول القريب من عهد الجاهلية ، ويمكننى ان أذكر اباحة تعدد الزوجات مثالا لهذه الدعوى المنتظرة من الشيخ

والحق ان القرآن الذى هو كلام الله لا يمكن ان تتصور فيه مجازاة الأهواء ، وانما للعصرين أنفسهم أهواء يشذون بها عن المسلمين ويريدون ارهاق بعض آيات القرآن عليها وهم فيما عدا ذلك من الآيات التى لاصلة لها بأهوائهم الشاذة عاجزون عن كتابة سطر يستحق ان يسمى تفسير القرآن من غير مراجعة كتب التفسير القديمة التى ادعى الشيخ ان أصحابها ما فهموا القرآن ، أو مراجعة ما بقى منها فى ذاكرتهم من تلك الآثار التى ورثوها معنا من العلماء الماضين فشكرناهم وكفروا

وأخر ما أقول فى الدين يتظاهرون بحصر اهتمامهم فى القرآن نائين بجانبهم عن الحديث والفقه مشيرين الشك فى صحة الأحاديث ومدعين كون الفقه عبارة عن آراء الفقهاء ثم مستهينين من القرآن بتفاسيره القديمة فلم يبق الا متن القرآن ، آخر ما أقول فيهم: قد كذب القرآن فى هذا البلد قبل بضع عشرة سنة تصديقا لبعض أعداء الاسلام من المستشرقين كما كذبت السنة أخيرا لانكار المعجزات فى حياة محمد ﷺ تصديقا للبعض الآخر من الأعداء . وعند ذلك انبرى من انبرى من كتاب المسلمين وعلمائهم للدفاع عن القرآن وصال على المعتدى . ولا أدري لعدم كونى يومئذ بمصر هل بين المدافعين الصائلين الشيخ شلتوت أو الأستاذ الزيات أو الدكتور هيكمل مؤلف « حياة محمد » ومخْلِها عن المعجزات غير القرآن .

وكيف يخطر ببال مسلم ان لا يكون ما في صحيح البخارى الذى كان المسلمون الى هذا الزمان يعتبرونه أصح الكتب بعد كتاب الله ، أو صحيح مسلم أو موطأ الامام مالك أو مسند الامام أحمد بن حنبل أو مسانيد الامام أبى حنيفة أو الامام الشافعى؛ صحيحا حقيقة يعول عليه على الأقل كما يعول على كتب التاريخ المعتبرة عند علماء الغرب^(١) أو أن تكون أمانة أئمة الاسلام المذكورين دون أمانة المؤرخين الغربيين واخلاصهم للحق وتضحياتهم فى سبيله دون اخلاصهم وتضحياتهم أو لا يكون بين عشرات الألوف من الأحاديث الروية فى كتبهم — ومسند الامام أحمد وحده يحتوى من الأحاديث ما يقرب من أربعين ألفا - حديث واحد صحيح تثبت به واحدة من معجزات محمد ﷺ الكونية ؟

عجيب جدا أن يكون المسيحيون صعدوا بنبيهم الى درجة الألوهية استنادا الى معجزاته الكونية ويكون المسلمون استكثروا لنبيهم معجزة كونية واحدة تدل على نبوته ولو بالنظر الى الذين لا يقدرّون معجزة القرآن حق قدرها كالمستشرقين والامة من الناس . فهل يظن منكرو المعجزات الكونية منا لمحمد ﷺ أنهم يستجلبون بانكارهم هذا اعجاب المستشرقين نحونبينا ؟ كلا ، وانما يعجب ذلك الذين ينكرون النبوات من الغربيين . والذين لا ينكرون النبوات منهم يبقى نبي الاسلام عندهم بفضل معالى هيكل باشا من غير معجزة ، لانهم لا يقدرّون اعجاز القرآن الذى لا يفهمونه . وفضلا عن هذا فعماله يلطخ سمعة كبار المسلمين الذين كانوا وسائط بلاغ له عن نبيهم ، بوصمة شبهة الكذب . فاذا كان الحق يقال مهما كان مرأفا فعل هيكل باشا فى

(١) نعم أنا لأدعى لأوثق الأئمة الذين لاشك فى انهم أكثر خوفا من الله من مؤافى الغرب وانه لاضمان أقوى لتجنب الكذب من مخافة الله ، لأدعى لهم العصمة من الخطأ، والأمانة والعدالة غير العصمة مع ان كتب المؤرخين الغربيين لم تمحص ولم تغربل عليهم بعشر معشار ماغربت كتب أئمة الاسلام بأيدي أئمة الاسلام الآخرين

مقدمة الطبعة الثانية لكتابه من إثارة الشبهة في صحة أحاديث الرسول بجملتها (١) للتوصل الى إثارة الشبهة في صحة أحاديث المعجزات ، ومن التنازل عن ثأني العقلين الرئيسيين من معاقل الاسلام الأربعة ألا وهو السنة ، في سبيل التنازل عن معجزات نبي الاسلام الكونية ، جنابة لا تغتفر ، وتأيد مشيخة الازهر لهذه الجنابة أدهى وأمر . فكيف يتفق هذا التأيد وتدريس الحديث في الأزهر بل تدريس أصول الفقه والفقه أيضا بمذاهبه الأربعة حال كون أكثر أحكامها مستندة الى السنة ؟ فهل الاستاذ الأكبر المرافى يحاول بتقريظ كتاب الدكتور هيكل باشا وتقديمه للمسلمين تهينة جو ملائم لالغاء كلية الشريعة ؟

ومن دواعى الأسف ان كتاب معاليه الذى تخاطف نسخه الراغبون في قراءته واقتنائه من المسلمين بمصر حتى طبع ثلاث مرات في أربع سنين كان يكيل في مرأى ومسمع من أوائك القارئين المسلمين طعنات تزييف على كتب كانت تعتبر من يوم تأليفها الى هذا الزمان أصح الكتب في الاسلام بعد كتاب الله مثل صحيح البخارى وصحيح مسلم وموطأ مالك (٢) وغيرها من السنن والمسانيد ، فلم تعمل في مصر ولا في غير مصر أصوات دفاع عن كرامة هذه الكتب المباركة عند المسلمين ولو بقدر الاصوات المرتفعة من النواب المسلمين في برلمان مصر دفاعا عن كتاب « برناردشو » الانجائزى الذى كان يدرس في الجامعة المصرية والذى فيه شتم نبينا وسيدنا محمد ﷺ أقبح شتم ، ولا بقدر صوت الاستاذ الأكبر المرافى شيخ الجامع الازهر والشيخ رشيد رضا صاحب المنار دفاعا عن كتاب هيكل باشا الطاعن في كتب الحديث (٣)

(١) بل التشكيك في كتب الحديث والسيرة على الاطلاق يؤدي الى التشكيك في القرآن أيضا لأن تلك الكتب هي المرجع أيضا في مسألة جمع القرآن وما ألزم فيه من الدقة في ضبط الأصل

(٢) أصح الكتب بعد كتاب الله على قول الامام الشافعى موطأ مالك ، وهذا لا يناق قول الآخرين بأن أصحها بعد القرآن صحيح البخارى لكون البخارى وصحيحه متأخرين عن الامام الشافعى

(٣) لا يقال ان الطعن في كتب الأحاديث المؤدى الى انهيار أساس مهم من أسس الشريعة

الثالث ان السانع من اثبات المعجزات الكونية في « حياة محمد » على ما يظهر من اعتذار مؤلفه في مقدمة الطبعة الثانية هو مخالفة تلك المعجزات للقرآن. وربما تراه يعبر عن هذا المانع بعدم ورود تلك المعجزات في القرآن ، لكن مخالفة القرآن شيء وعدم ورود الذكرفيه شيء آخر . فان صح الأول صح كونه مانعا الى حد ما . وليس الثاني بمانع ، صح أولم يصح! اذ القرآن لم يكن كتاب سيرة أو تاريخ لحياة محمد ﷺ كما انه لا معنى لتعليق صحة ما في كتب الحديث والسيرة من معجزات نبينا الكونية ، بشرط كونها واردة الذكر في القرآن فتكون تلك الكتب تكرارا لما في القرآن مستغنى عنها

فالمقياس الذي يرى معاليه حتما على المسلمين تطبيقه على الأحاديث المنسوبة الى نبيهم ليعلموا صحاحها من زيوفها ثم يعنفهم باهماله مضطرب بين أمرين يحسبهما معاليه أمرا واحدا فيذكر أحدهما تارة والآخر تارة أخرى وتارة يذكرهما معا وتارة يزيد عليهما مقياسا ثالثا . وقد جمع الثلاثة في قوله :

« ولو أنهم أنصفوا التاريخ لطبقوا الحديث على سيرة النبي العربي في جملتها وفي تفصيلها دون استثناء لأى نبا روى عنها لا يتفق وما ورد في القرآن الكريم فما لم يكن مما تجرى به سنة الكون ولم يرد ذكره في كتاب الله لم يثبتوه ... »
فالأمران اللذان يذكرهما ويحسبهما أمرا واحدا هما عدم اتفاق نبا الحديث مع القرآن

الاسلامية وقع من مؤلف « حياة محمد » في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ، تبريرا لاهماله المعجزات المذكورة في كتب الحديث والسيرة، وجوابا عن الاعتراضات الموردة على المؤلف بسبب هذا الاهمال ، لكن تقریظ فضيلة الأستاذ الأكبر انتشر مع الطبعة الأولى وتقدم تلك الطعون الملحقة بالطبعة الثانية . لانا نقول ان تقریظ فضيلته قبل الطبعة الثانية والطعون الملحقة بها لم يكن مقديما على الاهمال الظاهر في الطبعة الأولى الذى ورط صاحبه في الطعون المنتشرة مع الطبعة الثانية . على انه كان فى استطاعة فضيلته ان يسحب تقریظه لكتاب الدكتور هيكل باشا بعد أن رأى طعونه الهدامة المصوبة نحو السنة فى الطبعة الثانية والثالثة، فلم يفعل بل أذن فى نشر تقریظه مع كل طبعة

وعدم ورود ذكره فيه . وقد عرفت أن ثانيهما حشو مفسد والمانع الثالث الزيد عدم كونه مما يجرى به سنة الكون ، وربما يعبر معاليه عن هذا المانع بكونه مما لا يقره العقل ويحسبهما أيضا واحدا مع ان المخالف لسنة الكون أو لسنة الله شيء وما لا يقره العقل أو ما لا يصدق العقل أو ما لا يسيغه العقل أو ما لا يدخل في معروف العقل أو ما يبعد عن مقتضى العقل أو ما لا يقبله العقل ، شيء آخر . وقد استعمل كل هذه التعبيرات في نارات : فاستعمل كلا من الخمسة في أمكنة مختلفة من مقدمة الطبعة الثانية والأولى لكتابه واستعمل التعبير السادس في صلب الكتاب ص ١٤٢ فهناك أمور أربعة يذكرها معاليه كأنها أمران ويعتبرها موافع لصحة الحديث : مخالفته للقرآن ؛ عدم ورود ذكر مافيه ؛ فيه ، مخالفته لسنة الكون ، مخالفته للعقل . وليس الأول متحدا مع الثاني ولا الثالث مع الرابع . وليس الثاني بمانع كما عرفت ولا الثالث وهو المخالف لسنة الله أو سنة الكون ، اذ يمكن أن يكون هذا المخالف معجزة وهو المطلوب ، ولا يلزم ان يكون المخالف لسنة الكون أو سنة الله مخالفا للعقل أى محالا ، ومن هذا تعد المعجزة من خوارق العادة لامن خوارق العقل والا لما أمكنت ولما وقعت . لكن الذين لا يميزون خارق العادة من خارق العقل يزعمون المعجزة التي هي من خوارق العادة وان شئت فقل من خوارق سنة الكون ، خارقة للعقل أيضا ، ينفونها قائلين باستحالتها ، وهذا الزعم منهم ناشئ من زعم آخر هو عدم امكان خرق القوانين الطبيعية المقررة في العلم الحديث المثبت المبني على التجارب الحسية ، وهذا قول الملاحدة المادية وهذا أيضا هو الداء المزمن الذي استولى على عقول كثير من مثقفي المصريين والذي وقفنا مجهود كتابنا الكبير الذي هذا الكتاب جزء منه ، على معالجته

وأعجب شيء من المسلم عدم اقلاعه عن دعوى مبنية على نفى وجود الله وقدرته المسيطرة على الكون . فهم ما كان العلم المادى علما مثبتا ومهما كان ظنهم في العلم المثبت المبني على التجربة انه لا يقبل التفسير والتعديل ولا يقهر المعجزة ، فالعقل يفارق هذا العلم

المنقلب جهلا وبقر المعجزة أى يقول بإمكانها . وقد أطلعنا القارىء فى أوائل هذا الكتاب الصغير على قيمة القوانين المثبتة بالتجارب زيادة على ما كتبنا فيما تقدم (من الكتاب الكبير)

ومعالى مؤلف كتاب « حياة محمد » النافى لمعجزات نبينا محمد ﷺ الكونية لوعلم ان نفاة المعجزات من الغربيين بناء على استحالتها عقلا ، انما ينفونها ويدعون استحالتها لعدم اعترافهم بوجود الله وبوجود أنبيائه ، لما نفى المعجزات عن حياة محمد ﷺ وعلى الأقل لما بنى نفيا على أنها لا يقرها العقل . والأسف ان الذين استشارهم من شيوخ المعاهد مكاشفا لهم ما ينتهجه فى كتابه ، شجعوه عليه بدلا من ان ينبهوه الى ان المعجزات لاتنافى العقل . ويتصاعد الاسف تجاه فضيلة الاستاذ الاكبر فى تقرير كتاب هيكمل باشا ، بعد أن قال : « لم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة الا فى القرآن وهى معجزة عقلية » : « وما أبدع ما قال البوصيرى :

لم يمتحننا بما تعي العقولُ به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم
ومعنى قول البوصيرى هذا بالنظر الى اعجاب فضيلته به ان محمدا ﷺ لم يأت أمته بمعجزات لاتستسيغه العقول كما أتى غيره من الانبياء صلوات الله عليهم ويعنى بها المعجزات الكونية ، مع أنا اذا فرضنا هذا المعنى لذاك القول كان ما أتى به البوصيرى القائل لهذا القول والقائل فى نفس القصيدة مثلا :

جاءت لدعوته الاشجارُ ساجدةً تمشى اليه على ساقٍ بلا قدم
والقائل :

أقسمتُ بالقمر المنشق ان له من قابله نسبةً مبرورة القسم
بل القائل :

وكل آى أنى الرسل الكرامُ بها فانما اتصلت من نوره بهم
من الأقوال المتناقضة ، هو ما تعي العقول به ، لا ما أتى به الأنبياء من المعجزات

الكونية . ولقد أغرب فضيلته في استشهاده ببيت شعر أخطأ في فهم معناه (١) وتغاضى لتمشية خطائه عن سائر أبيات القصيدة وهو بصدد الافتاء المؤيد لاهمال معجزات نبينا ﷺ غير القرآن في كتاب عن حياته، لعدم اعتماد مؤلفه على كتب السيرة والحديث التي تلصق بها تلك المعجزات . فكيف يستشهد ببيت شعر للبوصيري المغلوط في فهم معناه حين لا يُستشهد بالأحاديث المذكورة في كتب الحديث ؟ مع ان بيت البوصيري برى مما توهم له الاستاذ الأكبر من المعنى، وقرينة البراءة أبياته الكثيرة الأخرى التي أوردنا آنفا بعض نماذج منها ، وإنما معناه أن الاسلام لا يوجد فيه مالا يقبله العقل كما وجد في بعض الأديان المحرفة عن أصلها . أو معناه أن نبينا بعث بالحنيفية السهلة السمحة كما ورد في الحديث وكما جاء في القرآن ناعثا له (ويضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم)

فان اعترض معترض بكون المقارنة في التوجيه الاول لا تقع بين الاسلام وغيره من الأديان المنزلة لعدم صحة اعتبار ما حرف منها ديننا ، وبكون ما في الأديان السابقة من الشاق على التوجيه الثاني مما تعي به الابدان لا مما تعي به العقول (٢) ان اعترض علينا في التوجيهين ولم يجد غيرنا توجيها للبيت أحسن منهما فاللزام حينئذ حمل التبعة تبعة امتناع البيت عن التوجيه المعقول على عاتق قائله أعني البوصيري رحمه الله، اذ ليس من الواجب على أحد أن يجد تفسيراً حسناً للبيت البوصيري ان لم يكن هو أحسن انشاده . ولا يجوز انكار معجزات نبينا الكونية طلباً لتقويم بيت شعر ، ثم لا يجوز

(١) وقد ذكرني هذا ماسبق لفضيلته أنه أخطأ في فهم أقوال الفقهاء عند ترويح فتنه ترجمة القرآن الحادثة في تركيا ، حيث كتب مقالة في « السياسة الاسبوعية » و« الاهرام » واستدل على رأيه في الجواز بأقوال العلماء المانعين كما يظهر ذلك من مراجعة كتابي « مسألة ترجمة القرآن » ص ٢٣-٢٤ الذي نشرته قبل عشر سنين وانتقدت فيه مقالة فضيلته وغيره

(٢) ويمكن أن يعد ما في الانجيل من الآية المشهورة الآمرة بتحويل الحد الايسر لمن ضرب الحد الايمن ظلماً ليضربه أيضاً ، مما تعي به عقول الرجال الأحرار

مرتين أن يقال عن بيت مثله مضطرب المعنى : ما أبدعه ! كما قال فضيلة الاستاذ
وكما أغرب فضيلة الاستاذ الأكبر أغرب معالى مؤلف الكتاب فى الاتفاق مع
فضيلته على الخطأ فى فهم البيت وفى نسيان ما عده من أبيات البردة، ولم يكتف بتقبل
هذه الفتوى المبنية على خطأ ظاهر فى الفهم بل جعل ثمن الشكر لفضيلته أن جملة فى
عداد الأئمة المدققين مثل الغزالى ومحمد عبده

ومهما وجد فى أقوال الامام الغزالى ما ينتقد عليه فليس فى الامكان أن يكون له
قول يتخذه الدكتور هيكل سنداً فى إنكار معجزات نبينا محمد ﷺ غير القرآن .
أما الشيخ محمد عبده الذى أزداد اطلاعا عنه بعد مجيئى مصر ما ازدادت أيامى بها، على
ضائع منه فى حدث مدبر ضد الاسلام كمساعدته الخفية لقاسم أمين فى إثارة فتنة
السفور بمصر^(١) أو على شذوذ مرئى كقوله المنقول سابقاً فى تعريف النبى أو على
مجازفة تشف عن ضعف بصيرته فى العلم كإنكاره لبطلان التسلسل ونسبة كل ما قيل
أو يقال فى إبطاله إلى الأوهام الكاذبة وقد سبق تفصيله فى الباب الأول والثانى من
الكتاب الكبير ، والشيخ المرافق الذى كتب كلمة التحييد فى صدر كتاب لا يترف
لنبينا بمعجزة غير القرآن ويكذب ما جاء عنها فى كتب السيرة والحديث ويسمى
لرفع الثقة بتلك الكتب فى مسألة المعجزات وغيرها ويحسن ظنه بكتب
المؤرخين الغربيين كما سبق منا فى مقدمة الكتاب الكبير نقل كلمات عن كتاب
معاليه تشهد بذلك فى حين أنه يسمي ظنه بكتب أئمة المسلمين - كتب كلمة التحييد
والتقرىظ على هذا الكتاب ورأى رأى مؤلفه فى نفى المعجزات الكونية وذهب من
قول البوصيرى :

(١) وبالنظر الى قول الشاعر المشهور على جارم بك فى قصيدته المذاعة بالراديو من محطة الحكومة
ليلة الاحتفال بدكرى قاسم أمين الثلاثين :

كنت فى الحق للامام نصيراً والوفى الصفى من أصحابه

لم يكن قاسم هو مثير الفتنة والامام مساعده بل الأمر بالعكس

لم يمتحننا بما تعمى العقولُ به حرصا علينا فلم نرتب ولم نهم
الى انه أيضا على رأيهما غافلا عن أقوال البوصيرى من قصيدته في غير هذا البيت ،
وباعد بين الدين والعلم وبين الفقه والدين ^(١) فهذا الشيخ وذاك الشيخ لا يعلما من
أئمة الاسلام المدققين الا من لا يعرف الاسلام وأئمة المدققين

ومما يمنع كون معنى بيت البوصيرى كما فهمه الأستاذ المرافى فضلا عن القرائن
المانعة له من أبيات في نفس القصيدة أنه لو كان معناه أن نبينا لم يأت أئمة بمعجزات
تعمى العقول في الاعتراف بها كما أتى غيره من الأنبياء ، لكان البوصيرى قائلًا
باستحالة معجزاتهم عند العقل ومنكرا لوقوعها في أزمئتهم إذا المستحيل عند العقل
وهو الذى يعنى العقل دون الاعتراف به ، لا يقع ولا يمكن وقوعه ولذا أنكر الأستاذ
فريد وجدى القائل باستحالة المعجزات عقلا ووقوعها في الماضى واعتبر جميع آيات
القرآن المنبئة عن معجزات الأنبياء إلى التشابهات . لكن البوصيرى رحمه الله لا
يتصور أن يكون في هذه العقلية الظاهرة البطلان . فهل الأستاذ الأكبر الذى فسر
قول البوصيرى بغير ما أراد قائله ، في عقلية رئيس تحرير « مجلة الأزهر » في عدم
التمييز بين خارق المادة وخارق العقل ؟

بقى أنه لا يقال عن فضيلة الأستاذ الأكبر بعد غض النظر عن خطائه الفاحش
في فهمه لبيت البوصيرى الذى استشهد به ، أن فضيلته ما أنكر في تعريفه بكتاب
هيكل باشا ومجازفته في كيل التقريظ له ، معجزات نبينا غير القرآن وإنما ادعى انحصار
معجزاته القاهرة في القرآن وعنى بها معجزته القطعية التى يكفر منكرها . لآنا نقول بعد
غض النظر ثانيا عن معجزاته غير القرآن الثابتة بالسنن المتواترة تواترا معنويا ^(٢)

(١) تكلمنا على الأول في مقدمة الكتاب (الكبير) وسنتكلم على الثانى في الباب الرابع منه

(٢) قال المحقق الدوانى في شرح العقائد العضية ان معجزات نبينا المغيرة للقرآن وان لم يتواتر كل منها

فالقدر المشترك بينها متواتر كشجاعة على وسخاوة حاتم . وقد صرح القاضى عياض أيضا في الشفاء بهذا التواتر

بل الثابتة بالقرآن : فهل كل ما كتبه مؤلف كتاب « حياة محمد » في كتابه مما يكفر منكره حتى يرى معجزاته غير القرآن لم تبلغ في الثبوت هذا المبلغ فيخلى عنها كتابه ويقر له فضيلة الأستاذ الأكبر بهذا الاخلاء على تلك المَعْدرة ؟ فان كان في المعجزات غير القرآن ما ثبت ثبوتاً يحكم على منكره بالضلال ان لم يحكم بالكفر — ولا شك في وجود مثله فيها — فهل لا يكفي عيباً على كتاب هيكल باشا أن يخلوعه وعلى الأستاذ الأكبر ان يجهد هذا الضلال ؟ وما فعله الباشا في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه من سعيه لزعة ركن السنة في الاسلام وسكوت فضيلة الأستاذ مَدَح الكتاب على هذا السعي لاشك في أنه فوق الضلال

٤

الرابع ماذا هو الباعث على اثبات معجزة عقلية وهي القرآن لحمد ﷺ ونفى كل معجزة كونية عنه ^(١) وماذا هو الباعث على محاولة رفع الثقة بعامة الأحاديث النبوية في سبيل نفي الثقة بأحاديث المعجزات ؟ فهل الباعث على ذلك ضعف مكان السنة حقيقة رغم كونها من أهم الأركان الأربعة التي تستند عليها الشريعة الاسلامية ، أم الباعث كون المعجزات الكونية لا يقبلها العقل مطلقاً أو لا يقبلها العقل المعصرى المبني على التجربة ؟ وقد بينا في مواضع عدة من الباب الأول وفي أول هذا الباب (الثالث) من الكتاب (الكبير) حدود التجربة وحدود العقل وأثبتنا أن العقل الذي ينظر الى المعجزة الكونية نظره الى المستحيل والذي تحكم عليه التجربة ولا

(١) كان فضيلة الأستاذ المراغى قال فيما كتبه تأييداً لاغفال المعجزات الكونية في كتاب « هيكل باشا » « لم تكن معجزة محمد صلى الله عليه وسلم القاهرة الا في القرآن وهي معجزة عقلية » وقد يضيفون الى صفة « العقلية » « الانسانية » كما قال هيكل باشا ص ٥٥ « مقارنة النبي العربي بمن سبقه من الرسل مقارنة مع الفارق فهو خاتم الانبياء والمرسلين وهو مع ذلك أول رسول بعثه الله الى الناس كافة ، لذلك أراد ان تكون معجزة محمد انسانية عقلية »

يحكم هو على التجربة ، إنما هو عقل الذين لا يعرفون العقل وينكرونه وينكرون الحياة والروح وينكرون خالق العقل والحياة لعدم انقياد كل من هذه الأمور للتجربة ولا يمكن أن يكون مؤلف كتاب « حياة محمد » المؤمن بالله وكتابه المنزل على نبيه ، منهم لكن من الواجب أن يعرف معالي المؤلف أن منكري المعجزات البانين انكارها

على دعوى استحالتها ، لا يفرقون بين المعجزات الكونية والعقلية ويرون الكل مخالفا لسنة الكون كما يرون المخالف لسنة الكون محالا . فتى بلغ أى شىء مبلغ المعجزة والخارقة خالف سنة الكون وخرقها والا لم يكن معجزة الا فى تعبيرات الأدباء المتجوزين ، حتى ان النبوة والرسالة بمعناها المعروف عند المليين معجزة مخالفة لسنة الكون ، فمن يقول باستحالة المخالف لسنة الكون يقول باستحالة النبوة والرسالة أيضا ، الا أن تكون من قبيل ماشاع فى السنة الكتاب المصريين من رسالة المرأة ورسالة الرجل ورسالة « الجامعة » ورسالة « الأزهر » ورسالة الصحف ورسالة المجلة أو مجلة « الرسالة » . ومن غرائب العصر الذى يسود فيه عدم الاعتراف بالمعجزة والنبوة والرسالة كثرة استعمال هذه الكلمات وان كانت فى غير مواضعها ، ولعل صرعى المستعملين تنزيل هذه الأسماء من مسمياتها القديمة المستحيلة الى مسميات جديدة معقولة !!

فلا فرق اذن بين المعجزة العقلية والمعجزة الكونية ، فكلاهما محال عند الملاحدة القائلين باستحالة المخالفة لسنة الكون وكلاهما ممكن الوقوع عقلا عند المسلمين بحول الله وقوته . فلو اعترفت الطائفة الأولى بوجود الله ووجود أنبيائه لقالت هى أيضا بإمكانهما من غير فرق ولا وجه للتفريق بينهما باثبات المعجزة العقلية ونفى المعجزة الكونية ، الا أن يراد من المعجزة العقلية ما يكون منشؤه التفوق العقلى المنقطع النظير لن أتى بالمعجزة فلا يخرج على سنة الكون وإنما يكون مبلغه أسمى ما يستطيع انسان أن يبلغه . وربما يجد القارىء المفكر تلاؤما مع هذا التوجيه فى قول معالى

« فحياة محمد حياة انسانية بلغت أسمى ما يستطيع الانسان أن يبلغ ، ولقد كان ^{صلى الله عليه وسلم} حر يصا على أن يقدر المسلمون انه بشر مثلهم يوحى اليه حتى كان لا يرضى أن تنسب اليه معجزة غير القرآن ويصارع أصحابه بذلك ^(١) وقلنا عند الكلام عن قصة شق الصدر انما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين المسلمين الى هذا الموقف من هذا الحديث أن حياة محمد كلها حياة انسانية سامية وانما لم يلجأ في اثبات رسالته الى ملجأ اليه من سبقه من أصحاب الخوارق وهم في هذا يجدون من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبي العربي كلها ما لا يدخل في معروف العقل ويرون ماورد من ذلك غير متفق مع مادعا القرآن اليه من النظر في خلق الله وان سنة الله لن تجد لها تحويلاً »

فهذا القول من المؤلف غاية في التخليط والتشويش لا يصعب فهم ذلك لمن أحاط بتفاصيل ما قلنا في تحليل أقواله ، ففيه اعتبار المعجزة مما لا يدخل في معروف العقل أي مما يخالف العقل ، وفيه التسوية بين ما يخالف العقل وما يخالف سنة الكون ، وفيه توهم كون الاعتراف بالمعجزات مانعاً عما دعا اليه القرآن من النظر في خلق الله ، وفيه الاستدلال على نفى المعجزات بقول الله تعالى : (ولن تجد لسنة الله تحويلاً) ، وكل ذلك خطأ ، وفيه زيادة على الخطأ عدم اعتبار حياة الأنبياء السابقين الذين ظهرت على أيديهم الخوارق حياة سامية انسانية ، وفيه إيهام ان الاولى بحياة النبي ان تكون حياة سامية انسانية ليست فيها خارقة لسنة الكون وان شئت فقل : ولا ارسال ملك ولا انزال كتاب بنصه ، لأنهما أيضاً من الحوادث الخارقة لسنة الكون وقانون الطبيعة فلا تتوقف النبوة على شيء من هذا القليل المستحيل وانما معجزة النبي هي التفوق العقلي والخلق السامي الذي به يبلغ أسمى ما يستطيع انسان أن يبلغ

(١) لا يخفى أن كاتب حياة نبينا مجردة عن المعجزات غير القرآن لو وجد حديثاً يصارح رسول الله أصحابه فيه بأنه لا يرضى ان تنسب اليه معجزة غير القرآن لبادر الى ذكر هذا الحديث قبل كل شيء حتى قبل ذكر الحديث الموضوع الذي تمسك به وهو يجعل القرآن مقياساً لقبول الحديث أو رفضه

فمعنى كون القرآن اذن معجزة عقلية انسانية مفترقة عن المعجزات الكونية في
الاثبات والنفي أن يكون الاثبات به من الانسان ملتئمة مع العقل كمن أتى بكتاب
يعجز غيره أن يأتي بمثله في البلاغة أوفى أى مزية من المزايا !!
ففي هذه الأسطر المنقولة آنفا من كتاب «حياة محمد» أشياء كثيرة يؤخذ
مؤلفه بها والمأخذ الأخير يتفق اتفاقا مع كلام الشيخ محمد عبده في تعريف النبي والرسول
الذى نقلناه قبل الشروع في نقل أقوال عن مقدمة الطبعة الثانية لكتاب هيكل باشا
وتقدّمها، نعم في هذا المأخذ الأخير بعض مغالاة منا في سوء الظن بعقلية المصريين في
مسألة المعجزة والنبوة كما انا أخذناهم وقادتهم من علماء الدين . وما أجدر أيامنا معهم
بقول الطغرائي :

وحسن ظنك بالأيام معجزة فظن شرأ وكن منها على وجل
ومهما غالينا في سوء الظن بهم فلا تعدل مغالاتنا مغالاة غيرنا في سوء الظن
بكتب الحديث ورواية المحدثين جملة بل الأئمة المجتهدين أيضا لحد ما يؤدى الى اسقاط
الاحكام الشرعية المبنية على ركن السنة من حيز الاعتداد والاعتماد والله يهدينا
ويهديهم سواء السبيل

٥

الخامس مما يقضى به الانصاف ومع ذلك من الغريب أن الذين أرادوا تجريد حياة
محمد ﷺ من المعجزات الكونية حتى أثاروا في سبيل هذا التجريد الشك في
مكان السنة من الاسلام ، انما جنحوا الى هذا الشذوذ الخطير المحدث وركبوا متن هذا
الشطط والاسراف في التضحية ، لدافع حسن في نفسه وهو ترغيب عقلاء الغرب في
الاسلام وتحبيبه الى قلوبهم وتقريبه من عقولهم ، فكأن المعجزات الكونية والروايات
عنها في كتب الحديث والسيرة أصبحت عيبا على الاسلام وحياة نبيه عليه الصلاة
والسلام . وبهذه العقاية لا بغيرها فسر الشيخ محمد عبده سورة الفيل من القرآن

بما فسر واقتدى به معالى هيكل باشا حيث قال فى كتابه عند ذكر وقعة الفيل :
« كان وباء الجدري قد تفشى فى جيش أبرهة وبدأ تفتك به وكان فتكا ذريعا لم
يعهد من قبل ، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر وأصاب العدوى
نفس أبرهة فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة الى اليمن وفر الذين كانوا يدلون على
الطريق ومات منهم من مات . وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت
منهم من يموت بغير حساب . وبلغ أبرهة صنعاء وقد تناثر جسمه من الرض
فلم يبق الا قليلا حتى لحق بمن مات من جيشه . وبذلك أرخ أهل مكة بعام الفيل
هذا ، وقده القرآن »

قال هكذا ثم كتب سورة الفيل بنصها كأنها جاءت طبق ما حكاه من أبرهة
وجيشه أهلكتهم وباء الجدري من غير أن يكون هناك شيء من الطير الأبايل ولا مما
رمتهم به من حجارة من سجيل كما لم تذكر سورة الفيل شيئا من وباء الجدري الذى
أبادهم فى حكاية هيكل باشا . فكانت صورة الحكاية مع ما كتب فى نهايتها من آيات
السورة آية فى الجمع بين المتخالفين ^(١) فاذا تقولون فى مؤلف كتاب « حياة محمد »
الذى كان يشترط فى قبول الأحاديث النبوية موافقتها للقرآن ثم نراه لا يراعى شرط
الموافقة للقرآن فى تفسير القرآن ؟ فكيف لا يطعن على صحة ماورد فى كتب الحديث
من أحاديث المعجزات وغيرها ثم يطعن على صحة تفسير سورة من القرآن بهذه
الصورة المأخوذة من تفسير الشيخ محمد عبده أحد أئمة المؤلف المدققين ؟ يقول معالى المؤلف
ومن يؤيدونه مثل فضيلة الشيخ الراغى والشيخ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار »
لم يرد فى القرآن ذكر معجزة كونية لسيدنا محمد ﷺ . وأنا أقول : ولو كانت وردت

(١) كان الشيخ محمد عبده قد أغضبه دخول أقوام غير العرب فى الاسلام وفى حكومة الخليفة
العباسى المعتصم فقال : استعجم الاسلام فى عهده مع انه لاغربة فى استعجم الاسلام كما لاغربة فى
استعرايه لكونه دينا غير خاص بقوم دون قوم وإنما الغربة كل الغربة . فى استعجم القرآن العرب
بتفسير الشيخ لسورة الفيل بما لا تتحملة لغة القرآن

فماذا ينجع في المنكرين ما لم يعوزهم تأويل كتبناؤياهم في سورة الفيل؟ (١)
وكل هذه التأويلات البعيدة التي لا يقبلها العقل على أنها مفهومة من النص القرآني
ولا يعدها تفسيرا بل تغييرا فاحشا إنما ترتكب لاحساس الحاجة الى تطبيق الاسلام
على رغبات المستشرقين من الغربيين وامالته نحو هواهم ان لم تمكن امالهم نحوه التي
هي فعل الأبطال الذائدين عن كرامة الاسلام ، بما لا يعوزهم من الحجج ، في حين أن
الموقف الأول موقف العاجزين الذين لا يستنكفون عن اجراء التعديلات في الاسلام
المعروف عند أهله بل عند الأجانب عنه الناقدين له ، ويقصدون بتضحيتهم من دينهم
هذه ارضاء أولئك الناقدين والتخلص من تقدمهم كما يشهد بذلك قول مؤلف « حياة
محمد » بعد اثارة الشبهة في روايات المتقدمين والمتأخرين ممن كتبوا السيرة :

« حسبوا ان ذكر هذه المعجزات ينفع ولا يضر . ولو أنهم عاشوا الى زماننا هذا
ورأوا كيف اتخذ خصوم الاسلام ما ذكروه منها حجة على الاسلام وعلى أهله
لالتزموا ماجاء في القرآن . ولو أنهم عاشوا في زماننا ورأوا كيف تزيع هذه الروايات
قلوبا وعقائد بدل ان تزيد ايماننا وتثبيتا لكفاهم ذكر ما في كتاب الله من آيات
بينات وحجج دامغة »

وأنا أقول مضرة هذه الروايات عن المعجزات تتصور عند معالي المؤلف وغيره

(١) وكان الذي ينبغي للدكتور هيكل كاتب « حياة محمد » ان يقول عن حادثة الطير الأبايل
عام الفيل الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من ان يحرف السورة النازلة في القرآن
بشأنها عن معناها اتباعا للشيخ محمد عبده وإلغاء للخارقة التي نصت عليها السورة وكانت معجزة لنبينا
صلى الله عليه وسلم تقدمته وتسمى هذه المعجزة المقدمة على بعث الأنبياء ارضاها ، كان الذي ينبغي
للدكتور هيكل ان يقول كما قال الفاضل الهندي كاتب السيرة المارة الذكر :

« انمحي جيش أبرهة بالحجارة التي رمتها الطير الأبايل عليه وكانت آية من كبريات الآيات يجب
على المسلمين والمسيحيين ان يتنبهوا لكونها لم تقع لانقاذ مشركي مكة من شر أبرهة الذي كان مسيحيا
والذي كان دينه أعلى من دين مشركي مكة ، وانما كانت وقوعها ايذانا لظهوره صلى الله عليه وسلم
صاحبا حقيقة لمكة وكان معجزة من معجزاته ، ولذا قال الله تعالى في أول السورة مخاطبا له صلى الله
عليه وسلم (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الخ)

من المتبعين لعقليات الغرب ومرضاتهم ، بكونها مخالفة لسنة الكون ومقتضى العقل وقد أسند معاليه عدم اثبات المعجزات في كتابه الى هذين المانعين مع الموانع الأخرى. وواجب المسلم عندنا ، واجبه المتعين تجاه هذه الحالة مجابهة هذه العقلية الباطلة بردها على أصحابها واثبات ان المعجزات الكونية لا تخالف مقتضى العقل وان خالفت سنة الكون وأن مخالفتها غير مستحيلة ممن سنها ، اثباتا علميا كما فعلنا في أول هذا الكتاب فان لم يقم بهذا الواجب بل تقهقر أمام الناقدين الغربيين بالتنازل عن المعجزات الكونية والتبرؤ باسم الاسلام من رواياتها في كتب الحديث والسيرة بل من جميع الروايات التي اعتمد عليها أصحاب تلك الكتب ورفعوها الى النبي ﷺ سواء كانت متعلقة بالمعجزات أو بغيرها ، بحجة ان في الأحاديث المنسوبة اليه موضوعات اختلطت بصحاحها والتبس الأمر . فهذا الذي هو فرار من الواجب الى ماهو أسهل وأرخص ^(١) والى ما وراء الأسهل والارخص من الأخس والأرذل ، لا يكون فيه أدنى فائدة في استمالة الناقدين أعداء الاسلام الى الاسلام وفي التخفيف من غلواء تعصبهم عليه لأنهم يعرفون كتب الحديث والسير وما فيها وما بذل في تمحيص رواياتها من المساعي الجبارة . فلا يقبلون تبرؤ المتبرئين من المسلمين منها على أنه تبرؤ الاسلام نفسه بل يعدونه مصانعة وتسكما وضعفا ناشئا من الضعف في نفس الاسلام . وهل يظن ان علماء الغرب وعقلاءه يقبلون مثلا تفسير سورة الفيل بما فسر به المتبرئون على انه تفسير صادق مطابق للسورة ؟

ومثل الناقدين الأجانب الناقدون من أبناء المسلمين الذين لا تعجبهم معجزات نبينا الكونية المنسوبة اليه في كتب الحديث والسيرة ، لا يقنعهم التبرؤ منها وتكون

(١) أسهل وأرخص من تمييز صحاح الروايات عن زيوفها ثم الدفاع عن صحاحها ، ولا يظن ان فيه صعوبتين صعوبة التمييز وصعوبة الدفاع عن الصحاح لأن صعوبة التمييز أزالها النقاد من علماء الحديث قدما وانما رأس البلية ظن الفارين من الواجب عدم امكان الدفاع عن الروايات الصحيحة أيضا

مصاصتهم واسترضائهم بالتنازل عما في كتب الحديث والسيرة من روايات المعجزات أشد مساسا بكرامة الاسلام وأشأم ، وهل هم المرادون وبالأسف من أصحاب القلوب والعقائد الزائفة في قول معالى المؤاف : « ولو انهم عاشوا في زماننا هذا ورأوا كيف تزيع هذه الروايات قلوبا وعقائد ، بدل ان تزيد ايماننا وتثبيتنا » ؟ وعلى أعناقكم أيها المتبرئون المتنازلون الفارون عن واجب الكفاح امام أعداء الاسلام ووزر تلك القلوب والعقائد الزائفة ، لاعلى أعناق مؤلفي السير وجامعي الأحاديث مثل البخارى ومسلم ومالك وأحمد وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهم رحمهم الله ورضى عنهم أليس سبب هذه الازاعة ظنهم بالمعجزات الكونية انها لا تتفق مع العقل ؟ فاذن لو نحيت تلك المعجزات عن الاسلام وفاديت الأمر بالتبرؤ من كتب الحديث وكتب السير على الرغم من كون معنى هذا التبرؤ التضحية بثانى الركنين الرئيسيين من أركان الاسلام وهما الكتاب والسنة ، واكتفيتم بالكتاب أعنى القرآن فهل تظنون انكم أنقذتم القلوب الزائفة وأنقذتم القرآن ؟ فماذا تفعلون بالمعجزات الكونية التى يعترف بها القرآن ولو بالاضافة الى أنبياء الله السابقين ^(١) ويعتبرها آيات بينات وبراهين من ربهم رغم الشيخ صاحب المنار الذى زاع قلمه مع القلوب الزائفة فاعتبر المعجزات الكونية شبهة وقال : « لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وأن المفتونين بها الخرافيون » والذى استظهر بقوله مؤلف « حياة محمد » ؟ بل كيف تجردون القرآن عن المعجزة الكونية المضافة الى نبينا ونبىكم مع سائر الأنبياء ألا وهى على الأقل الوحي والنبوة وانزال الملك والكتاب وكل ذلك يخالف سنة الكون ويأباه العلم الحديث المبني على التجربة الحسية الحاضرة علم الزائغى القلوب ؟ فهل تتبرأون اذن من القرآن أيضا وتضحون به كضحيتكم بالأحاديث ؟ بل ان هذا المدعو علما لا يعترف

(١) أم تطمعون فى اقتناع أصحاب القلوب وهم متعلمون ، بأن الآيات الواردة عنها فى القرآن ، بل وآيات البت بعد الموت أيضا التى تملأ القرآن والتى لا يقبلها العلم المذكور أيضا ، آيات متشابهات غير مفهومة المعنى ولا مطلوبة الفهم كما هو رأى الأستاذ فريد وجدى ؟

بوجود الله الذى أرسل الرسل وأيدهم بالمعجزات ، وهو أى عدم اعترافه به أصل زيف الزائعين وأساسه . فهل تتبرأون من الله أيضا وتكونون علماء ذلك العلم الكاملين بدل ان تكونوا انصاف العلماء ؟ ؟

فعلى القائلين بواجب الحيلولة دون زيف القلوب المستعدة له أن يتشجعوا فيصارحوا ذوى القلوب المذكورة بالحقيقة ان كان القائلون أنفسهم أدركوها حق الإدراك ولا يدأورونهم ، وتلك الحقيقة أن يقال لكل من زاغ قلبه بسبب المعجزات أو الخوارق المنسوبة الى أى نبي من أنبياء الله بناء على أنها تخالف العلم : كن عاقلا قبل أن تكون عالما . وقولى هذا يضاهى ما قال « مونتسكي » : « إن الرأس الجيد الانشاء أولى من الرأس الجيد الملء » فقد يكون العلم مشوبا بالجهل يشوبه علماء المتعدون به حدوده . وعند ذلك يفترق العقل عن العلم ويكون قوله الفصل . والمعجزات لا ينكرها العقل كما بيناه فى أوائل هذا الكتاب (الصغير) ، فليس بصحيح ما يقال انها تخالف مقتضى العقل وانما هو قول الذين التبس عليهم العقل الحر والعلم المقيد بسنة السكون فظنوا الكل سواء . ويجدر بنا أن نورد هنا ما قلناه فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب^(١) ردا على المنكرين لوجود الله بناء على أن العلم لا يمتزف بوجوده وكان عنوان ذلك الفصل « موقف العلم من الله » وهذا العلم الذى لا يمتزف بوجود الله يريدون به العلم الطبيعى ، ومن دأب الغرب المادى والشرق المقلد انهما يذكرا ان العلم مطلقا ويريدان ذلك العلم كأنه لا علم غيره . وهذا ما قلنا فى الفصل المذكور :

« القائلون بوجود الله لا يقولون به على أنه موجود طبيعى بل يقولون به على انه موجود ضرورى يضطرنا الدليل العقلى المنطقى الى الحكم بوجوده واستحالة عدم وجوده . فهو موجود بوجود فوق وجود الموجود الطبيعى الذى لا ضرورة فى وجوده وكان من الممكن أن لا يكون موجودا ، ولهذا تحتاج عند القول بوجود الموجود الطبيعى

(١) نعى الكتاب الكبير الذى لم ينشر بعد

الى التجربة الحسية فتراه بعينك أو تلمسه بيدك أو تحسه بحاسة أخرى ثم تستيقن وجوده ، ولا يضطرك عقلك قبل التجربة الى الاعتراف بوجوده . ولا كذلك الموجود الضروري الوجود . فمن الطبيعي أن لا يعلمه العلم الطبيعي الذي يختص علمه بالطبيعات الممكنة الوجود والمدم . ونحن القائلين بوجود الله لا حاجة لنا بان يعلمه العلم الطبيعي ولا أن نعلمه بواسطة ذاك العلم . فلو أن العلم الطبيعي أثبت وجود الله كوجود واحد من الطبيعات لما أقنعنا ذلك لعدم لزوم كون ما أثبت وجوده واجب الوجود بل من الطبيعات التي هي موجودة بالوجود الواقعي فقط لا بالوجود الواجبي الضروري الذي هو الوجود بوصف مضاعف والذي هو وجود الله

« فمن الطبيعي اذن أن يجهل العلم الطبيعي بالله ولا يجده في الطبيعة . ولكن ليس بطبيعي أن يجهل علماء الطبيعة وهواتها ان العلم الطبيعي اذا لم يجد الله في الطبيعة لعدم كونه من الطبيعات وعدم تعاق العلم الطبيعي بما وراء الطبيعة ، لا يلزم منه عدم وجود الله مطلقا فيكون واجبا عليهم أن يعلموا وجوده بواسطة غير العلم الطبيعي . فان جهلوا به بناء على ان علم الطبيعة المبني على التجربة الحسية لا يعلمه لم يكونوا معذورين لان الانسان لا يعيش بنوع واحد من العلم ولا يكون به انسانا

« ومن الطبيعي أيضا بناء مسائل العلم الطبيعي على التجارب الحسية وعدم التعويل على ما لم يثبت بها من تلك المسائل ، ولكن من الجهل أن تجعل التجربة التي هي المقياس الأسلم والقسطاس الأقوم في الطبيعات لكونها أي التجربة الحسية نفسها من الأفعال الطبيعية، مقياسا فيما وراء الطبيعة أيضا فيحكم بناء على عدم دلالة التجارب الحسية على وجود الله ، بعدم وجوده

« فعلى هذا التفصيل يمكن أن يكون لقولهم: ان العلم لا يدلنا على وجود الله وجه معقول ، وذلك بحمل مرادهم من العلم على العلم الطبيعي . ولا وجه أصلا لقول « كانت » ان العقل النظري لا يدلنا على وجود الله ، لان نطاق العقل النظري لا يقاس

ولا يحدد بنطاق العلم الطبيعي ، فهو انما يعرف الوجود العادى أى يعرف الوجود ولا يعرف وجوب الوجود الذى يمتاز به الله ويمتاز بمعرفته العقل النظرى . ولا وجه أيضا لان يطلق العلم فى القول الاول ويراد به العلم الطبيعى كأن غيره من العلوم ليس بعلم أو ليس بعلم مثبت أو ان اثباته دون اثبات العلم الطبيعى ؛ بل عرفت مما نهناك عليه فى كثير من مباحث هذا الكتاب (الكبير) ان اليقين العقلى فوق اليقين الحسى . فليس لاحتكار اسم العلم على العلم الطبيعى ، كما هو دأب الغربى الحاضر ومقلده الشرق ، وجه معقول . اللهم الا أن يقال: ان أنفع علم فى الحياة الدنيوية يُستخدم فى حوائج البشر هو ذلك العلم الكثير الانتاج الذى حصل به الرقى الأخير الصناعى فى الغرب . واستعمال مطلق العلم فى العلم الطبيعى من المحدثات الأخيرة أيضا . وبقدر ما يصح هذا التوجيه يظهر سر قوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) . انتهى ما قلناه فيما سبق وأردنا اعادته هنا

فكما قلنا هنالك فى مسألة وجود الله نقول هنا فى مسألة المعجزات : ان الحكم فيها بالامكان والاستحالة لا يدخل فى اختصاص العلم الطبيعى . نعم من اختصاصه الحكم بأن المعجزات تخالف سنة الكون بشرط أن لا يجاوز حكمه هذا الى الحكم باستحالة المخالف لسنة الكون ، لان هذا العلم لا يعرف المحال ولا الممكن ولا الواجب بميزانه الذى هو التجربة الحسية وانما يعرف الواقع وغير الواقع فى زمن التجربة ، وقد فصلنا ذلك فيما سبق غير مرة . اما مخالفة المعجزات لسنة الكون فنحن نعترف بها ولا ندعى ان المعجزات من الأفعال الطبيعية وانها تنطبق مع سنة الكون التى هى سنة الله العمومية ، وانما هى منطبقة على سنة الله الاستثنائية . ونحن لانقبل كون مخالفة المعجزات لسنة الكون مانعة عن وقوعها ، بل ان هذه المخالفة لازمة مطلوبة لتكون المعجزة معجزة ، ولا نقبل أن سنة الله بمعنى سنته فى الكون الطبيعى لن تجد لها تحويلاً ولو كان المحول هو الله نفسه واضع تلك السنة

ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية ويقصرون معجزته على القرآن
ارضاء لمنكري المعجزات والحوارق من المستشرقين وتفضيلا لموافقتهم في عقلية الانكار
على تحشم معارضتهم : ان القرآن مهما حُب اليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وأعجابهم
مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ﷺ . وقد يُطمع منهم ان يعدوه أفضل
كتاب في الدنيا وضعه البشر . أما انه كلام الله أنزل على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة
النبوة فأمر خارق لسنة الكون لن يقبله منكرو المعجزات والحوارق . وما دام أناس
من المسلمين وفيهم معالي مؤلف « حياة محمد » ينكرون معجزاته الكونية لالعدم
استنادها الى الروايات الصحيحة بل لكونها أيضا مخالفة لسنة الكون، مخالفة للعلم،
مخالفة لمقتضى العقل ؛ فكيف ينتظر من المستشرقين الذين لا يدينون بالاسلام ان
يقبلوا القرآن على انه من المعجزات الخارقة أعني انه كلام الله لا كلام سيدنا محمد ؟
فالواجب اذن أن يداوى أساس الداء وتقاوم حملات المنكرين من جباهها . وما أجدر
معالي المؤلف الذى لجأ الى عصيان العلم فى مسألة الوحي والنبوة واعترض على سلطته (١)
ما أجدره بأن يعصيه فى مسألة المعجزات أيضا التى لا تنفك عن النبوة ولا يعترف
بسلطته فيما وراء الطبيعة مطلقا . لكنه ضحى هناك بالعلم وهنا ضحى بالمعجزات
وكتب الحديث وشيء كثير معها من الاسلام فى سبيل مماشة العلم فلم ينتظم له المسلك
أما المستشرقون الذين انتهج مؤلف كتاب « حياة محمد » هذه الطريقة الملتوية
لقطع ألسنتهم المتطاوله ضد الاسلام من جراء روايات المعجزات الكونية - وما هو
بقاطع كما عرفت - فاما ملاحدة ماديون أو نصارى متعصبون لدينهم . فان كانوا
ملاحدة فلا يرضيهم التنازل عن معجزات نبينا غير القرآن بحجة انها معجزات كونية
ولم يرد ذكرها فى القرآن ، رجاء ان يعترفوا بمعجزة القرآن . وان كانوا نصارى
فكيف يعترضون على معجزات محمد ﷺ الكونية ويعدون الأحاديث المروية عنها

(١) يظهر ذلك بمراجعة الطبعة الثانية لكتابه ص ٤١ - ٤٢ وهذا دليل على ان العلم
لا يقبل الوحي والنبوة أيضا وانهما مما يخالف سنة الكون كالمعجزات

عاراً على الاسلام لأجل كونها مخالفة لسنة الكون ومقتضى العقل والعلم ، في حين ان معجزات سيدنا المسيح كلها كونية مخالفة لسنة الكون . وكان القرآن أفضل معجزة وأوفقها لأن يكون معجزة مؤيدة لتبوء خاتم الأنبياء يخاطب العقول الناضجة بإرشادات من سبقوه صلوات الله عليهم كلهم وكان بهذا المعنى حجة عقلية لا بمعنى انه ليس بمعجزة كونية خارقة لسنة الكون لأنه معجزة عقلية وكونية معا ، وكان خصيصا أخرى بأن يؤمن به الغرب الراقى الناضج العقل ، قبل الشرق ولكن أين ذلك من الغرب الذى يعمه في طفيلاته ويريد ان يخرج الشرق المسلم من دينه ويعاديه لدينه وقرآنه . وهذا في حين ان المسلم الغافل يتنازل عن شطر دينه ومعجزات نبيه تزلزلا اليه ، وهيئات لا يرضيه الا التنازل عن الشطر الباقي أيضا ، وهيئات من أصحاب القلوب الزائفة من الشرقيين أن يرجعوا بهذا القدر من التنازل الى رشدهم مادام الغرب الذى هم مقلدوه لا يعمده كافيا ويستمر في مناوأة الاسلام ومكافحته

مضى بها ماضى من عقلٍ شاربها وفى الزُّجاجة باقى يطالبُ الباقي
فبالنظر الى ان معجزة القرآن العقلية ما أثرت في قلوب الغربيين المعدودين أعقل الأمم ، والى ان مرض الانكار والاستبعاد للمعجزات الكونية قد أعدى الشرق من الغربيين ، ومع ذلك نراهم أى الغربيين لا يزالون مرتبطين بالأنبياء الذين لهم معجزات كونية ، فالسعى في تجريد نبينا عن المعجزات الكونية لاستمالة الغربيين ليس الا غفلة ظاهرة وسداجة باهرة

وقد كتب معالى المؤلف في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه نوعين ممن انتقدوه :
فكتاب مصرى مسلم بعث بمقالة الى مجلة المستشرقين الالمانية نقدا لكتاب « حياة محمد » وبعث ترجمة عربية لمقالته الى المؤلف يؤاخذها فيها على اعتماده على المصادر العربية واعتباره القرآن وثيقة تاريخية لا محل لريبة فيها مع ان مباحث المستشرقين من أمثال « فيلد » و « جولدزهر » و « نولدكى » وغيرهم تدل على انه حرف وبذل بعد وفاة النبي

والصدر الأول للإسلام واسم النبي بعض ما بدل فيه فقد كان اسمه « قثم » أو « قثامة » ثم بدل وصار « محمد » ليتسنى وضع الآية (ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد) وأضاف الكاتب الى أقواله هذا أن بحوث المستشرقين دلت كذلك على أن النبي كان يصاب بالصرع وأن ما كان يسميه الوحي انما كان أثراً لنوبات الصرع التي تعتريه ومما ليه شكر الله سعيه رد على فرية تحريف القرآن في صدر الاسلام بشواهد مفحمة من كلمات المستشرقين وعلى فرية الصرع بأدلة علمية حاسمة (١)

والنوع الثانى من نقاد كتاب « حياة محمد » سماهم مؤلفه ببعض المشتغلين بالعلوم الدينية الاسلامية الذين أخذوه بأنه يرجع الى أقوال المستشرقين ولا يأخذ بكل ماسجلته كتب السيرة وما روته كتب الحديث متصلاً بسيرة النبي العربى ور بما يتوهم هنا متوهم فيلتمس عذراً للمؤلف فيما سلك فى كتابه من التوسط بين عقلية ذلك الكاتب المصرى المسلم الذى هو أبعد بكثير من الاسلام من المستشرقين وبين عقليات ذلك البعض من المشتغلين بالعلوم الدينية الاسلامية كما قال المؤلف نفسه : « بينا يؤخذنا غلاة المصدقين لما أسرف فيه المستشرقون باننا نعتمد على المصادر العربية ونستند الى ماورد فيها ، اذا بعض المشتغلين بالعلوم الدينية الاسلامية يؤخذوننا بأننا نرجع الى أقوال المستشرقين ولا نأخذ بكل ماسجلته كتب السيرة وما روته كتب الحديث متصلاً بسيرة النبي العربى واننا لانهج نهج تلك الكتب »

لكن تحقيق الحقائق ووضع النصاب لما الذى هو واجب المؤلف فى أى موضوع من موضوعات المؤلفين الثقات الأثبات لم يكن تأليفاً بين المتساويين المتباعدين واختيار وسط تتعادل نسبته الى الطرفين . وليس بمستقيم ظهور المؤلف عند الشكاية من أشدد المشتغلين بالعلوم الدينية عليه فى مظهر من أوخذ لعدم أخذه بكل ماسجلته كتب السيرة

(١) والكاتب أشنع مثال لمبلغ كتاب يعدون من المسلمين وهم كفار بدينهم وكتابهم ، فى تقليد الغريين حتى معاداة الاسلام العمياء

وكل ما روته كتب الحديث متصلا بسيرة النبي ﷺ ، فلا علم لنا بنص ما كتبوا في مؤاخذته على أثر الطبعة الأولى لكتابه ، لكننا نحن لم نؤاخذه لعدم أخذه بكل ما في كتب السيرة والحديث متصلا بحياة نبينا بل لكونه عند الجواب على مؤاخذة الاولين في مقدمة الطبعة الثانية ، رمى كل ما في تلك الكتب بشبهة الكذب

٦

السادس اذا كانت المعجزات خارقة لسنة الكون وكان خرق السنة جائزا لامانع منه بل لازما ضروريا للمعجزة لتكون معجزة فلماذا يشهد القرآن بأن سنة الله ان تجد لها تبديلا ؟ فهذا السؤال يمكن أن يخالج بعض الأذهان بعد مطالعة ما كتبنا الى هنا كما خالج ذهن هيكل باشا قبل مطالعة ما كتبنا حيث قال ص ٥٥ من الطبعة الثانية لكتابه :

« ولو أن أمة مسلمة آمنت اليوم بهذا الدين من غير حاجة الى التصديق بمعجزة غير القرآن لكان الذين آمنوا من أبنائها أحد رجلين رجل لم يتأجج قلبه ولم يتمتر فؤاده بل هداه الله الى الايمان أول ما دعى اليه كما هدى أبا بكر فأمن وصدق من غير تردد . وآخر لم يلتمس ايمانه فيما وراء سنة الكون من خوارق بل التمس في خلق الله هذا الكون الفسيح الارحاء الذي يقصر تصورنا دون ادراك حدوده في الزمان والمكان وتجري أموره مع ذلك على سبيل لا تحويل لها ولا تبديل ^(١) فاهتدى من

(١) مقاله من النظر في خلق الله هذا الكون الجارى على سنته انما ينفع في ايمان الرجل بالله خالق الكون لافي ايمانه بهذا الدين أى الاسلام وقد قلنا في أوائل هذا الكتاب: إن سنة الكون ونظامه العام دلائل على وجود الله وخرق تلك السنة يكون دليلا على وجود أنبيائه والدين المتضمن للتكليف من الله انما يكون مبدأه الايمان بالنبي لا الايمان بالله فقط . فعلى الباشا الذى أراد تحليل ايمان الرجل الثانى بدين الاسلام من غير حاجة منه الى التصديق بشيء من الخوارق ، لم يوفق لذلك فهاذا سبب ايمان هذا الرجل بنبي الاسلام بعد ايمانه بالله ؟ فان قال سبب ايمانه به القرآن وفرضنا انه يفهم اعجاز القرآن قلنا ان القرآن أيضا من الخوارق فلولم يكن خارقا لسنة الكون لما كان معجزة ولم يعجز الناس عن الاتيان بمثله

سنن الله في الكون الى بارئته ومصوره . سواء عند هذين أكانت الخوارق أم لم تكن^(١) بل هما لا يفكران في هذه الخوارق على أنها من آيات فضل الله . ومثل هذا الايمان يراه الكثيرون من أئمة المسلمين مثلاً أسمى في الايمان . ويذهب بعضهم كذلك الى أن الايمان الصحيح يجب أن لا يكون مصدره خوفاً من عقاب الله أو طمعا في ثوابه بل يجب أن يكون ايمانا خالصا بالله وفناء تاما فيه »

أقول من الغفلة أو التغافل ان يبحث عن ايمان كإيمان أبي بكر في العصرين الذين يساموننا ويشترطون في ايمانهم بالله وبالقرآن ان لا يعترفوا بمعجزات تحرق سنة الكون^(٢) كأن الله غير قادر على خرقها أو كأنه لم يكن هو الذي سنّها وانما هي طبيعة الكون ، كما قال بذلك محمد ثابت الفندى في مقالته التي نالت الجائزة الأولى من لجنة المباراة الصحفية والتي مرّ الكلام عليها في مقدمة الكتاب الكبير وهم لا يزالون في ايمانهم بالله وبالقرآن طبيعيين ، وكأن القرآن لا يعترف مثلهم بتلك المعجزات

(١) يكاد الباشا يقول : « وسواء كان النبي أولم يكن » ولا يعتذر عنه بأنه لا يقول ذلك لأنه اذا لم يكن النبي فمن يدعو الرجل الأول الى الايمان ؟ لانا نقول في جوابه . ومن أين يعلم ان الداعي نبي من أنبياء الله اذا لم تكن معه علامة لنبوته ورسالته من الله ؟ وهي المعجزة الخارقة . فالذين لا تعجبهم المعجزات يظنون ان أنصارها يلتزمون وجودها مع النبي من غير حاجة اليها لامن النبي ولا من الذين أرسل اليهم

(٢) وقد قال معاليه عن أبي بكر في كتابه في مبحث الاسراء : « مالبث محمد حين حدثهم بأمر اسرائيه ان ساور أتباعه والذين صدقوه أنفسهم بعض الريب فيما يقوله . وقال كثيرون والله ان العير لتطرد شهرا من مكة الى الشام مدبرة وشهرا مقبلة أيذهب محمد ذلك في ليلة واحدة ويرجع الى مكة وارثد كثير ممن أسلم وذهب من أخذتهم الريبة في الأمر الى أبي بكر وحدثوه حديث محمد فقال أبو بكر انكم تكذبون عليه قالوا بلى هاهو ذاك في المسجد يحدث الناس قال أبو بكر لأن كان قد قاله لقد صدق انه ليخبرني ان الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه فهذا أبعد مما تمعجون منه »

فهل أبو بكر الذي شبه به معاليه أحد رجلين مستغنيين في ايمانها عن الخوارق المخالفة لسنة الكون لما سمع حديث الاسراء آمن به ؟ أم لم يؤمن وقال لاحاجة لي في ايماني الى هذه الخارقة المخالفة لسنة الكون ؟

الخارقة الظاهرة ولو على أيدي الأنبياء السابقين وكتابتها رغم شهادة القرآن بها ليست معجزات معقولة مقبولة عند أصحاب العقول الراجحة أو كأن الإيمان بالقرآن جملة مع عدم الاعتراف ببعض ما فيه يعتبر إيمانا ويكفي في دين الاسلام ، وكأني بمعالیه يفتي في كل ذلك بالجواز وتدور فتاواه على محور سنة الكون التي لا تحوّل فيها ولا تبدل . أما قوله المتناقض مع فتاواه وهو « بل هـ لا يفكران في هـذه الخوارق الا على انها من آيات فضل الله » فغاية ما يفهم منه ان معاليه متردد في هـذه المسائل لم يستقر رأيه على شيء كما يقال عن المفتي المتردد في الفتوى : « انه يقدم رجلا ويؤخر أخرى » ومع هذا الاضطراب في الرأي فهو أميل الى نفي الخوارق منه الى اثباتها تمسكا بسنة الكون المؤيدة بالعلم وبصراحة القرآن القائلة : (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) !! لأنه اذا كانت هـذه الصراحة القرآنية مانعة عن الخوارق لزم ان تقع أنباء القرآن عن معجزات الأنبياء السابقين مثل ابراهيم وموسى وعيسى وصالح وسليمان وغيرهم صلوات الله عليهم ، تحت شبهة الكذب والوضع كالأنباء المروية في كتب السيرة والحديث عن معجزات نبينا ﷺ على رأى معاليه أو تكون الآيات الواردة في القرآن الناطقة بأنباء معجزات الأنبياء آيات متشابهات غير مفهومة كما قال الأستاذ فريد وجدي وان كان القرآن ينادى بقوله (لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)

معالي مؤلف « حياة محمد » لم يكن مبتكرا في الاستدلال بقول الله تعالى (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) على نفي المعجزات الكونية واثبات مذهب الطبيعيين ، بل اكتشفه قبله من اكتشفه من المستشرقين ومن علماء الدين بمصر الذين ديدتهم تهيئة الأدلة التمهيدية مع أهواء المتعلمين المصريين . لكن المراد

من الآية ليس كما يظنون ، وانما هي مبينة لسنة الله في أمم بعث فيهم أنبياء وأيدهم بالمعجزات فمعضوهم وكذبوهم . وسنة الله انزال العذاب عليهم كما قال تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون أفعذابنا يستمتعجلون فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين) وهذا المعنى في الآية التي تمسك بها هيكل باشا ومن تقدمه يدل عليه ما قبل الآية في سورة الملائكة :

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم الا نفورا استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)

وما قبلها في سورة الأحزاب : (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لفغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)

وما قبلها في سورة الفتح : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

وفي سورة الاسراء : (وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافاك الا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنةنا تحويلا) وكيف يمكن ان يكون معنى الآيات كما ظنوه فيكذب به القرآن مانص هو نفسه عليه من أنباء الأنبياء ومعجزاتهم الخارقة لسنة الكون ويكذب فيما قاله في آخر سورة يوسف (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى)

أما القول بوجوب أن لا يكون مصدر الايمان الصحيح خوفا من عقاب الله أو طمعا

في ثوابه وكذا القول بكون مرتبة هذا الايمان دون مرتبة الايمان الخالص ، فقد أراد معالي الباشا ان يدخل في مبحث الايمان بسبب المعجزات مسألة عصرية أخرى وهي انتقاد العقيدة القديمة الاسلامية الداعية الى مخافة الله، وان كانت لا تبدو المناسبة بين مسألة المعجزات الخارقة لسنة الكون وبين مسألة الايمان بالله بدافع الخوف من عذاب الله أو الطمع في ثوابه بل وان كان في تطبيق هذين الدافعين على مسألة الايمان بالله شيء من عدم الانطباق اذ الايمان انما ينبئ على عقيدة كون الشيء حقا والعقيدة نفسها تقوم على أسباب حقيقية تختلف باختلاف متعلقها أو على تقليد محض وليس بين أسباب كون الشيء حقا خوف المعتقد من الشيء الذي يمتقده، فبناء على هذا لا يتصور ان يؤمن أحد بالله خوفا من عذابه وانما يتصور الخوف من عذاب الله بعد الايمان بالله فلم يكن المؤلف محسنا في وضع المسألة التي أراد انتقادها وانما يعقل ان تكون الطاعة لله خوفا من عذابه أو طمعا في ثوابه موضع البحث لا الايمان به

وعلى كل حال فان انتقاد الايمان بالله أو الطاعة له خوفا من عذابه وانتقاص هذا الايمان أو الطاعة ينافي مسلك القرآن في مدح الخائفين من الله ، مسلكه البارز في آيات كثيرة لا تحصى لكثرة كقوله (ولن خاف مقام ربه جنتان) وقوله (ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) وقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) وما حث الله عبده المؤمن في كتابه على شيء حثه على تقوى من الله وما أكثر من الأمر بشيء اكثاره في الأمر بالتقوى التي هي مخافته كقوله (واتقوا الله لعلكم تفلحون) وقوله (وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب^(١) كما انه لم يكرم مرتبة عنده لعباده تكرمه لمرتبة التقى فقال: (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال النبي ﷺ (أنا أخشاكم لله وأتقاكم له) وماذا

(١) انظر كيف يخص الله تعالى أولي الألباب بالدعوة الى مخافته في حين ان المصريين الذين يعتبرون أنفسهم عقلاء من الطراز الأول يعدونها منقصة

قد يكون الايمان الخالص عند غير المعترفين بالكمال للايمان الصادر من القلب التقى المشحون بمخافة الله ؟ فهل هو ايمان عبده به من غير مخافته ؟ ولا يعقل ايمان مجرد من كل دافع حتى انهم ان قالوا نؤمن حبا فهو أيضا ليس بايمان خالص مجرد من كل دافع . على ان التعليل لا ينتهى فى الحب لأنه أيضا يحتاج الى علة دافعة اليه . فان كان أساس العمل عظمة الله فعلاقتها بالمهابة والمخافة والاجلال أولى وأقوم من علاقتها بالمحبة ولأن المخافة والاجلال أخرى بموقف العبد

فقد وجدنا المصدر الحقيقى للايمان بالله وهو ادراك عظمته واستحقاقه للمعبودية . وأول ما يحصل بتأثير هذا الادراك فى نفس الانسان هو تصاغره بين يدي ذلك العظيم وتذله ^(١) وتخشعه له ومخافته منه تصاغرا وتذلا وتخشعا يوشك معها أن يرى محبته فوق حد العبد وأدبه مع مولاه . وفى «أساس البلاغة» للعلامة الزمخشري «الايمان هيوب» ^(٢) وليس بلازم أن تكون مخافته من عذابه كما صوروا المسألة قصدا لانتقاد مخافة الله وانتقاص أهميتها بل المخافة من الله نفسه كما قال عز من قائل (ويحذركم الله نفسه) وهى تنطوى على المخافة من عذابه أيضا كما تنطوى هذه المخافة الناشئة من ادراك عظمته على محبته ، الا أن المحبة لله العظيم لابد أن تغمرها الرهبة والمهابة، ومن هذا قال سبحانه وتعالى (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا)

فقتضى العقل أن تُهاب القوة التى تسيطر على جميع القوى ثم تحب لكونها فوق الجميع . ومن هذا لا يتصور الظلم من الله فيكون كل ما يفعله حقا وعدلا وحكمة .

(١) لو كان الاستاذ فرح انطون منشىء مجلة « الجامعة » الذى ناظر الشيخ محمد عبده وانتقد على القرآن تعبيره عن بنى آدم بعباد الله كما سبق ذكره فى مقدمة الباب الاول (من الكتاب الكبير)، حيا واطلع على كلتي هذه لقال : « ما هذا التصاغر والتذلل المتأني لكرامة الانسان ؟ » ولا يعرف لذة التذلل لله والشرف الذى فيه الا الأحرار الحقيقيون الذين يأبون التذلل للملوك الدنيا والتصاغر بين أيديهم والذين يعرفون الله كما قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء)

(٢) ثم وجدت هذا القول فى « الفائق » للزمخشري أيضا ، منسوباً الى ابن عباس رضى الله عنهما

والقوة تزداد اقترابا من الحق كلما ازدادت كبرا واتساع نطاق فتعتبر الغلبة بين الدولتين المتحاربتين استحقاقا للجانب الغالب على المغلوب ولا توجد محكمة تفصل بين الظالم والمظلوم في مثل هذه المسائل بل يُعترف بالحق للغالب بمجرد غلبته فتعتبر قوة السيف حقا مسلما به وتكون معاهدات الصلح بعد الحرب وثائق حقوق للقائل على المقتول على عكس ما اذا كانت حادثة القتال بين الافراد . لكن هذا الحق المبني على الغلبة في الحرب بين الدولتين اعتبارى وقتى لا حقيقى ودائى ، لاحتمال أن تنهض الدولة المغلوبة في المستقبل فتتغلب على الغالب الأول فينتقل الاستحقاق الى جانبها في استرداد ما أخذ منها والاستيلاء على ما زاد عليه ، أو لاحتمال أن تقوم قوة ثالثة فتقهر الجانبين وينتقل حق الاستيلاء اليها وهكذا يدور هذا الحق الاعتبارى الوقتى مع الأقوى الوقتى فالأقوى من الأقوى حتى اذا انتهت الى قوة لا قوة فوقها وهى قوة الله أصبحت القوة عند ذلك عين الحق

ففى الامكان أن لا يحب الصغير المقهور الكبير القاهر وليس فى الامكان أن لا يخافه حتى انه لا يكون فى الامكان أن لا يحبه أيضا اذا كانت محبته مبنية على مخافته التى لا تفارقه . ولا تحسبوا أن هذه المحبة لا تكون صميمية لأن المقهور من جميع الوجوه لا يسمعه الا أن يحب قاهره ولا يسمعه الا أن يكون صميميا فى محبته والا يلزم أن لا يكون القهر تاما وهو خلاف المفروض . فكل أحد وكل شىء اذا خفته هربت منه الا الله تعالى لأنك اذا خفته هربت اليه فالخائف من ربه هارب الى ربه . واليه يشير قوله تعالى (ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين) وقوله ﷺ (لا ملجأ ولا منجى الا اليك)

وقد أطلت هذه المسألة التى دخلت فيها عرضا وتبعنا لدخول مؤلف كتاب « حياة محمد » ومع هذا فهى كانت حرية بالتدقيق لأهميتها ، ولما كنت أدرى من زمان أنها من مزالق العقليات الجديدة المتصورة فى مخافة الله منقصة وفى محبته غنى عنها

ورجحانا عليها أو التصورة تنافيا بينهما . وكنت كتبت هذه المسألة في كتاب ألفته باللغة التركية لما كنت في بلادى قبل عشرين سنة وأوردت فيه قول الشاعر :

وأبكى لنفسى رحمةً من عتابها ويبكى من الهجران بعضى على بعضى

وانى لأخشاها مُسيئا ومحسنا واقضى على نفسى لها بالى تقضى

واذا كان هذا شعور انسان رقيق الحس ومهذبه نحو انسان يحبه ويتفانى في حبه فكيف ينبغى أن يكون شعوره نحو ربه العظيم . ولعل الفكرة الغربية المتجهة الى عدم التقدير لمرتبة مخافة الله السامية في الاسلام وفي نفس الأمر قدرها تسربت في عقول بعض المسلمين تقليداً للمسيحيين بواسطة تقليد الغرب المسيحي وتقليداً لمتصوفة الصوفية . ومن المعلوم ان إله المسيحيين رحيم فقط وليس بمميز ذي انتقام ، حتى انه افتدى بنفسه عندهم في العفو عن ذنب البشر وكان الذنب عظيماً جداً فناسب أن يضحي المجنى عليه بنفسه ليعفو عن الجاني صاحب الذنب . ولا يمكن أن تكون فكرة في الدنيا معكوسة الى هذا الحد، فالله يرحم البشر ويعفو عنهم ولا يرحم البشر ويعفون عنه وكيف يعفون عنه ولا ذنب له وانما الذنب ذنبهم والذنب يعنى عنه ولا يعنى عن الذى لا ذنب له وانما اُذنب عليه ، فيجعلونه فداء يفتديهم ويجزى نفسه بذنوبهم جزاء دونه جزاء سائر (ان الانسان لظلوم كفار)

هذا تحليل مسألة الخوف من الله فكان الذين لا يرونه متناسباً مع مقام الألوهية والعبودية من النصارى يرون خوف الله من الانسان أنسب من عكسه . والمتصوفة الوجودية لا يفرقون بين الله وما سواه فلا محل للخوف

وجوابى للذين لا يعجبهم ايمان المؤمن - أو بالأصح طاعة المؤمن - طمعا في ثواب الله أن الاعتراض على من أطاع الله طمعا في ثوابه يتضمن الاعتراض على قوله تعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) وقوله مشيراً الى نعيم الجنان المشاد بذكره في الآيات المتقدمة : (لئلا هذا فليعمل العاملون) وقوله

(وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) وقوله في وصف المؤمنين (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) وقوله : (ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً ان رحمة الله قريب من المحسنين) فالله تعالى في الآية الأخيرة يأمر بدعائه خوفاً وطمعاً ويسمى الداعين له خوفاً وطمعاً محسنين والذين أنافشهم لا يعجبهم الخوف ولا الطمع فيهنون الناس عنهما فأى القولين أحق أن يتبع ؟

٧

السابع أصحح ان في القرآن ما يمنع وجود المعجزات لنبيينا محمد ﷺ كما ادعاه مؤلف كتاب « حياة محمد » واتخذ منه مقياساً يرفض به كل ما في كتب الحديث والسيرة من أنباء معجزاته الكونية ؟

هذه الدعوى يبينها منكرو المعجزات الكونية لنبيينا على نوعين من آيات القرآن فأولاً يبنونها على ما يتكرر ذكره في سور مختلفة من أنه لا تبدل لسنة الله ولا تحويل، فيحملون سنة الله هذه على سنته في الكون التي يسمونها القوانين الطبيعية المستنبطة من نظام العالم ويقولون أو بالأصح يريدون أن يقولوا : « كما أن المعجزات الكونية لا يقبلها العلم لكونها مخالفة لسنة الكون أى القوانين الطبيعية لا يقبلها كتاب الله أيضاً فيصرح في آيات عدة أن لا تبدل لسنة الله، وقد سبق الجواب عنه وأنه ان كانت تلك الآيات مانعة عن المعجزات الكونية فلا يخص منعها بمعجزات نبيينا بل يعم معجزات الأنبياء كلهم المقصوص أنباؤها مفصلة في القرآن

وثانياً يبنون دعوى كون القرآن يمنع وجود معجزات كونية لنبيينا على ما يحكى في آيات كثيرة من أن المشركين كانوا يقترحون على النبي ﷺ أن ينزل الله عليه آية أى معجزة ليؤمنوا بنبوته فيكون الجواب أن الآيات عند الله وانما النبي بشر مثلهم أرسل اليهم لينذرهم

فرأى المستشرقون هذه الآيات ^(١) وانتهزوا من وجودها في القرآن فرصة القول بأن محمدا لم تكن له معجزة مثل معجزة موسى وعيسى ، ومرادهم من هذا القول أن محمدا لم يكن نبيا ، ورآها كثير من المتعلمين بمصر تعلما عسريا يدفعهم الى التعويل على أقوال علماء الغرب المستشرقين أكثر منه على أقوال علماء الشرق أئمة الاسلام ، ورآهم ثم تابعهم علماء الدين في الأزمنة الأخيرة التي طرأ فيها الضعف على الاسلام وعلمائه ، من حدثهم أنفسهم ان يكونوا أئمة كما كان السلف رضوان الله عليهم فابتدعوا امامة يتبع فيها الامام المأموم

رأى هؤلاء وهؤلاء النقص الذي رأى المستشرقون في الاسلام ، نقص المعجزات ونقص التضاد بين الكتاب والسنة في مسألة المعجزات الكونية نفيًا وإثباتًا، لكن الرائيين المسلمين كما لم يفكروا في أن الساف الصالح من رواة الأحاديث وجامعيها المثبتين كالامام البخارى ومسلم ومالك وأحمد وغيرهم ورواتهم من الثقات البالغ عددهم عشرات الألوف ، كانوا أكثر قراءة للقرآن واطلاعا على آياته من مستشرق الغرب ومن أنفسهم أتباع أولئك الغربيين في الشرق من الكتاب والعلماء فكيف فاتهم كلهم رؤية هذا التضاد بين القرآن وأحاديث المعجزات التي رووها وأثبتوها في كتبهم ؛ كما لم يفكر راءو التضاد من المسلمين في هذا لم يفهموا مغزى رؤية الرائيين الأجانب فحاولوا أن ينتصروا لدينهم ويتداركوا نقص التضاد بين الكتاب والسنة في أمر المعجزات بالطمع في صحة نسبة السنة ونقص المعجزات الكونية في نبي الاسلام بالطمع في تلك المعجزات نفسها واسقاط أهميتها في تأييد النبوة على الرغم من ظهورها على أيدي الأنبياء المتقدمين ، حتى قال الشيخ رشيد رضا

(١) التي منها ما أورده مؤلف « حياة محمد » ونقلنا عنه سابقا من قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا)

صاحب مجلة « المنار » عند دفاعه عن معالي هيكل باشا وتصويبه فيما فعله في كتابه من اخلاء حياة نبينا عن المعجزات الكونية : « ان الخوارق الكونية شبهة عند علماء العصر لاحجة لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وان المفتونين بها هم الخرافيون »

القول بأن المعجزات الكونية شبهة لاحجة الذي عزاه الشيخ رشيد الى علماء العصر الغربيين هو مذهب الشيخ نفسه أيضا لأنه اعتمد في دفاعه عن كتاب هيكل باشا عليهم واعتبر قولهم حجة حين لا يعتبر معجزات الأنبياء الكونية حجة ولا تعبير القرآن عن تلك المعجزات تارة بالحق وتارة بالبينات وتارة بالآية الكبرى وتارة بالسلطان وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان ، حجة في أنها حجة : قال تعالى : (فلما جاءهم موسى بالحق قالوا هذا سحر مبين قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) وقال : (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات) وقال : (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) وقال : (وآتينا عيسى بن مريم البينات) وقال : (ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلمهم بهتدون) وقال : (وأن ألقى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الريب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه) وقال : (فأراه الآية الكبرى) وقال : (وفي موسى اذ أرسلناه الى فرعون بسلاطان مبين)

وقال هذا الشيخ في كتابه « الوحي المحمدى » ص ٤٦ « وأما تلك المعجائب الكونية فهي مشار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها ^(١) وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرة في كل زمان ، والمنقول منها عن صوفية

(١) يظهر من هذا ان كل ما ادعى هيكل باشا في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه متجربا على كتب الحديث والسيرة قامامه فيه الشيخ رشيد . ومن غريب المصادفة انه ورد الى أثناء كتابة هذه السطور عدد مجلة (الفتح) الاسلامية ٦٥٥ فقرأت فيه مقالة للاستاذ الكبير صاحب المجلة يعد فيها كفريات

الهندود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهد العتيق والجديد^(١)
فكان الشيخ وقد ذكر في كتابه أمثلة مما يأتي به الصوفية الهندوس وفيها
أحياء الموتى ، يسعى في مقابل ما يدعيه المستشرقون أعداء الاسلام من أن محمداً لم يأت
بمعجزة كما أتى موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، يسعى لأن يدعى في مقابل ذلك
أن معجزات أولئك الأنبياء لم تكن بمعجزات . ويقرب منه ما قاله هيكمل باشا : « ان
القرآن ذكر المعجزات التي جرت بأذن الله على أيدي من سبق محمداً من الرسل كما أنه
جرى بالكثير مما أفاء الله على محمد وماوجه اليه الخطاب فيه وما ورد في الكتاب
عن النبي العربي لا يخالف سنة الكون في شيء » فكان ما ذكر القرآن من
معجزات الأنبياء السابقين معيبة بمخالفة سنة الكون حين لا يوجد هذا العيب في
معجزة نبينا التي هي القرآن وعيب ما يخالف سنة الكون عندهم أنه لا يكون ولا
يقبل العلم أنه يكون . ولا يفرنك قول الباشا « ان القرآن ذكر المعجزات التي جرت
بأذن الله على أيدي من سبق محمداً من الرسل » لأنه لو وقعت تلك المعجزات رغم
مخالفتها لسنة الكون لم يذكر مخالفتها لها كعيب تنزهت عنه معجزة نبينا ﷺ ،
بل لزم أن يكون وقوعها خارقة لسنة الكون مزية لها على المعجزة التي لا تخرق سنة
الكون لأن المعجزة التي تقع وتخرق بوقوعها سنة الكون لا بد أن تكون أقوى من

غلام أحمد القادياني وبينها قوله : « قد أعطاني الله اختياراً كاملاً لأن أقبل الأحاديث الموافقة لاهامي
وأردها اذا خالفت آرائي » وقوله عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم « ما صدر عنه معجزة واحدة
فضلا عن معجزات

(١) كما لا يقدح في الأحجار الكريمة والجواهر الفاخرة ولا ينقص من قيمتها الغالية ، وجود
زيوف تشابهها وتلبس مع أصولها الحقيقية في أعين الغافلين وأنظارهم الحق ، كذلك لا يقدح في
آيات الله التي أظهرها على أيدي من اصطفاهم للرسالة الى الناس ، وجود مشعوذين من أهل السحر
والدجل . ولماذا لم يعتبر الشيخ من سحرة فرعون الذين لما رأوا عصا سيدنا موسى تلتف
مياهاً فكون خروا سجداً وقالوا آمنا برب موسى وهارون حين لم يؤمن فرعون قائلاً أنه الكبيركم
الذي عليكم السحر ؟ . فكان ينبغي للشيخ ان يعتبر ويتعلم من سحرة فرعون تمييز المعجزة من
الشعوذة بدل ان يتعلم من فرعون التسوية بينهما

التي لا تحرق فظهر أن مخالفة المعجزة لسنة الكون فضل لها لا عيب ونقص، وإذا كان في الخارقة من حيث أنها خارقة عيب فلا بد أن يكون عيبها في عدم وقوعها . فلماذا إذن ذكرها القرآن وأكبرها ؟ وترى الباشا يقابل ماذا ذكره القرآن للأنبياء المتقدمين من الخوارق ، بما ذكره القرآن لمحمد ﷺ من الانتصار في الحروب . فإذا تفهمون من هذه المقابلة ؟ أليس الفرق فيما بينه وبينهم صلوات الله وسلامه عليهم كلهم أن القرآن نوه به بما يكون ونوه بهم بما لا يكون ؟

عجيب هذا الجدل المحدث بين المستشرقين غير المسلمين والمستغربين المسلمين المبني على تعصب كل من الطرفين لدينه على دين الطرف الآخر : فالمستشرقون يعيبون الإسلام بأن نبيه لم يأت بمعجزة وعجز عن الاتيان بها حين قيل عنه : (فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) وهم لا يعدون القرآن معجزة وإن لم يقولوا عنه كما قال مشركو مكة المقترحون على النبي ﷺ أن يأتيهم بآية كما أرسل الأولون : (أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر) والمستغربون الغافلون يقابلون اعتداء المستشرقين بالاعتداء قائلين : إن معجزات المرسلين الأولين لم تكن جديدة بأن تعد معجزات للأنبياء لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى وإن المفتونين بها الخرافيون والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهد العتيق والجديد . وأنا أقول عنهم « المستغربون » لكونهم صدقوا دعوى الغربيين أن لا معجزة لمحمد غير القرآن بشهادة القرآن نفسه وما ورد في كتب الحديث والسيرة عن معجزاته مكذوب عليه . وأقول عنهم « الغافلون » لكون اعتدائهم المقابل على المستشرقين يتضمن الاعتداء على القرآن أيضا

وقال الشيخ رشيد أيضا : « إن آيات المرسلين لم يؤمن بها ممن شاهدها إلا المستعدون للإيمان بها وإن فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى وإن أكثر بني إسرائيل لم يعقلوها وقد اتخذوا العجل وعبدوها بعد رؤيتها ورؤية غيرها في برية سيناء .

وقال اليهود في المسيح لولا انه رئيس الشياطين لما أخرج الشيطان من الانسان وقالوا ان ابليس يفعل أكبر من فعله ، وقد كان أكثر من آمن بملك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت أنفسهم لما لا يعقلون له سببا وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك . ونقلوا عن المسيح انه قال : « الحق أقول لكم ليس كل نبي مقبولا في وطنه »^(١) وجعل يعنى المسيح القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير هدايته في الناس لا الآيات والمعجائب فقال « من ثمارهم يعرفونهم » ومن استقرأ تواريخ الأمم علم ان أهل الملل الوثنية أكثر اعتمادا على المعجائب من أهل الأديان السماوية ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الأولياء والقديسين أكثر مما نقلوا عن الأنبياء والمرسلين وان أكثر المصدقين من الخرافيين »

وأنا أقول في هذا البيان ايهام ان المعجزات الكونية أظهرها الله على أيدي رسوله عبثا لانها ان تنجح في تأييد رسالتهم ولم تكن خير وسائل الى اقتناع الناس بصدقهم ولو بقدر اقتناعهم بصدق السحرة والمشعوذين والدجالين في دعاويهم فكأن الله تعالى ما أصاب - والعياذ بالله - في اختيار المعجزات لأنبياؤه الا في معجزة القرآن التي تخاطب العقول والافهام مع ان قول الشيخ : « ان آيات المرسلين لم يؤمن بها ممن شاهدها الا المستعدون للايمان بها » يجرى في كل معجزة ولا تعزب عنه معجزة القرآن . فالمعجزة مطلقا لا يؤمن بها الا المستعدون للايمان وهم الذين شاء الله هدايتهم لا الذين قالوا مثلا : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) ولا الذين جعل الله على قلوبهم أكنة أن

(١) الظاهر من هذه الجملة رفع الإيجاب الكلى يعنى ان بعض الانبياء مقبول في وطنه لا كلهم ، مع ان الذين ينقلون هذا القول عن المسيح عليه السلام يريدون السلب الكلى . فلو قال « ليس نبي مقبولا في وطنه » بدون « كل » لكان أوفق بالمعنى المقصود الذى هو عموم النفي مدلولاً عليه بنكرة في سياق النفي . لكن الشيخ أو من نقل عنه أتى بالكل على ظن انه أدل على العموم فأفسد المعنى وقلبه من عموم النفي الى نفي العموم

يفقهوه ولا الذين قال الله فيهم (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به - أى بالذكر الحكيم - وقد خلت سنة الأولين) فشبّه الذين لا يؤمنون بالقرآن بالذين لم يؤمنوا بمعجزات الأنبياء الماضين . ولقد أخطأ الشيخ في احتقار المؤمنين بالأنبياء المتقدمين بسبب معجزاتهم الكونية التي سماها « عجائب » فاستهان بها أيضا ، بأن أكثرهم من الخرافيين ، فكأنه قال آمن بهم السذج ولم يؤمن أصحاب العقول الراجحة مع ان رجحان العقل وخفته يجب أن يوزن بميزان الايمان بالنبي الحق وآياته التي هي آيات الله والاعراض عنه فمن آمن فهو أعقل الناس ومن كفر فهو أجهلهم وأغلبهم الحاصل ان في معجزات الأنبياء عليهم السلام دلالة كافية على صدقهم في دعوى النبوة للذين شرح الله صدورهم للايمان ولا يقدح في قيمة المعجزات ظهور أشباهها الزائفة في أيدي السحرة والمشعوذين ولذا لم يمنع هذا التشابه سحرة فرعون عن الايمان بمعجزة موسى . ولا يقال ان السحرة كانوا عارفين بالفرق بين المعجزة والسحر بفضل معرفتهم بالسحر ولم يؤمن فرعون لعدم معرفته بهذا الفرق المتوقفة على معرفة السحر ، اذ لا عذر له في عدم المعرفة بعدم معرفة العارفين ولان المؤمنين بموسى لم يكن كلامهم سحرة حتى يعذر فرعون بعدم معرفته المعجزة من السحر . والذين ينتقدون الخوارق الكونية من معجزات الأنبياء تارة بحجة انتباسها بأعمال السحرة وتارة بعدم كونها ضامنة لايمان الأمم التي بعثوا اليها فقد تعدوا بالمعجزات حدودها وطالبوا الأنبياء بمعجزات ملجئة لا تتفق مع اختيار المكلفين وتجعل الايمان بالغيب معاينة لا يبقى معها امتياز المؤمن على الكافر بل يضطر الجميع عندها الى الايمان . وليس لنا أن نشترط في نصاب دلالة المعجزة على صدق النبي أن يؤمن به كل من شهد معجزته ، ألا يرى ان دلالة المعجزة على صدق النبي في دعوى النبوة لا تفوق دلالة البراهين العقلية على وجود الله ومع هذا فقد لا تؤثر تلك البراهين في قلوب الملاحدة الضالين . فهل يحد ذلك من قيمتها عند ذوى العقول السليمة ؟

وانى أرى الشيخ رشيد الذى يقيس قيمة المعجزات بمقياس عدد الذين آمنوا بها ثم ينتهى منه الى فشل معجزات الرسل الأولين ، فى غفلة عن الكثرة الهائلة التى نواجهها من اتباع الدين المسيحى الذين تغلبوا فى وجه البسيطة حتى استطاعوا أن يحولوا بين طائفة من علماء المسلمين وكتّابهم وبين دينهم وعقولهم فجعلوهم ينكرون معجزات نبيهم الكونية ويرتابون فى أحاديثه المروية عنه فى كتب الحديث ويطعنون فى قرآنهم على ظن انهم يطعنون فى معجزات الأنبياء المتقدمين مع ان تلك المعجزات فى ضمان القرآن . فبماذا ترتبط بدينهم فى رأى الشيخ تلك الكثرة الهائلة المتغلبة، حتى بعد انقضاء أوان هذا الارتباط بتمت محمد ﷺ ، ان لم يكن لمعجزات سيدنا عيسى وموسى تأثير معتد به فى قلوب الناس ؟

ثم أقول : نحن المعترفون بالمعجزات الكونية نقدر قدر القرآن أكثر مما يقدره منكرو المعجزات غير القرآن . لكن فضل القرآن وتفوقه بين المعجزات لا يوجب انكار كل معجزة غيره بتنزيلها منزلة السحر والشعوذة والدجل أو منزلة أدنى من منزلتها كما فعل الشيخ رشيد . ولم أقل عبثا انا نقدر قدر القرآن أكثر من الذين يظهرون بمظهر أنصار معجزة القرآن ومكبريها للتدفع منه الى الاستهانة بغيرها من المعجزات لان القرآن مشحون بالاعتناء بمعجزات الانبياء الكونية ، فاذا كانت تلك المعجزات لا فرق بينها وبين أفعال الدجالة والشعوذين أو كانت حتى دونها فى التأثير على قلوب الناس ولم يصدقها غير الخرافيين لزم أن يكون القرآن نازلا على وفق أهواء الخرافيين مكبرا لما يكبرونه، وذلك ينقص من قدر القرآن أى نقص . وما ذا هو الفرق بين ما فعل الشيخ رشيد من تنزيل معجزات الأنبياء الكونية منزلة السحر والدجل وبين ما قاله كفار قوم موسى مثالا المحكى فى قوله تعالى : (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى) ؟ وما ذا هو الفرق بين قولهم هذا فى الزمان الماضى وبين قول عقلاء الغرب اليوم ان القرآن كلام محمد لا كلام الله ؟ وما كانت معجزات

سيدنا موسى سحرا لكن من لم يؤمنوا بموسى ادعوا ذلك كما ان القرآن لم يكن كلام
سيدنا محمد لكن الغريبين يدعون انه كلامه ، فهل يحط قولهم هذا من مكان القرآن؟
كلا . فاذن لا يحط ما قاله قوم موسى سابقا وما قاله الشيخ رشيد لاحقا من مكان معجزات
موسى صلوات الله على نبينا وعليه (١)

(١) وجملة القول ان وضع نبينا مع الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ووضع
معجزته مع معجزاتهم في صف الجدال لأهل الكتاب مسلك شديد الخطر وتفریق بين
رسل الله مخالف لمسلك القرآن القائل (لانفرق بين أحد من رسله) فكما ان القرآن
الذي هو معجزة نبينا قول الله تعالى فالمعجزات الكونية الظاهرة على أيدي الانبياء
وفهم نبينا أيضا أفعاله تعالى المؤيدة لهم ، ولا وجه لتفضيل قول الله على فعله فالمفاضلة بين
المعجزات باطراء بعض والخط من شأن ما عداه ليست من شأن العاقل وكل منها أوفق
لزمانه من غيره فمعجزة موسى بالعصا وقعت في عهد رواج السحر فجاءت تفوقه وتبطله ،
ومعجزة عيسى بإبراء الأكمه والأبرص واحياء الموتى وقعت في عهد رواج الطب وهي
ليست من جنس الطب المستند الى التوسل بالاسباب ، ومعجزة نبينا في عصر البلاغة
والتبارى بها وكل ذلك يمثل تفوق فعل الله أو قوله على أفعال البشر وأقوالهم . فاذا كان
في معجزة القرآن فضل على ما عداها من المعجزات فليس ذلك الفرق في أصل الاعجاز
وانما هو في اتحاد المعجزة مع الوحي في القرآن حين كان سائر المعجزات منفصلة عن
الوحي الذي هو المقصود الأصلي من النبوة وكانت المعجزات نفسها أمورا مقصودة لغيرها
وهو تأييد الوحي بآيات كونه من قبل الله

وكذا الحال في موقف الاسلام من النصرانية واليهودية لا تفاضل بينها وكلها دين
الله الذي أمر عباده أن يدينوا به في برهة من الزمان وكل دين في زمانه أفضل من
غيره ولولا ذلك لما اختاره الله لتلك الحين . وملاك فضل الاسلام عليهما أن مضى دورها
وجاء دور الاسلام في محتم الجميع فنسخ الأديان الأولى وبقى الى يوم القيام لاناخذ له

ولقد سلك منكر ومعجزات نبينا غير القرآن مسلكا وعرا جربهم الى القدح في كتب الأحاديث والسير ثم الى القدح في معجزات الأنبياء المتقدمين بل في نبوتهم أيضا . وكان هذا التورط الثانى وقع منهم ملافة للنقص في معجزات نبينا فيجعلون القرآن معجزة وحيدة مطلقا بعد ان جعلوه معجزة وحيدة لنبينا . لكن هذا المسلك الذى يتضمن اعلاء شأن القرآن في الظاهر يخالف مسلك القرآن نفسه ويتضمن قدحا في القرآن أيضا كما بينا من قبل . ونبين هنا وجهاً آخر وهو أن القرآن تحدى بلغاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا ، وهذا التحدى تمسك به

فليس لأحد بعد مبعث محمد ﷺ الى الناس كافة أن يبقى متمسكا بالدين الماضى نائيا بجانبه عن الاسلام الذى هو الدين الحاضر . حتى لو فرضنا فرض الحال ان معجزات موسى وعيسى تفوق معجزات نبينا عليه وعليهما السلام عكس ما أثبتته الشيخ رشيد رضا في كتابه لما كان لليهود والنصارى اليوم الا أن يتبعوا دين محمد ويتركوا دين آبائهم الأولين الذين تقدم عهدهم عهد الاسلام فيكونوا مسلمين بدلا من كونهم هودا أو نصارى اذ لا معنى لكون الانسان يهوديا بعد انقضاء عهد اليهودية أو نصرانيا بعد انقضاء عهد النصرانية، الا اذا لم يكن لمحمد ﷺ معجزة كونية كما هو زعم الشيخ رشيد والدكتور هيكلا ولا غير كونية كما هو زعم اليهود والنصارى

هذا هو القول الأسلم في المقارنة بين الاسلام والنصرانية واليهودية الحقيقيتين من حيث انهما دينان سماويان كالاسلام . اما مقارنة الاسلام مع النصرانية الحاضرة فلا وجه لها أصلا لكونها مقارنة بين الدين السماوى المحفوظ والدين الصناعى المحرف عن أصله وبعبارة أخرى الدين الذى لا يقاوم أمام العقل والنقل ولم تجب معجزات سيدنا عيسى لتأييد هذا الدين المحرف المسعى لأدامته بعد نسخه ومسحه، فلا وجه للمقارنة بينها وبين معجزات نبينا بمناسبة المقارنة بين النصرانية الحاضرة والاسلام ، فضلا عن الاعتداء على تلك المعجزات بهذه المناسبة

الشيخ رشيد رضا وغيره في انكار كل معجزة لنبينا غير القرآن ^(١) وادعوا تفرد القرآن به مع أنه ان ارتفعت الثقة بكتب الحديث والسيرة وكان أصحاب هذه الكتب لم يكتبوها لوجه الحق بل محاباة للاسلام ، كما ادعى ذلك المدعون من المسلمين عند انكار المعجزات الثابتة بالأحاديث ، تأتي لمن شاء من أعداء الاسلام المنكرين لمعجزة القرآن أيضا أن يقول : من الجائز أن يكون في عصر النبي آت من البلغاء بمثل ماتحدى به ثم لم تروه كتب الحديث والسيرة التي لا يؤمن على أنبيائها من الزيادة والنقصان، وليس في الشرق ولا في الغرب مراجع تاريخية لصدر الاسلام غير تلك الكتب، فمن أين ثبت اليوم ان القرآن معجزة تحدث فأعجزت وسلمت من المعارضة ؟ وقد كان فضيلة الاستاذ المراغي قال في مقالته التي نشرتها « السياسة » الاسبوعية و « الاهرام » أيام حدثت فتنة ترجمة القرآن بتركيها وأقامة الترجمة مقام الأصل العربي في الصلاة وغيرها وانحاز فضيلته الى أنصار تلك الفتنة ومروجيها:

(١) نعم ذكر المتكلمون في المعجزة شروطا منها التحدى لكن المحقق الدواني نبه على أنه لا يشترط فيها صريح التحدى بل يكفي قرائن الأحوال. والمقول عندى أن يكون مرادهم من شرط التحدى مقارنة المعجزة بدعوى النبوة أعنى يلزم لأن يعتبر خارق العادة معجزة ظهوره على يد مدعى النبوة تميزا لها عن الكرامة والارهاس ، فلو اشترطنا في كون المعجزة معجزة أن يكون من ظهرت على يديه تحدى بها الناس وطالبهم بالاثبات بثبوتها كما وقع في معجزة القرآن واستدل به الشيخ رشيد على انحصار معجزة نبيانيه وجاء هذا الاشتراط موافقا لأقوال علماء الكلام لزم أن لا يكون لنبينا في جميع مآظهر على يديه معجزة واحدة عند المتكلمين الا القرآن كما هو كذلك عند الشيخ رشيد ! وكيف يكون علماء الكلام متفقين مع هذا الشيخ في انكار ما عدا القرآن من معجزاته إفتقدان شرط التحدى ، في حين أنهم صرحوا بأن الله صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة غير القرآن أن لم تثبت كل واحدة منها عنه تواترا فالقدر المشترك متواتر كجود حاتم وشجاعة علي ، كما نقلناه سابقا من شرح المحقق الدواني للعقائد العنصرية. والتمسك بشرط التحدى ليس الا من مناورات الشيخ اظهارا للمتكلمين في مظهر الاتفاق معه ، فهل هو أعنى الشيخ حين أنكر المعجزات الكونية الظاهرة على يد نبينا أو أيد قول من أنكر فكذب دفاعا عن كتاب هيكلا باشاء، أنكرها لكونها خارقة لسنة الكون أم أنكرها لفقدان شرط التحدى ؟

«ان قراءة الأعاجم للنظم العربى نفسه لا يدلهم على الاعجاز وليس فى استطاعتهم فهمه، والاسم العربىة الآن ومن أزمنة طويلة خلت لا يفهمون الاعجاز من النظم العربى، وقد انقضى عصر الذين أدركوا الاعجاز من طريق الذوق وآمنوا بالقرآن بسبب هذا الادراك ونحن الآن نقيم على الاعجاز أدلة عقلية ونقول ان القرآن تحدى العرب وانهم عجزوا وهذا يدل على انه من عند الله »

وكان الأستاذ فريد وجدى وهو من غلاة منكرى المعجزات بدعوى انها مخالفة للعقل حتى انه ينكر البعث بعد الموت أيضا للسبب نفسه ، كان هذا الأستاذ أنكر اعجاز القرآن بألفاظه ومبانيه فى مقالاته التى كتبها دفاعا عن فتنة ترجمة القرآن وقال « انه لم يتجدد أحدا ببلاغته وانما تحدى الانس والجن أن يأتوا بمثله فى حكمته وشريعته » ^(١) وهذا مع كونه مخالفا لما قاله فضيلة الأستاذ المراغى ففيه ان الأستاذ فريد يعرف ان أمما اسلامية لم تعجبهم شريعة القرآن فاستبدلوا بها شرائع الغرب قبل استبدالهم ألفاظا أعجمية بألفاظه ومبانيه والأستاذ الذى ناصرهم فى تبديل ألفاظه لم يؤاخذهم يومئذ على تبديل شريعته ، فنكرو المعجزات كما يفرقون بين الكتاب والسنة فيدافعون عن الكتاب ويخذلون السنة ، يفرقون بين لفظ الكتاب ومعناه فيتمسكون بمعناه ويخذلون لفظه ويتمسكون بلفظه فيخذلون معناه على حسب ما يقضى هوى التجديد العصرى

ثم ان المتظاهرين بتكريس كل أهمية وكل تعويل على القرآن لثلاث يكثرثوا بغيره ، تراهم يقاومون صراحة القرآن اذا شاء هواهم ذلك كما فعله الشيخ رشيد حين أنكر معجزة شبق القمر التى سيأتى بيانها

وانظر ما قاله الشيخ فى « الوحي المحمدى » بعد التنبيه على كون نبينا لم يتعلم القراءة والكتابة وكون قومه الذين نشأ فيهم أميين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ

(١) وقد نقلت كلا القولين عن الاستاذين فى كتابى « مسألة ترجمة القرآن »

الأمم وعلوم التشريع والفلسفة ص ٤١ — ٤٣

« وترى تجاه هذا (أن موسى عليه الصلاة والسلام) قد نشأ في أعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الأرض وأرقاه تشريعا وعلمها وحكما وفنا وصناعة وهو بيت فرعون مصر ^(١) ثم انه مكث بضع سنين عند حميه في مدين وكان نبيا - أوكاهنا كما يقولون - فمن ثم يرى منكرو الوحي ان ما جاء به موسى من الشريعة الخاصة لشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة ناشئ في بيت الملك والحكمة » ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي ان شريعة التوراة موافقة في أكثر أحكامها لشريعة « حورابي » العربي ملك كلدان الذي كان قبل موسى معاصرا لابراهيم عليه السلام . وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الألمان في حفائر العراق انه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحيا من الله . ولم ينقل ان حورابي ادعى أن شريعته وحي من الله ^(٢)

« ثم يرى الناظر ان سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها وأنهم كانوا يتدارسونها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى فلا يصح أن

(١) وقال معالي هيكل باشا في كتابه ص ٦٦ من الطبعة الثانية : « في مصر نشأ موسى وفي حجر فرعون تربى وتهذب وعلى يد كهنته ورجال الدين من أهل دولته عرف الوحدة الالهية وعرف أسرار الكون » !!

(٢) وأنا أقول في جواب ما ذكره الشيخ من وجوه الظن في نبوة سيدنا موسى ان فرعون الذي نشأ في بيته موسى ادعى لنفسه الألوهية وسيدنا موسى دعا الناس الى عبادة الله فكيف يصح أن يقال انه نشأ في بيت الحكمة والتشريع مع هذا البون الشاسع بين المنشأ والناشئ من حيث الهدى والضلال وهل فرعون حكم فادعى الألوهية أو ادعاها فحكم أي صار حكيما؟ وحكاية حورابي العربي ملك الكلدان وفيها وفي وصفه بالعربي تفضيل ذلك الملك العربي على سيدنا موسى الأعجمي - ان صحت فلا مانع من أن تكون شريعة موسى متوافقة في بعض أحكامها مع نظم حورابي وموسى لم يدع لنفسه الأمية مثل نبينا حتى ينقضها اطلاعه على أحوال الملل وتواريخ الأمم . أما ان موسى كان نبيا ولم يكن حورابي فان العصا التي هي على رغم أنف الشيخ تقطع قول كل خطيب ، ظهرت على عين موسى . والله أعلم حيث يجعل رسالته

يذكر أحد منهم مع محمد ذكر موازنة ومفاضلة ^(١) ويرى أيضا أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا نبأ غيبي ، بل يرى أن عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدرا وأعلامهم ذكرا وأجلهم أثرا لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعا لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها وإصلاح روح أدبي لجمود اليهود المادى على ظواهر ألفاظها. فأمكن لجاحدى الوحي أن يقولوا أنه لا يكتر على رجل زكى الفطرة ذكى العقل ناشئ في حجر الشريعة اليهودية والمدنية الرومانية والحكمة اليونانية غلب عليه الزهد والروحانية، أن يأتى بتلك الوصايا الأدبية. على أن منهم من يعزو جلها الى كونفشيوس المسترع الصينى والى غيره من الحكماء الذين كانوا قبل المسيح عليه السلام . ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذاك وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقليون وألوف منهم ينسبون الى المذاهب النصرانية «

فقد قدح الشيخ فى نبوة سيدنا موسى وسيدنا عيسى وكتايبهما التوراة والانجيل تفصيلا ثم تبرأ منه بما لا يعدله من الاجمال حيث ذكر وجوه القدح ولم يجب عنها وإنما اجترأ بأن يقول « ونحن المسلمين لا نقول هذا ولا ذاك وإنما يقوله الماديون والملاحدة والعقليون » ومعناه أنا لا نقول ولكن ننقل أقوال القائلين ولا نجيب عنها إذ لا جواب لها وهذا هو القدح بعينه ! فالشيخ يقول الملاحدة مالا يستطيع أن يقوله ، ويدل استنكافه عن الجواب على اعتقاداتهم مع عدم استنكافه عن نقل تلك الانتقادات ، أنه يراها واردة . على أنه يرى الناظر فيما كتب الشيخ تحت عنوان « ويرى الناظر » وعنوان « فأمكن لجاحدى الوحي » شيئا كثيرا ينم على أن رأيه لا يبعد

(١) كما أنه ليس فى الحق والعدل مافعله أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بنبي بعد نبيهم من إثارة الشبهة حول نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكذلك لا يجوز لنا أن نذكر أنبياء الملل الذين لا يؤمنون بنبينا بما يثير الشبهة فى نبوتهم كما فعل الشيخ رشيد فلسنا نحن المسلمين كأهل الكتاب لا نفرق بين أحد من رسل الله بل نؤمن بهم عن آخرهم إيمانا لا ينحوم حوله شك الشاكين ولا شبهة المفرقين

عن آرائهم . وحسبك أنه يعنيه انتقاداتهم ولا يعنيه ان يجيب عنها فلو عذاه لأجاب وكيف يجيب والجواب الحامم الذى هو معجزات الأنبياء قد قدح فيها الشيخ قبل القادحين حيث قال أنها شبهة لاحجة على الرغم من تعبير القرآن عنها تارة بالآيات اليبينات وتارة بالبرهان وتارة بالفرقان وتارة بالسلطان وتارة بالحق ، وقد سبق كل ذلك . نعم ان الشيخ قال أيضا ماقال عن تلك المعجزات أنها شبهة لاحجة ، عازيا له الى علماء العصر ، لكن قد عرفت أن هذا الأسلوب من الأعيب الشيخ والافكيف يؤيد بقول علماء العصر هذا ان لم يكن قولهم مقبولا عنده ، مالتزمه هيكل باشا فى كتابه « حياة محمد » من اهل معجزاته ﷺ الكونية ؟

فهيأنا أى عند الكلام مع جاحدى نبوة سيدنا موسى وعيسى الذين أحضرهم الشيخ رشيد أماننا وأحضر معهم مالدتهم من شبهات واحتمالات عن أصل التوراة والانجيل ومأخذها ، وعند توقف ازالة الشبهات والاحتمالات على معجزات ذينك النبيين الجليلين .. عندهذا الموقف الدقيق الذى يعنينا نحن المسلمين بقدر ما يعنى اليهود والنصارى ، يتبين عظم جنائية المستهينين بالمعجزات الكونية المنكرين لأهميتها فى نبوة الأنبياء . فالأنبياء كلهم غير نبينا صلوات الله وسلامه عليهم ، على ما أدى اليه قول الشيخ رشيد مفحومون من جانب جاحدى الوحي ، فان كان عند الشيخ ما يدفع الافحام عنهم ولم يذكره عمدا فهو مع الجاحدين أعداء الأنبياء ، وان لم يكن عنده ذلك فهو مفحوم مع الأنبياء بصفة انه مسلم يؤمن بالله وكتبه ورسله ، بل مفحوم معه نبى الاسلام أيضا بصفة كونه مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل

فيا أيها المتكلمون بلسان الاسلام لاتحدثوا الناس من غير ميزان ولا مقياس فمن أسى ميزات الاسلام على سائر الأديان السماوية انه ضامن لتلك الأديان أيضا فاذا دخلت شبهة فى أصل واحد منها يتأثر الاسلام بها أيضا ولا يسلم من عدواها . فياكم أن تستهينوا بمعجزات الأنبياء عند إكبار معجزة القرآن وتستهينوا بالسنة عند

اعظام شأن الكتاب، فالكتاب لا يتنصل من السنة والقرآن لا يتنصل من التوراة والانجيل . فأنتم تعلمون دعوى اختلاق الشعر الجاهلى بعد الاسلام، ولعلكم تعلمون أيضا ماترمى اليه تلك الدعوى من اثاره الشبهة فى القرآن من ناحية الرواية، بواسطة اثاره الشك فى أمانة الرواة المسلمين مطلقا . وكانت تلك الدعوى قد قويات بضجة فى رأى العام الاسلامى بمصر، ثم ظهر كتاب « الوحي المحمدى » فطمعن صاحبه فى الوحي الموسوى والميسوى وظهر كتاب « حياة محمد » فطمعن صاحبه فى سنة محمد وظهر الطعن فى الطبعة الثانية كل الظهور فلم يحرك كل من ذلك ساكنا فى رأى العام وما أخل برغبة المسلمين لاسيما فى الكتاب الثانى، مع أن صلة السنة بالكتاب وصلة التوراة والانجيل بالقرآن أشد وأقرب من صلة الشعر الجاهلى بالقرآن . والفرق المشهود بين الحالين لايسفر الا عما طرأ على الاسلام بمرور الزمان من ضعف فى الحماسة أو ضعف فى التفكير

وعند كتابة هذه السطور - وأنا ما انتهيت عن الكلام فى الوجه السابع من وجوه النقد على كتاب هيكل باشا أو بالأصح على مقدمة الطبعة الثانية له - اطلعت على العدد الخاص من مجلة « الرسالة » بأول العام الهجرى ١٣٥٨ ورقم السنة هذا منى، لان المجلة كمادتها مؤرخة برقم السنة الميلادية، وقد أعجبنى مما قرأت منها - وما قرأت جلها - قصيدة « قومى بين الشرق والغرب » ومقالة « عندنا غدهم » و « روح العبادة فى الاسلام » و « أعظم يوم فى تاريخ العالم » الا آخر المقالة الأخيرة التى يقول فيها كاتبها الأديب الأستاذ عبد العزيز البشرى :

« وبعد فان بمعجزات عيسى عليه السلام قد ختم هذا الضرب من الحوارق التى تجرى على أبدي الرسل » ثم يقول : « ان معجزة محمد ﷺ تتناز بأمرين: الأول انها لاخلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات »

يا للمعجب ! حتى الأستاذ ابن الأستاذ الأكبر المرحوم سليم البشري من شيوخ الأزهر السابقين يشارك الزاعمين بمصر من الكتاب والعلماء أن لا معجزة لدينا ﷺ غير القرآن ، ولا أظن ان والد الأستاذ رحمه الله يقبل هذا الرأي لو كان حيا ولا أن الأستاذ نفسه يقبل ما يتضمنه وما يترتب على ما يتضمنه من المفسد ولا ما يقصده الزاعمون أو زعماء الزاعمين منه . أما ما يتضمنه وما يترتب على ما يتضمنه فقد أسهبت في ايضاحه لمن كان له قاب أو ألقى السمع وهو شهيد . وأما ما يقصد منه فأقوله هنا :

أرى طائفة عصرية من الكتاب والعلماء بمصر اتفقوا فيما بينهم على حصر معجزات نبينا ﷺ في القرآن . وقد راقبهم هذه الفكرة كأنهم اكتشفوا بها حقيقة خفيت على من سبقهم من علماء الاسلام وعقلائه طيلة تاريخه . وربما انتحلوها من علماء الغرب وعقلائهم أو على الأقل من علمهم وعقليتهم الحديثين ، واني أقول ما سأقوله بصدد الافشاء عن مقصدهم الأقصى ، على انه هو الآخر اكتشاف لي كما ان نظرية حصر معجزات نبينا في القرآن اكتشافهم ، غير أني لم أتجمل ما اكتشفته من الغرب ، وغيرى لا يستطيع الكشف عن مقاصدهم ، فان استطاعه فقد لا يستطيع مجاهدتهم بها

أيها القارئ العزيز ويا أيها الاستاذ عبد العزيز ان عقول الطائفة التي أشرت اليها والتي لا أود أن تكون منها مخطوفة من علم الغرب المادى ، وعهدى بالعقل الذى هو أشرف خلق الله أنه يأتى أن يخطفه خاطف العلم ويأسره أسرته (١) انهم لا يؤمنون بالمعجزة أى معجزة كانت ، لان علمهم المثبت يمنهم ان يؤمنوا بكل ما يخالف سنة الكون، مع ان المعجزة لا بد ان تخالف سنة الكون والا فلا تكون معجزة .

(١) وقد قلنا في الفصل الثالث من الباب الأول (من الكتاب الكبير) المعنون « موقف العلم من العقل » ان العقل اكتشف العلوم وأدركها ولم يدرك العلم بعد ماهية العقل

أما معجزة القرآن فانهم يؤمنون بها لكونها معجزة لاتشبه المعجزة وانما هي كلام أبلغ ما يكون في الكلام ، وهم لا يرون في أن يكون كلام أبلغ من كل كلام ما يخالف سنة الكون كقلب العصا حية واعادة الميت حيا ، كما أنهم يريدون أن يتصوروا نبوة محمد ﷺ على غير ما نتصوره نحن المسلمين القدماء ، ليس فيها ما يخرق سنة الكون وانما عبقرية في الفضيلة والنزاهة والحكمة والهداية الى مافيه سعادة الأمم ، وان شئت فلا تقل عبقرية لما أن فيها شيئا من الخروج على سنة الكون ، بل زعامة فضلى وكال في الزعامة دونه زعامة الزعماء ، انهم يريدون أن يجعلوا محمدا ﷺ زعيما عربيا بـ كل زعيم من كل أمة في الصلاح والاصلاح . وقد سمعوا قول أحد المستشرقين عنه « بطل في صورة نبي » ولا لزوم عندهم لأن يكون محمد الزعيم نبيا ينزل عليه الفينة بعد الفينة ملك يسمى جبريل ويأتى ببلاغ من الله بلفظه ومعناه (١) وهو القرآن المعجز بمراسم ايمائه وانزاله قبل أن يكون معجزا ببلاغته ، لا لزوم لذلك لأن القرآن يكون حينئذ معجزة من المعجزات الكونية التي تنكرها هذه الطائفة الشرقية اقتداء بعلاماء الغرب المنكرين لكل ما يخالف سنة الكون ، ولا أشد مخالفة من انزال ملك على بشر حاملا بلاغا متلوا من الله ومتمثلا على الأكثر في صورة البشر فنكرو المعجزات الكونية من العرب للزعيم العربي الأعظم ﷺ ينكرونها عبثا ان لم ينكروا معها نبوته ورسائله المعروفة المعنى عند المسلمين منذ قرون الاسلام الأول (٢) الا أن تكون نبوة كما عرفها امام الطائفة الشيخ محمد عبده وسبق نقله منا ، ورسالة من نوع رسالة مجلة « الرسالة » وبعض كتابها ولكن من أعلى وأفضل فرد من ذلك النوع

(١) قال الله تعالى (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه)

(٢) ولكون نبوة الأنبياء والذي تضمنته من الوحي الخاص بهم ، مخالفة لسنة الكون التي لا يقر العلم المدعو بالعلم المثبت ما يخالفها ، تلعم معالي هيكل باشا الذي ألف « حياة محمد » بالعلم ، في تأليف وحي محمد صلى الله عليه وسلم بالعلم تلعم كاد يكفر به أى بالعلم في سبيل الايمان بوحيه . وقد أشرنا اليه من قبل . راجع ص ٤١ — ٤٢ من الطبعة الثانية من كتاب حياة محمد

وليس لقائل أن يقول اعتراضا علينا: ولكن ما الضرر من أن لا يكون محمد رسولا مخالفا لسنن الكون إذا فرضنا كونه رسولا طبيعيا موافقا لسنن الكون وفرضنا معه — وهو فرض مطابق للواقع — أنه قام بكل ما لزم أن يقوم به لو كان رسولا غير طبيعي كما يتصور المسلمون الأولون، وأتى بمعجزات لا تختلف عن المعجزات الا في مطابقتها لسنة الكون^(١) وان شئت فقل رسولا انسانيا وغير انساني بدل الرسول الطبيعي وغير الطبيعي وقبل أن نجيب عن هذا الاعتراض الذي أوردنا علينا ، نورد كلمات من مقالة الدكتور زكي مبارك المنشورة أيضا في العدد الممتاز من مجلة « الرسالة » تأييدا لصحة اكتشافنا المار الذكر عن عقلية طائفة من المسلمين بمصر في المعجزة والنبوة المحمدية : قال : « كان محمد انسانا بشهادة القرآن . وبنو آدم يؤذيه أن يتلقوا الحكمة عن رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق^(٢) » وفي غمرة هذه الضلالة نسيت النواحي الانسانية في حياة الرسول والا فمن الذي يصدق ان رجلا مثل محمد يضيع من عمره أربعون سنة بلا تاريخ ، ولأى سبب ينسى الناس أو يتناسون تلك المدة من حياة الرسول ؟ »

(١) وكان الأستاذ فريد وجدي الذي هو من غلاة منكري المعجزات يحاول في الأزمنة الأخيرة ان يصور الاعجاز في رسالة نبينا بما يشبه هذا النوع الطبيعي الذي يكون اعجازه في مبلغه من الكمال المنقطع النظير لافي مخالفته الطبيعة . راجع ما كتبه في مجلة « الأزهر » من المقالات بعنوان « السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة »

(٢) في هذا القول تعريض للمسلمين القدماء الذين يتصورون لنبيهم أحوالا فوق الأحوال الطبيعية كالمعجزات ونزول الملك عليه بالوحى من السماء فكأنهم في زعم الدكتور يصعدون محمدا صلى الله عليه وسلم الى ما فوق البشرية . وهذا ما يعنيه بقوله : « وبنو آدم يؤذيه أن يتلقوا الحكمة من رجل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » . وأنا أقول لا يؤذى المسلمين ان يكون نبيهم بشرا وانما يظن الدكتور ومن في عقلته من المتعلمين العصريين ان تصور النبي كما يتصور المسلمون القدماء بأن ينزل عليه الملك بالوحى من الله وتكون له معجزات تخرق سنن الكون ، يخرجهم من البشرية وينافي انسانته . ومن عجيب المغالطة استشهاد الدكتور على بشرية نبينا بقول القرآن ، كأن هناك من يشك في أنه انسان ، حتى ان الذين عابوه من جهلاء المشركين فقالوا (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) وأراد الدكتور تطبيق عقليتهم بغير حق على المسلمين ، لم يشكوا في كونه بشرا وانما أشكل عليهم نبوة البشر كما أشكلت على الدكتور نفسه

ماذا يريد الدكتور زكي مبارك أن يقول ؟ فهل هو معترض على تأخر اعلان رسالة محمد ﷺ الى مبدأ العقد الخامس من عمره ؟ والا فما معنى نسيان الناس أو تناسيهم المدة التي تقدمت ذلك الحين من حياة الرسول ؟ فكأنه يقول ان حياة محمد الرسول أضرت بحياة محمد الانسان حيث طغت عليها وأنست الناس ما كان له من حياته قبل مبعثه . مع ان الذين كتبوا تاريخه مانسوا ولا تناسوا ما عرفوا من حياته قبل رسالته . لكن مؤرخي الاسلام ليسوا بكتاب الرواية حتى يملأوا فراغ ما يعرفون بما لا يعرفون . والله تعالى يتولى الجواب عن اعتراض الدكتور فيقول لرسوله : (قل لو شاء الله ماتلوه عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) ويقول (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذا لارتاب المبطلون) وهذا الفراغ في حياة الرسول ﷺ قبل رسالته معدود من جملة ماجمل القرآن معجزة

ولعل الدكتور كان يتوقع على الأقل من مؤرخي الاسلام القدماء أن يقولوا عن حياة سيدنا محمد قبل مبعثه انه قضاه في التفكير فيما سيضعه موضع الفعل والتنفيذ من المبادئ كما قال الأستاذ أحمد أمين في مقاله المنشورة في العدد ١٨ من مجلة « الثقافة » بعنوان « محمد الرسول المصلح »

« كم أجهد نفسه في التفكير وأجهد روحه في البحث وكانت عزلته في غار حراء وسيلة من وسائل تفكيره ، وفيه كان يفكر ويطيل تفكيره ؟ في سوء ما عليه العالم وفي سوء ما يعتقد العرب وغير العرب وفي سوء الحالة الاجتماعية في العالم الذي رآه في جزيرة العرب وفي العالم الذي رآه في الشام . قد يكون هذا الفساد واضحا ، ولكن ماهو الحق ؟ وأين الحق ؟ كان هذا هو زمن التفكير ونوع التفكير ثم اهتدى وكان الوحي إيذانا بالهداية . ثم كان له بعد ذلك من الله قوة في التنفيذ لا تبارى » فتأمل وقال الدكتور زكي مبارك أيضا : « كان محمد انسانا قبل أن يكون نبيا »

أقول ان كان هذا كقول بعض المسلمين القوميين أنا عربي أو تركي أو لا ثم مسلم ،
كان استهانة بالنبوة فلو فرض ان رسولا تكلم هذه الكلمة على معنى ان انسانيته أهم
في نظره من رسالته لسقط عن مرتبة النبوة والرسالة كما يسقط عندي من يقول أنا
من القوم الفلاني أو لا ثم مسلم ، عن اسلامه . ثم قال الدكتور : وذلك من أعظم الحظوظ
الذي غنمها في التاريخ . فسيأتي يوم قريب أو بعيد يشور فيه الناس على الأمور الغيبية
ولكنهم لا يستطيعون أن يشوروا على عبقرية محمد »

معناه سيأتي يوم قريب أو بعيد يشور فيه أتباع محمد عامة والعرب خاصة على نبوته
وعلى الدين الذي أتى به ويستغنون عنهما لكونهما من الأمور الغيبية التي لا يصدقها
أهل المصور العلمية ولكنهم لا يستطيعون أن يستغنوا عن عبقريته كزعيم غير ديني ،
فكان عبقريته وبطولته أظهر وأقوى من نبوته كما يدعيه بعض المستشرقين . ولا يخفى
أن قول الدكتور هذا ثورة من الآن على نبوة محمد ﷺ ودينه . فان قال قائل : ان
الدكتور نفسه لا يريد ان يكون تائرا على نبوته ﷺ التي هي من الأمور الغيبية
وانما يقول عن ثورة محتملة يحدثها آخرون في الآتي القريب أو البعيد ، فجوابي عليه
ان المفهوم من كلام الدكتور أنه لا يأمن على نبوته من الثورة كائنا من كان التائر ،
بقدر ما يأمن على عبقريته . ولا ريب في أنه يتم على شك منه أو تشكيك في نبوته ، فكانه
يتعزى بسلامة عبقريته . عند وقوع الثورة على نبوته وكان المطلوب عنده اعتراف
الناس بعبقريته ، ألسنا صادقين اذن في القول بأن طائفة من الكتاب المسلمين
وبعض علماء الدين بمصر لا يؤمنون بالمعجزة والنبوة على معناهما المعروف عند المسلمين
لأسيا وهم يجدون في محمد ﷺ أوصافا عبقرية تؤهله لأعظم زعامة وتغنيه عن النبوة ،
ودعوى النبوة منه كانت عندهم حيلة توصل بها الى اقناع الناس بالاذعان لمبادئه وفيها
مصلحتهم وسعادتهم ان لم يكن في الآخرة التي هي أيضا من الغيبيات غير الآمنة من أن
يثار عليها ، ففي الدنيا . والاحتياال الذي لا يتفق مع النبوة يتفق مع العبقرية . وهكذا

تكون عبقرية محمد مفترقة عن نبوته

فلو قلنا اعتراضا عليهم ان العبقرية لا يمكنها ان تعدل رتبة النبوة وحسبنا في ذلك امكان اتفاق العبقرية مع الاحتيال الذي هو نوع من النفاق ، لكان جوابهم نعم ان النبوة أفضل وأسمى من العبقرية لولا انها من النفيديات التي تثار عليها بأنها أمر لا حقيقة لها ولا وجود الا في مخيلة أهل الدين . فخلاصة كلام الدكتور زكي مبارك ان نبوة محمد لا يمكن الدفاع عنها تجاه الثائرين عليها ما أمكن الدفاع عن عبقريته ، ويكون جوابي على هذا الجواب أن محمدا المبقرى من غير نبوة لا يصير زعيم المسلمين وإنما يصير زعيم العرب ولا جميع العرب بل الذين لا يؤمنون بنبوته . فهو زعيمهم ونبينا نحن المسلمين ، لا زتاب يوما في نبوته ولأننى ندافع عنها وأنا أحقر أمته دافعت عنها في هذا الكتاب لأن نبوته محتاجة الى مدافعتي بل لأنى محتاج الى شفاعته يوم يعلم أيهما أحب اليه ممن هو نبيه أو زعيمه؟ على ان النبوة تتضمن الزعامة أيضا من غير عكس

وقال الدكتور أيضا : « انهم يصنعون بتاريخ الرسول ما صنعوا بتاريخ الأمة العربية . لأنهم أرادوا أن يخضعوا خضوعا تاما للمعجزات فالنبي لم يكن رجلا عبقريا وإنما خصه الله بالرسالة فكتب له الخلود ، والعرب لم يكونوا أمة قوية وإنما ارتفعوا بفضل الرسول »

كنت أعيب على الترك المنتمين الى الانقلاب الذى أحدثوه قبل سنين في تركيا ، انهم لا يعترفون بأى حق وفضل للاسلام على الترك فاذا بي أرى طائفة من العرب الذين انتشر منهم هذا الدين ، لا يريدون الاعتراف بفضل النبي العربى على العرب . وكأن العرب الأحداث يريدون أن يأخذوا اللادينية من الترك الأحداث كما أخذ الترك المسلمون دينهم من العرب القدماء . ان النبي عند الدكتور زكي مبارك لم يكن محتاجا في عبقريته وخلود اسمه الى أن يكون بفضل الله عليه نبيا ، كما لم يكن العرب محتاجين في نهضتهم ورقمهم الى أن يدينوا بالاسلام بفضل الرسول . فلو كانت للنبي عبقرية

من غير نبوة لكفته في خلود اسمه ، ولو كانت للعرب قوتهم من غير دين لكفتهم في رقيهم ونهضتهم تحت زعامة هذا العبقرى العربى بل تحت زعامة أى عبقرى كان . وهذا من الدكتور غاية في النكران بفضل الله على النبى العربى وبفضل الاسلام ورسوله على العرب . فهو أجراً فضولى تمصب لرسول الله بما يُسخط الله وتمصب للعرب بما يُسخط الرسول . لكن القرآن يقول لنبيه رداً على الدكتور : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لمحت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأُنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) وقال عن العرب : (هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)

وحق الأستاذ أحمد أمين يكذب دعوى الدكتور في العرب حيث يقول في مقاله المارة الذكر الممنونة : « محمد الرسول المصالح »

« لقد نشأ في جو خانق وبيئة مضطربة فاسدة وحالة اجتماعية تبعث اليأس ؛ فجعل من الشر خيراً ومن الاضطراب أمناً ومن الفساد صلاحاً . فالعرب قد وهبت نفسها للأصنام ، وجعلت البيت الحرام - الذى بنى ليعبد فيه الله - مباداة لثلاثمائة حجر أو تزيد ، تعبدها من دون الله . ومن تنصر منهم أوتهود فقد تنصر أوتهود بنصرانية أو يهودية فقدت روحها ، وتقسمتها المذاهب والشيع ودخل على تعاليمها الأولى كثير من البدع فلم تنجح فيهم يهودية ولا نصرانية ، والحنفاء الذين ظهر وا قبل الاسلام كان صوتهم ضعيفاً خافتاً ، عجزوا - كما عجزت اليهودية والنصرانية - أن يغيروا شيئاً من حياة العرب وعقلية العرب . ثم كانت حياتهم سلسلة ساب ونهب ، كل قبيلة وحدة بل كل فرع قبيلة وحدة ، وكل قبيلة في عداء مع من جاورها ، لا أمن على الحياة ولا أمن على المال ، لا يفقهون معنى أمة ولا يفهمون معنى الحياة سياسية أو

مدنية، ولا يعرفون معنى لعلم أو فن ؛ فلو أنت قلت ان أحدا من الأنبياء والمصلحين لم يجد من اختلال أمته وفسادها ما وجد محمد من العرب وغير العرب، ماعدوت الصواب»
وانى كنت قرأت قبل أن رأيت مقالة الدكتور زكى أشياء كثيرة عن خصوم المعجزات، فرأيت منهم من يفرق بسبب المعجزات بين الرسل الذين لا يفرق بين أحد منهم، ومن يفرق بين معجزة ومعجزة ، وما رأيت مثل الدكتور من يفرق بين الرسول وبين رسالته ومعجزاته . فمن ذا الذى قال له إن رسالة محمد ﷺ وانسانيته شيان مختلفان بحيث يبحث أيهما بفضله كتب الخلود لمحمد ؟ فالدكتور يكاد يحنق على نبوة محمد واسلام العرب بسبب نبوته لان الناس أفنوا تاريخ انسانية محمد وعبقريته فى نبوته كما أفنوا تاريخ العرب فى الاسلام . فكأنه ﷺ لو لم تكن له معجزاته من عند الله ولم يسلم العرب على يده لكتب التاريخ عن أمة العرب وعن محمد العربى أكثر وأبهر مما كتبه أو على الأقل ما يعدله (١)

فلعل الدكتور تشبع أولا بالدعوى القومية التى تعلمها الشرق من الغرب بعد ان نبذها النبي العربى وسماها دعوى جاهلية، ثم رأى بعض الأبطال القوميين المعاصرين - وانى لعل يقين من أنه لا يعرف زيفهم - من خالصهم - فتمنى لو كان محمد ﷺ كأحدهم ، ولم يصبغ عبقريته بالصبغة الدينية الغيبية ، فلعل مجد العرب كان اذ ذاك باقيا لهم ولم يذهب بذهاب قوة اسلامهم . وهنا يطول الكلام اذا وفى بعض حقه

لكنى أوجز القول فأسأل الدكتور : أكان يكون بيد محمد ﷺ هذا القرآن لو لم يكن نبيا ، فان أجاب بالاجاب يلزمه أن لا يكون مؤمنا بأن القرآن كلام الله أو على الأقل يلزم أن تكون نسبة القرآن عنده الى محمد أصح من نسبته الى الله ،

(١) ومما هو جدير بالاعتبار ان الدكتور على الرغم مما يرى انه من غلاة دعاة القومية يحدث المفاضلة والمنافسة بين نبوته صلى الله عليه وسلم وانسانيته ولا يستطيع أن يحدثهما بين نبوته وعربيته لان سيدنا محمدا نفسه أفنى قوميته فى دينه

ويلزمه أيضا أن يكون القرآن ومنشئه أعنى محمدا كاذبين في دعوى أنه لو اجتمعت
الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله اذ لايجرأ انسان عاقل على
أن يقوم بمثل هذه الدعوى لأى كتاب ألفه ، لان فى امكان البشر أن يأتى بمثل كلام
أحد منهم مهما كان مبلغه فى القدرة على انشاء الكلام . وان أجاب بالنفى ولم يكن
نقصان القرآن عن عبقرية الزعيم العربى خسارة لا تقبل التلافى لزم أن لا يكون الدكتور
مؤمنا بعبقرية القرآن ايمانه بعبقرية محمد . ثم لو لم يكن القرآن لما اعتنى بلغة العرب
وخدمها من خدمها من علماء العرب والعجم تلك الخدمة التى لم تخدم بمثلها أى لغة
أمة فى الدنيا والتى لا يقدرها الجيل الحديث من العرب حق قدرها ؛ بل لو لم يكن
القرآن لما كان بقاء اللغة العربية والعرب الى يومنا هذا مضمونا ؛ وما ظن الدكتور
زكى مبارك بمصر : آل العرب أتوها بالعربية والعروبة أم القرآن والاسلام^(١) ؟

فلا يستطيع عربى عاقل أن ينكر كون عبقرية محمد العربى كلها أو جلها بفضل القرآن
الذى حصل عليه بفضل رسالته من الله ؛ حتى ان المنكرين لمعجزات نبينا ما وسعهم
انكار معجزة القرآن ؛ ولا يكون القرآن معجزة الا اذا كان من عند الله ، ولا يكون
من عند الله الا اذا كان محمد رسول الله بالمعنى المعروف الغيبى للرسالة . وانظر فيما قاله
الدكتور وتأمل جدا : « ان محمدا حرم نفسه الشهرة باجادة البيان وبفضل الكتاب

(١) لاتجد فى العالم لغة من اللغات الراقية الا وقد طرأت عليها تغيرات كبيرة وتطورات بحيث
لا يفهم الجيل الحديث لغة الجيل القديم من نفس القوم أو يستقله ، الا اللغة العربية الفصحى فتجد
ما قبل أو كتب قبل أكثر من ألف سنة من النظم أو النثر العربى كأنه قيل اليوم أو كتب أو أفضل
مما قيل اليوم أو كتب . وهذا بفضل القرآن الذى ثبت على ما كان عليه من لفظه المعجز لم يتبدل
منه ولا كلمة واحدة وبقيت لغة الفصحاء والبلغاء فى كل عصر غير متباعدة عن جاذبية محور القرآن ،
وكان من أثر تبعية الفصحى للقرآن غير متفاداة للتطورات التى يقتضيها الطبيعة البشرية ان اتسعت
مسافة الفرق فى اللغة العربية بين الفصحى الثابتة القرآن والعامية المتغيرة بتغير الزمان وأصبحت
أكثر مما بينهما فى أى لغة أخرى

الذى بلغه عاش البيان (١)

وقال الدكتور أيضا : « وما يجوز عند جمهور المسلمين أن يقال : ان الله خص محمدا بالرسالة لأنه كان وصل الى أسمى الغايات من الوجهة الانسانية ولا أن يقال : ان الله اختار ذلك الرسول من العرب لانهم كانوا وصلوا الى غاية عالية من قوة الروح . » جمهور المسلمين الذين عاتبهم الدكتور لا يجهلون أن الله أعلم حيث يجعل رسالته ، ولكن أدب الاسلام وفلسفته لا يسوغان دعوى الاستحقاق بين يدى الله لأى عبد من عباده وانما يقال ان أثاب فبفضله وان عاقب فبعمله . فان كان ﷺ وصل الى أسمى الغايات من الوجهة الانسانية - ولا ريب فى انه وصل - فقد كان وصوله اليه أيضا بفضل خاص من الله به ؛ وان كان العرب اختار الرسول منهم لانهم كانوا وصلوا الى غاية عالية من قوة الروح ، ولكن هل هو قبل اسلامهم أو مع اسلامهم أو بعده بقليل أو كثير ، وعلى كل حال ان كانوا وصلوا الى غاية عالية فذلك بفضل الله أيضا وقال أيضا وأنا أنقل عنه غير متبع لترتيبه :

« أعتقد ان شخصية النبي محمد لم تدرس حق الدرس الى اليوم فى البيئات الاسلامية »

(١) وانى لأعلق على هذا القول غير تكبير ما كنت قلته فى أوائل الباب الأول (من الكتاب الكبير) عند مناقشة أقوال الأستاذ فرح أنطون منشئ مجلة « الجامعة » ومناظر الشيخ محمد عبده فى الزمان الماضى :

« والى الله المشتكى من الرياء الذى لا يزال الجليل الأخير من الكتاب المتفرنجين ينتقبونه ، مأشفه وما أغلظه ! فلو لم يكن لأهل الدين فخار ولا لهؤلاء عار الا اختلاف الطائفتين فى الاخلاص والرياء لكفاهما ، وهل محجة الكمال التى يأملون أن يصل اليها البشر فى المستقبل ، وهم معاصر العقلاء المتفرنجين قد وصلوا اليها من الآن ، مراآة الناس ومصانعتهم ؟ وهؤلاء المراءون مزيفون أشد وأشنع من المجرمين أهل المهنة المعلومة ، لانهم يزيفون النقود والمراءون يزيفون أنفسهم »

وقول الدكتور زكى هذا يؤيد ما ذكرته سابقا فى مغزى تخصيص معجزة القرآن بالاعتراف من منكرى المعجزات قائلين انها معجزة عقلية انسانية !!

لان المسلمين يجعلونه رسولا في جميع الأحوال فهو لا يتقدم ولا يتأخر الا بإشارة من جبريل ؛ ومعنى ذلك ان شخصية محمد في جميع نواحيها شخصية نبوية لا انسانية « قلت وكأن معنى قول الدكتور هذا ان نبوة سيدنا محمد تنافي انسانيته . ثم قال « يضاف الى هذا ان جمهور المسلمين يعتقدون ان النبوة لا تكسب ، وهم يعنون بذلك انها لا تنال بالجهاد في سبيل المعاني الانسانية وانما هي فضل يخص الله به من يشاء . »

قلت وهو كذلك رغم أنف الدكتور ، لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ثم قال :

« وانما غلبت هذه العقيدة لأن الاسلام نشأ في بيئات وثنية أو خاضعة للعقليات الوثنية ، والرسول لم يشق بين قومه الا لأنه حدثهم بأنه بشر مثلهم ولو انه كان استباح الكذب فحدثهم بأن فيه عنصرا من الألوهية لوصل الى قلوبهم بلا عناء » وأنا أقول هل قوم الرسول الذين شق هو بينهم ولم يصل الى قلوبهم بلا عناء لأنه لم يحدثهم بان فيه عنصراً من الألوهية ، هم العرب الذين كان يقول عنهم الدكتور : « ان الله اختار الرسول منهم لأنهم كانوا وصلوا الى غاية عالية من قوة الروح » ؟ ان المسلمين أيها الدكتور من العرب وغيرهم لو استباح النبي الكذب فحدثهم بان فيه عنصراً من الألوهية لما آمنوا به نبيا بله إيمانهم به على ان فيه شيئا من الألوهية . ولا مناسبة أصلا بين عقيدة المسلمين أن النبوة فضل من الله يخص به من يشاء من عباده ، التي هي عقيدة التوحيد الخالص وبين عقليات وثنية تتصور في النبي عنصرا من الألوهية

الحق ان المسلمين وأعني بهم ما يعنى الدكتور بجمهورهم ممن كانوا على مذاهب الاثمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والذين أخذوا تلك الاثمة منهم ومن (١٠ — القول الفصل)

كانوا على مذهب أهل السنة والجماعة مثل الأشاعرة والماتريدية ومعهم كثير من غيرهم ما أنكروا في أى وقت من الأوقات كون النبي انسانا ؛ وانما الطائفة العصرية المارة الذكـر ينكرون أن يكون الانسان نبيا يأتيه وحى من الله على طريقة خاصة معاومة عند أنبياء الله الذين نعرفهم بأسمائهم المذكورة فى القرآن ، وربما يأتيه ملك أو ينزل عليه كتاب أيضا . وهذا مراد الدكتور مما عبر عنه بعنصر من الألوهية غير مصيب فى تعبيره ، وانما الدكتور ومن فى عقليته يعتبرون النبوة الحقيقية عنصرا من الألوهية ويزعمون انها لا تأتلف مع البشرية . (١) وهى عقلية قديمة جاهلية كانحها القرآن فى كثير من آياته كقوله (وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء) وقوله (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق) وقد سبق أن الدكتور طبق هذه الآية بغير حق على الذين يخالفهم من المسلمين فى العقيدة ، مع أن الآية تنطبق عليه نفسه ومن على شاكته كما نهينا اليه فى محل تطبيقه أيضا . فالرسول لم يشق بين المسلمين حين حدثهم بأنه بشر مثلهم ، كما أنه ما استباح الكذب عند ما حدثهم بأنه نبي يأتيه وحى من الله ، والذين يتصورون المناقاة بين الحالتين من الجاهليين القديين والحديثين لم يكن خطأهم فى أنهم ما قدروا النبي حق قدره فحسب بل أصل اخطائهم أنهم ما قدروا الله حق قدره كما نبه عليه القرآن الحكيم لأنهم بانسكارهم النبوة المعروفة عند المسلمين أنكروا قدرة الله على ارسال الرسل وانزال الكتب وانظر قول القرآن الحكيم أيضا : (قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) والله تعالى أذن لاتصال الانسان به بأن خلق فيه العقل والادراك حتى زعم « بلوتن » الاسكندري ان الانسان يتحد

(١) حتى ان النبي الذى لم يستبح الكذب حين قال لقومه انه بشر مثلهم استباحه عند الدكتور حين قال لهم انه نبي بالمعنى المعروف الذى يتوهم الدكتور أن فيه عنصراً من الألوهية وحين قال ان القرآن كلام الله لا كلامه ، انظروا الى قوله السابق « ان محمدا حرم نفسه الشهرة باجادة البيان الخ » تجدوا فيه تصديق ما أقول

مع الله عند ادراك أى شىء من الأشياء وقد تقدم بحثه (فى الكتاب الكبير) عند النظر فى الفلسفة الحسابية فى آخر الفصل الأول من الباب الأول . فالله الذى خلق العقل وجعله صلة بينه وبين الانسان من غير أن يخرج من البشرية على خلاف زعم « بلوتن » قادر أيضا على أن يجعل بينه وبين من اصطفاه من عباده صلة أخص من صلة العقل وينزل عليه وحياً أوضح من وحى العقل من غير أن يخرج أيضا من البشرية على خلاف زعم الدكتور زكى وأمثاله

هل يجوز أن تكون النبوة مكتسبة

فالنبى انسان له اتصال خاص بالله تعالى فوق الاتصال الذى يحصل لكل عاقل عند تعقل ربه بالنظر فى أدلة الكون فيأتيه وحى منه ويكون إيحاًؤه اليه فوق الهام العلوم العالية للعلماء والمشروعات العظيمة للمعطاء . فهذه المرتبة الانسانية هى التى لا تكتسب وتمتاز بكونها فضلاً من الله خاصاً لمن يصطفيه من عباده ، والتى يفيض الدكتور زكى مبارك أن تكون كذلك . وليس هو أول من دارت هذه الفكرة فى خلد (١) ونحن بفضل الله . نبين المحاذير المترتبة على كون النبوة مكتسبة :

فأولاً يلزم على هذا التقدير ان لا يكون محمد ﷺ خاتم النبيين ، رغم كونه منصوصاً عليه فى القرآن ، لأن باب الاكتساب يلزم أن يكون مفتوحاً لكل طالب من أمة محمد وغيرها ، حتى انه يلزم أن يكون فى امكان الدكتور زكى مبارك مثلاً أن يعد نفسه من المرشحين للنبوة وأن يحصل عليها كما حصل على الدكتوراهات

(١) لم أرد بقولى هذا موافقة الدكتور على مقاله من أن جمهور المسلمين يعتقدون أن النبوة لا تكتسب ، اذ المفهوم منه ان فى المسلمين من يفرق عن الجمهور ويقول بالنبوة المكتسبة ، بل فى تسميته النافين للنبوة المكتسبة « بالجمهور » اشارة الى انهم عامة المسلمين والقائلين بخلافه خاصتهم مع ان القول بالنبوة المكتسبة لا يمكن الا أن يكون قول من لا يؤمنون بالنبوة الحقيقية المعروفة فى الاسلام وفى سائر الأديان السماوية . نعم سمعت بعد مجئى الى مصر ان الشيخ جمال الدين الأفغانى اتهم بهذا القول فى الاستانبول وكانت صحة التهمة غائبة عنى منذ سمعت حكايتها ، فهل للدكتور زكى

وثانيا لو كانت نبوة سيدنا محمد مكتسبة كما يريدون أى عبقرية وبطولة مجردة عن الغيبيات كان ﷺ - وحاشاه أن يكون - كاذبا فى اسناد القرآن الى الله والكذب مهما تصور العقل المصرى اثتلافه بالعبقرية والبطولة فالحق عندى كونه مخلا بهما أو على الأقل مخلا بكاملهما كما أنه مغل بالنبوة

وثالثا لم يكن منشأ اعتقاد المسلمين أن النبوة لا تكتسب هو العقلية الوثنية التى ورثوها من آباءهم كما ادعى الدكتور اذ لم يتخذ المسلمون نبيهم إلها ولم يعبدوه فى وقت من الأوقات وليس فى عقيدة كون النبوة مرتبة تفوق مراتب الحكماء والعظماء العباقرة من الناس ولا تنال الا بفضل من الله واصطفاء خاص وتكون علامة هذا الاصطفاء من الله ما يظهره على يد النبي من خوارق نسميها معجزات . ليس فى هذه العقيدة وفى تلك المرتبة شىء من الوثنية أو الألوهية للنبي وانما النبي يكون بهذه المرتبة عبد الله الخاص حتى اذا أتاه ملك من الله لانزال الوحي فليس هو أيضا الامن عباده المكرمين . ومنشأ السعى لجعل النبوة مكتسبة من الساعين عدم الايمان بالنبوة الحقيقية التى عرفناها واستكثرت تلك المرتبة للبشر حتى رموا عقيدة النبوة الحقيقية بالمقيدة الوثنية كما استكثر اخوانهم المتقدمون من جهلة أقوام الأنبياء فقالوا (إن أنتم إلا بشر مثلنا) . فريد دعاة النبوة المكتسبة أن يجعلوا النبوة ملكا مشاعا بين

مبارك علم ، عوقف الشيخ جمال الدين من هذه المسألة ؟ والا فمن ذا الذى شذ عن جمهور المسلمين عند الدكتور وقال بالنبوة التى تكتسب والتى يفهم ان الدكتور نفسه يفضلها على النبوة فى مذهب الجمهور ؟

واذا كان اسناد القول بأن النبوة تكتسب الى الشيخ جمال الدين الأفغانى صحيحاً فتعريف النبي الذى نقلته من قبل عن كتاب الشيخ محمد عبده تلميذ الشيخ جمال الدين يرمى الى هذه النبوة المكتسبة على الرغم من كون ظاهر كلام الشيخ التلميذ فى التعريف بأبائها حيث بنى أمر النبي المعروف على الجبلة والفطرة ، لان امتيازها فى الجبلة والفطرة غير مناف للاكتساب بل انه يسعى لاكتساب النبوة ويحذف من فطرته الممتازة عوناً له فى اكتسابها . ولا يعقل ان يكون للشيخ التلميذ قول ثالث فى النبي غير النبي الحقيقى وغير النبي الزائف المكتسب

المجتهدين في استجباع الأوصاف اللازمة لارشاد الناس واقتيادهم الى مافيه خيرهم وصلاحهم . ولا يظن ان المقصود من رغبتهم في أن تكون النبوة مكتسبة محاولة فتح الطريق امام المستعدين لاحراز مرتبة النبوة من الناس العاديين ، بل المقصود تنزيل الأنبياء الى درجة الناس العاديين بتجريدتهم عن المعجزات وغيرها مما يخالف سنة الكون

ورابعاً ، بماذا يعلم أن الساعى لا اكتساب منصب النبوة قد بلغ مسعاه وأصبح نبيا من أنبياء الله ؟ بماذا يعلم الناس ويعلم هو نفسه قلمهم ؟ وليس لنبوته علامة يقتنع بها في نفسه كنزول الوحي ولا علامة تقنع الناس مثل ظهور معجزة على يده ، لأن أنصار النبوة المكتسبة لا تعجبهم الأمور الخارجة عن سنن الكون ، وقد قلنا ان النبوة نفسها بالمعنى الذى نريده معجزة خارجة عن سنن الكون فلهذا لا تعجب الذين لا يعجبهم المعجزات . وقد يكون أساس الخلاف في مسألة النبوة والمعجزة أعمق من هذا : وهو ان الدين يستند الى الأسرار والغيبيات ، ولهذا جعل الله تعالى في رأس أوصاف المهتدين بهدى كتابه ، الايمان بالغيب فقال : (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ومن شنيع الخطأ أن يحمل الغيب على مايقابل الواقع كما فعل الأستاذ فريد وجدى في إحدى مقالاته في « مجلة الأزهر » وقد سبق قلته ، بل المراد به ماغاب عن الحاسة كاللائكة والجن والوحي وأحوال الآخرة من البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب قبل وقوعها ، وكالمعجزات في كيفية وقوعها غير مستندة الى الأسباب الطبيعية . وأعظم الغيبيات الله سبحانه وتعالى

فالنبوة اتصال الانسان بهذه الغيبيات التى لا يحيط بها نطاق الطبيعة . ومن هذا قال « استوارت ميل » من لا يؤمن بوجود فوق الطبيعة ولا بتدخله في شئون العالم لا يقبل فعل انسان خارق للعادة على أنه معجزة ويؤوله مطلقاً بما يخرج به عن كونه معجزة »

وخامسا من أهم الفروق بين النبي الكاسب والنبي الموهوب له أن الأول يخطئ ويصيب والثاني لا يخطئ أبدا فيما بلغه عن الله ، وإن أخطأ في اجتهاده فلا يستقر على الخطأ من دون أن ينبه عليه . والدكتور زكي مبارك أطلق القول ورماء على عواهنه من غير تمييز بين الأحوال المختلفة فقال : « كان محمد في سريرة نفسه انسانا يخطئ ويصيب بدليل ماوجه اليه من اللوم والعتاب في القرآن »

وسادسا ، النبي الحقيقي المعصوم عن الخطأ المؤيد بالوحي والمعجزات التي هي علامات رسالته من الله وامتيازه على الناس ، للناس حاجة اليه ليهتدوا بواسطته الى الطريق التي يحب الله ربهم أن يسلكوها والى نوع العبادة التي بها يعبدونه . وليس لأحد غير هذا النبي أن يعين بالضبط تلك الطريق وذلك النوع مهما كان مبلغه من العلم والحكمة فالعلماء والحكماء يمكنهم أن يضعوا للناس مناهج الأخلاق ومبادئ الأفكار ويعينوا لهم وظائف نحو الخالق والخلق ولكن لا يكون أى واحد من هذه المناهج والمبادئ دينا . وانما الدين يأتي من الله ويبدأ بالنبي كما قال العالم الكبير مترجم « المطالب والمذاهب »^(١) فلا دين قبل مبعث النبي ولا يوجد دين فلسفي وإن وجدت فلسفة دينية . فاذا جاء نبي وأعلن الدين فليس لأحد أن يستغنى عن الاعتراف به ، فهو كقانون الدولة يطيعه العامة والخاصة . وما ادعاه الأستاذ فريد وجدى في كتابه « الاسلام دين عام خالد » ان علماء الغرب غير محتاجين الى الاهتداء بهدى الشرائع المنزلة بحجة انهم أنفسهم واضعو الشرائع والمذاهب . مبنى على مذهب النبوة المكتسبة اللادينية وانكار النبي الحقيقي المبعوث من قبل الله الذي يكون وضع الدين من

(١) كتاب جليل في تاريخ الفلسفة للفيلسوف الفرنسى « پول ثرانه » ترجم قسم ما وراء الطبيعة منه الى اللغة التركية هذا العالم الكبير التركى الملقب حمدى الصغير الذى قلما كان يوجد مثله فى عالم الاسلام والذى فجعت نبأ وفاته قبل أشهر ولقد مات رحمه الله غريبا فى بلاده حيث لم يبق لها اليوم علاقة بمثله من علماء الاسلام ومن الغرب المؤسف ان مصر لم تتعود معرفة نوابغ العلماء من غير أهلها لاسيا الترك

اختصاصه فقط . فعلماء الغرب حتى الالهيون منهم الذين لا يعترفون بالانبياء والذين يهملون في فلسفتهم مبحث النبوة لادينيون على الرغم من أن لبعضهم أفكاراً عالية في الالهيات . وقد ذكرت في أوائل الباب الأول من الكتاب الكبير ان لكون دينهم الرسمي النصرانية أثراً في إهمالهم مبحث النبوة لأن النبوة في هذا الدين أخرجت عن ماهيتها الأصلية ولُبست بالالوهية فأضيعت معقوليّتها . ومع هذا كان واجبهم البحث والتفكير في مسألة النبوة على إطلاقها ولا يعذرون في السكوت عنها لما نفع خاص لنبوة سيدنا عيسى عند المسيحيين ، لاسيما والدين السماوي في الدنيا لا يبتدىء بالدين المسيحي فله تاريخ قبل المسيحية وأنبياء قبل المسيح . فإذا قول فلاسفة الغرب في نبوة هؤلاء الانبياء التي لا تشبه نبوة عيسى عليه وعالمهم السلام والتي يلزمهم ان يصدقوها ان لم يصدقوا نبوة محمد ﷺ بالغيرة المسيحية ، فإذا قولهم في تلك النبوات وماذا موقفها في فلسفتهم ان لم يكن محل في الفلسفة لنبوة المسيح على الشكل الذي يتصوره المسيحيون ؟ فلو نظروا في نبوات الانبياء ودرسوها لاعطاء حقها في الفلسفة بعد الفلاسفة الالهية لكانوا أدوا واجبا من واجباتهم ، وربما أصاحوا بفضل درسها مائلاً على نبوة المسيح في عقيدة النصرانية من الغلو الفسد للنبوة والالوهية معا . فيظهر أنهم رأوا أنفسهم في حالة الاضطرار بين رفض المسيحية الحاضرة وانتقاد النبوة أو رفض الجميع أو إهماله الذي هو الرفض أيضاً لكنه في رفق وهوادة ، فاختاروا الأخير . فلو كان دين فلاسفة الغرب الالهيين الاسلام لما وقعوا في هذا المأزق ، أو لو كانوا مستغنيين عن اتباع شرائع الانبياء كأنهم أنفسهم ليسوا دون الانبياء كما ادعى الاستاذ فريد وجدي . لما أحجموا عن المصارحة في احقاق الحق وابطال الباطل كما هي دأب الانبياء

هذا حال الفلاسفة الالهيين في الغرب الذين لا معنى لعدم اعترافهم بوجود رسل الله بعد الاعتراف بوجود الله غير المعنى الذي ذكرته . أما الأساتذة المعصريون منا

ففيهم من يقلد ملاحدة الغرب الماديين ولا يعترف بوجود الله ، والمترفون به لا يعترفون علميا فيفترقون عن الالهيين الذين يعتبرون مسألة وجود الله في رأس المعلومات المثبتة كما سبق قول العلامة « باستور » في ذلك وقول الفيلسوف الكبير « ديكارت » : « ان الله مبدأ العلم كما أنه مبدأ الوجود » ويقلدون الالهيين في مسألة النبوة فلا يعترفون بالأنبياء مع وجود الفارق بين موقفهم وموقف الذين اقتدوا بهم . فكل تعلمهم وتعلمهم في مبحث النبوة كانكار المعجزات مطلقا تحت ستار انكار المعجزات الكونية وميلهم الى النبوة الكسبية أو النبوة الانسانية التي لا تخرج على الطبيعة ؛ كل ذلك منشأ عدم الاعتراف بالأنبياء مع الظهور في مظهر الاعتراف . اذ لا معنى للقول بوجود الأنبياء مع تجريدهم عن المعجزات ؛ وقد عرفت معنى اعترافهم بمعجزة القرآن ، فلو كانوا صميميين في القول بوجود الأنبياء لما فرقوا بين معجزة كونية وغير كونية الى حد الطعن في معجزات الأنبياء المتقدمين من أجل انها معجزات كونية والطعن في سنة محمد ﷺ المضبوطة في كتب الحديث للاحتفاظ بسنة الكون ، وهذا خلط منهم للمذهب الالهى بالمذهب المادى ورجعة الى النزعة الالحادية بعد الاعتراف بوجود الله وأنبيائه ؛ فلو أن القائلين بوجود الله من فلاسفة الغرب اعترفوا بوجود الأنبياء لما ترددوا في الاعتراف بمعجزاتهم كونية وغير كونية ، اذ لا مانع بعد القول بوجود الله من تدخله في الكون واحداث تغيير وقتى في سنته لتأييد أنبيائه

فنحن لا نرى فرقا بين انكار الأنبياء بقاء وبين الاعتراف بهم مع انكار معجزاتهم التي تتعدى حدود نظام الطبيعة والتي هي طوابع رسالتهم من الله المسيطر على الطبيعة ونظامها . والذين ينشدون أنبياء طبيعيين فكأنما يريدون أن تكون رسالتهم من الطبيعة لا من الله ، انظر قول الدكتور طه حسين بك في مقالته النفيسة المنشورة في مجلة « الثقافة » بعنوان « القلب الرحيم » ؛

« وما رأيت أعجب من أمر محمد (ص) فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء رجل كان يطالبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات فيتبرأ منها ويعان اليهم انه بشر مثاهم^(١) وانه لم يرسل ليهر العقول بالاحداث العظام ، وانما أرسل ليتلو على الناس قرآنا يتحدث الى عقولهم فيملأها هدى ويتحدث الى قلوبهم فيشعرها رحمة وبراً ، ثم لا يخلو أمره من هذه المعجزات التي تبهر العقول وتسحر الأبواب دون أن تحدث في طبيعة الاشياء حدثاً أو تتجاوز بعبادات الناس الجارية طريقها المألوف ، انما هي معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيرة ويراها المفكرون نادرة باهرة ومقنعة مفحمة للمكابرين »

فكانه يتعجب من أمر محمد ﷺ في كونه نبيا لا يشبه الأنبياء وفي كون معجزاته لا تشبه المعجزات ولا تخرج عن مألوف العادات^(٢) وهذا أوضح تعريف للنبي الطبيعي يذكره كتابنا المصريون ميزة لنبينا على غيره من الأنبياء ويسوقونه في صدد المدح ، فكان النبوة كانت على خلاف الطبيعة في الأنبياء حتى أصبحت في نبينا طبيعية . لكن عيب المخالف للطبيعة عندهم انه مستحيل الوقوع وهو يتضمن الطعن في نبوة غيره من الأنبياء طعنا لا يرضاه الاسلام لكون نبوتهم مكفولة من القرآن . وفضلا عن ذلك فان هذا الطعن وذاك المدح انما يكونان طعنا ومدحا على مزاج الملاحدة الماديين القائلين باستحالة ما يخالف سنة الطبيعة؛ حتى اذا سمعه المستشرقون المسيحيون انقلب القدح في نظرهم مدحا والمدح قدحا واعترافا من كتاب المسلمين بعدم كون محمد ﷺ نبيا ، لان النبي الحقيقي لا بد أن يكون له حالة يضيق عنها نطاق الطبيعة وتمتداهها الى ما فوقها لتكون علامة رسالته من الله ويكون الذين يتبعونه على بينة من

(١) سنجيب عنه

(٢) وكان معجزاته ما يعبر عنه عند الأدباء بالسهل المتنع كاسلوب الدكتور طه حسين بك

في كتاباته !!

من أمره . وما دامت هذه الحالة ممكنة للنبي باذن الله في نظر المعترفين بوجود الله فماذا السبب الدافع للعصرين الى التزام تجريد النبي عن تلك الحالة انمينة ؟ ولا يقال ان أفعاله المصلحة ونتائجها الصالحة تكفيانه ميزة وعلامة . وهذا هو السؤال الذى أوردته على نفسى قبيل الشروع فى انتقاد أقوال الدكتور زكى مبارك ، ثم لم أذكر جوابه والآن أذكره : وهو ان الصلاح والفساد كثيرا ما يختلفان باختلاف الانظار ، فالحكم القطعى بصلاح الافعال ونتائجها يتوقف على معرفة ان فاعلها مصاح حقيقى ونبي من أنبياء الله ، فلو توقفت معرفة كونه نبيا أى مصاحا حقيقيا على تبين الصلاح فى أفعاله ونتائج أفعاله كان دورا . وفضلا عن هذا فان بُعد ما بين المشروعات ونتائجها يقتضى فى الأكثر مرور أزمنة طويلة قد يظهر فى آخرها أن القائم بدعوى الاصلاح كاذب فى دعواه . فيجب على الناس أن يكونوا من أول أمرهم مع مدعى النبوة الذى يتولى هدايتهم الى الدين الحق ، على بينة من صدقه فيما ادعاه

فالقاعدة المتخذة للناس مع النبي الحقيقى المرسل اليهم من قبل الله أن يبحثوا فيه عن علامة من الله تدل على رسالته اليهم ، وهذا مما لا يجوز أن يشك فيه العاقل ان كان لله رسل وأنبياء حقيقيون وكانت للناس حاجة الى وجودهم . فهل هم موجودون ، وهل للناس حاجة اليهم ؟ فلننظر الآن فى هذه المسألة وبالنظر فيها نكون قد أدبنا الواجب الثانى من الواجبين الرئيسيين اللذين تولينا القيام بهما فى الكتاب الكبير مستعينين بتوفيق الله سبحانه وتعالى وذاك الواجب الثانى هو اثبات وجود أنبياء الله

اثبات وجود الأنبياء

وجود الأنبياء ان لم يكن ضروريا - كما قلنا فى أول هذا الكتاب الصغير الذى كان الباب الثالث من الكتاب الكبير - كضرورة وجود الله فى ايضاح فلسفة العالم بجميع أجزائه ؛ الا أن للنبوة أيضا أهمية فى ايضاح فلسفة الانسان الذى هو جزء

من أجزاء العالم، أهمية تجعلها جديرة بأن تعد من المطالب الفلسفية ، ولا شك أن النبوة إنما تتصور بعد مطلب الألوهية وتنبئ تماما على الاعتراف بوجود الله فإذا كان الله موجودا وهو خالقنا وخالق كل شيء كان أول واجب الانسان التفكير في أن خالقه لا يتركه سدى ، لاسيما وقد خلقه ممتازا على سائر خلقه بالعقل والارادة فيلأتم عقله الذي به وجد ربه واستدل على وجوده كل الملائمة أن تكون عليه واجبات تنجاء من خلقه . لكن العقل لا يستطيع تعيين هذه الواجبات بالضبط والتفصيل لاعقل أحد يفكر في نفسه ولا عقول العلماء والحكماء الذين يختلف آراؤهم ومذاهبهم في تعيين الحق والباطل والخير والشر ^(١) فلا يدري أيها يوافق مرضاة الله من تلك الآراء والمذاهب المختلفة . ولا يصدق العقل أن يكون الحق والصواب في رأى الكثرة لأن هذه طريقة برلمانية لاتغنى من الحق شيئا ، ألا يرى أن التحقيق والترجيح في المسائل العلمية لا يبنى على عدد الأصوات والآراء . ولو استقر القرار على أن يعمل كل انسان بما يؤدي اليه فكره واجتهاده كان فوضى . ففي وسط هذه الحيرة والتردد يحس الانسان من صميم قلبه الحاجة الى رسول من عند ربه يسدد خطاه ويبلغه أوامره ونواهيه ، فهو وحده يكون كمنسوب رسمي من جانب الملك يحمل مرسومه من بين المندوبين من تلقاء أنفسهم

ومهما كان يوجد في غير حامل المرسوم من هو أهل أو بالأصح من يرى نفسه أهلا لأن يقوم بما عهد الملك الى حامل مرسومه أن يقوم ، فلا يعتبر مندوب الملك ولا يجب على الناس أن يعترفوا به مندوبه ؛ فكذلك النبي الذي يراه منكرو المعجزات

(١) ومن هنا يرد اعتراض قوى على تعريف النبي بما عرفه الشيخ محمد عبده وقد نقلناه سابقا من أنه انسان فطر على الحق علما وعملا أى بحيث لا يعلم الا حقا ولا يعمل الا حقا ؛ فيقال من أين يعلم وبأى شيء ثبت كونه لا يعلم الا حقا ولا يعمل الا حقا ، فثبت هذا إنما يكون بتجربة حياته من أولها الى آخرها ثم اتفاق الآراء على تصديقه في كل ما يعلم وما يعمل أو بثبت كونه نبيا والأول غير ممكن والثاني مستلزم للدور

في غنى عن تأييد نبوته بالمعجزة الخارقة لسنن الكون والذي لا يجاوز به معرفوه
المصريون الى ما فوق العبقرى في الصلاح والاصلاح والكمال والتكميل لئلا يبلغوا
بميزته الى ما وراء السنن الكونية ؛ فهذا النبي لا يكون نبي الله ورسوله رسميا كرسول
الملك الحامل لرمزه لأن رمز الله ووسامه على رسوله هو معجزته الخارقة لسنن الكون
الطبيعية والتي لا توجد عند النبي الطبيعي ولا عند صاحب النبوة المكتسبة . وكل ما عدا
المعجزة ليس برمز للنبي الحقيقي مهما أعظمه الكتاب المصريون ، فهم على الرغم من
انهم يكتبون في النبي وحياة النبي لا يعرفون موضوع ما يكتبون أو يحيدون عنه
عمدا ^(١) لأن الكلام فيمن بعثه الله الى الناس كما بعث الملك مندوبه وعامله ^(٢)
مع ان الذي يقدمه أولئك الكتاب لنا على انه نبي الله ليس بنبيه الحامل لرمزه الرسمي
وانما هو من يرونه أهلا لأن يكون نبي الله كالذي يراه بعض الناس أهلا لان يكون
مندوب الملك وليس بمندوبه فعلا . وكذلك من يرشحونه للنبوة من غير معجزة ومن
غير أمر من الله أتاه بطريقة مخصوصة تختلف عن طريق ما يأتي العاقل العبقرى من
عقله ، لأن هذا الرسول رسول عقله لا رسول الله وان كان العقل أيضا رسولا من الله
في الانسان ، فذلك العبقرى اذن رسول رسول الله لا رسول الله مباشرة وبطريقة

(١) فهل أولئك الكتاب يكتبون حياة محمد صلى الله عليه وسلم ليؤمن الناس بأنه عظيم من
عظماء البشر أو بأنه نبي من أنبياء الله ؟

(٢) وكل ما يأتي به النبي من الأفعال الطبيعية العظيمة غير المعجزة ويعجب المصريين أكثر من
المعجزة فهو لا يصلح ان يعتبر رمزا قطعي الدلالة على انه نبي الله لكونه من جنس ما يفعله البشر مهما
كان مبلغه من الخطورة . وقد قرأنا بكل استغراب في « مجلة الأزهر » من الأستاذ فريد وجدي
انه كان يحاول ان يستخرج من انتصار أهل بدر على قتلهم البعيدة عن كثرة المشركين معجزة ويترك
المعجزة الحقيقية التي نطق بها القرآن من امداد المسلمين بألاف من الملائكة وتقليدهم في أعين المشركين
أولاً ثم آراءهم مثلهم رأى العين واليه يشير قوله تعالى (واذا يريكمهم اذ التقيم في أعينكم قليلا
ويقللهم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا) وقوله (قد كان لكم آية في فتنين النقتاة تقاتل
في سبيل الله وأخرى كفره يرونهم مثلهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء)

خاصة ، حتى ان مدعى النبوة من مثله بالاضافة الى الله يكون كاذبا في دعواه وحتى ان الانبياء المعلومين بأسمائهم صلوات الله وسلامه عليهم وفيهم نبينا ﷺ لو كانوا أنبياء كما يتصور الكتاب المصريون ويعجبون به لزم أن يكونوا كاذبين في دعوى النبوة وأن يكون كذبهم معلوما عند هؤلاء الكتاب لأن ما ادعاه الانبياء لانفسهم ليس من جنس ما يتصوره هؤلاء لهم ويعجبون به منهم . فإذا يقولون فيما بلغه نبينا صلى الله عليه وسلم عن الله قوله مثلا (كتاب أنزلناه إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكري للمؤمنين) وقوله (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) هل عندهم نزل على النبي كتاب من الله كان يقرأه الله على النبي والنبي يتبعه في قراءته ؟ كتاب يتوعد الله من قال عنه (ان هذا الا قول البشر) فيقول : (سأصليه سقر وما أدراك ما سقر) بل يتوعد فيه نبيه قائلا : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) (كتاب أحكمت آياته ثم فصات من لدن حكيم خبير) كتاب اذا قال الذين لا يرجون لقاء ربهم أئت بقرآن غير هذا أو بدله يقول النبي (ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع الا ما يوحى الى انى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون)

هل نزل عليه حقيقة كتاب من عند الله ؟ فان كان نزل ولم يكن النبي كاذبا في اسناد هذا الكتاب الى الله وحاشاه أن يكون كاذبا ، كان معجزة خارقة لسنة الكون وخارجا عن الحدود الطبيعية التي رسمها أولئك الكتاب للنبي . ولهذا ترى معالي الدكتور هيكل باشا في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه ص ٤٢ يقع على الرغم من انكاره المعجزات الكونية في حيرة بشأن الوحي فيقول : « ان العالم النزيه القصد الى الحق لا يستطيع أكثر من أن يقول ان ما وصل اليه العلم حتى هذا الزمان يقصر دون تفسير الوحي على الطريقة العلمية للمادية »

الحاصل انه بعد ثبوت كون الله موجودا لابد من وجود الأنبياء المبلغين عن الله ولا بد أن تكون اضافتهم الى الله مضمونة بوجود معجزات لهم خارجة عن نطاق القدرة البشرية.

ثم انه يرى أناس الخير وأناس الشر في الدنيا ربما لا يلاقون ما يستحقونه ، حتى لو فرضنا ان الانسان يعلم واجباته بعقله ويستطيع تعيين حدود الخير والشر فهو لا يقدر على وقف كل أحد عند حده حتى الحكومات لا يستطيعن ذلك حق الاستطاعة ؛ وقد يلتبس عليهن الاختيار والاضرار فتعجز المحاكم المدنية عن احقاق الحقوق وقد تكون هي مضيعتها عمدا وتعين الظالم على المظلوم . فلا بد بعد هذه الحياة الدنيا من حياة ثابتة تستدرك فيها نقائص الحياة الاولى وتطمئن قلوب أهل الفضيلة بتوقع ملاقاتها ؛ حتى ان الفيلسوف « كانت » استنبط دليل وجود الله من لزوم الحياة الثانية ولزوم مجيء يوم الدين ليكون مالك ذلك اليوم وحاكمه ، وعده أقوى أدلة وجود الله كما سبق في آخر الباب الاول من الكتاب الكبير ، وقد كنا نحن انتقدنا عليه ذلك . فهذا الذي لا نزاع كافيا في اثبات ذاك المطالب الأكبر أحسن دليل عندنا وأولاه على اثبات رسل الله حيث تشتد الحاجة الى وجودهم ليعلموا الناس سبل الفلاح والنجاح في يوم الدين ولا تتفرق بهم السبل على أيدي الرسل الفضوليين رسل المنكرين للمعجزات والرسالات الخارجة عن نطاق الطبيعة . فائن كان الناس مسؤولين في النشأة الثانية عن أعمالهم في الدنيا كما هو المجزوم عندنا وعند الفيلسوف « كانت » فوجود رسل الله الذين يوثق برسالاتهم ووجود المعجزات المعروفة لأشخاصهم ، يكون مقتضى العدل الالهي قال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) فاذا كان الله موجودا وجعل للانسان حياة أخرى يحاسبه فيها على أعماله في الحياة الأولى كان ارسال الرسل اليهم كالضرورة ان لم يكن ضروريا ضرورة وجود الله لوجود العالم . فأول ما يكون ثبوته ضروريا على طريقة الفيلسوف « كانت » لحفظ الاخلاق عن

الانهيار وصيانة حقوق الفضيلة من الضياع الابدى ، هو وجود البعث بعد الموت ،
ويأتى عنده ثبوت وجود الله بعده مبنيًا عليه ؛ ويأتى عندنا بعد ثبوت وجود الله
ووجود البعث - أيا كان الاول ثبوتا - وجود الانبياء ، فلا ينفك وجودهم على كل
حال عن ثبوت وجود النشأة الاخرى . والعجب ان فلاسفة الغرب المؤمنين بالله
يؤمنون بالحياة الآخرة أيضا ويعتبرونها من المطالب الفلسفية ثم لا ينتبهون الى الاتصال
الظاهر بين وقوع الحياة الآخرة ووجود الانبياء ؛ أفلا يكون جزاء الانسان في الآخرة
من غير ارسال رسول يبلغه ما يجب عليه أن يفعله في الدنيا أو يتجنبه ، كهواخذة
حكومة من الحكومات شعبها بعمل لم يسبق منها النهى عنه أو بترك عمل لم يسبق
منها الأمر به ؟ وقول القائل : ليكف كل انسان عقله رسولا ، لا يلتفت اليه كقول
القائل : ايجد الشعب بعقله ما تريد الحكومة أن يفعله الشعب وما لا تريد ، من غير
قانون ينص على الواجبات والمحظورات . ولا أصدق قبيلا من الله القائل : (وما كنا
معذنين حتى نبعث رسولا)

* * *

نعود الى مبدأ البحث وقد طال الكلام في الوجه السابع من وجوه النقد التي
أوردناها على كلمات الدكتور هيكل باشا في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « حياة محمد »
ولم ينته كلامنا بعد وكنا قلنا في أول البحث تقريبا : أصبح ان القرآن ليست فيه
معجزة لنبينا محمد ﷺ وانما القرآن معجزته الوحيدة كما ادعى الدكتور المؤلف
والذين شجعوه على هذا الادعاء من علماء الدين ؟

المقصود من هذه الدعوى نفي المعجزات الكونية المذكورة في كتب الحديث
بأثرة الشبهة في صحة مرويات تلك الكتب . ولكن أصول التوثيق في اسناد الحديث
التي التزم جامعو الصحاح مراعاتها في كتبهم ، بمكان من الدقة والعناية لو لم يكن
السبب الأصلي عند الدكتور هيكل وغيره في انكار المعجزات غير القرآن كونها مخالفة

للعلم المبني على سنة الكون ، لما تجرأوا على رمي كتب الحديث والسيرة جملة باختلاق الروايات . وكأنهم حاولوا في قصر معجزات نبينا على القرآن الذي قالوا عنه انه معجزة عقلية انقاذ حياته ﷺ من شائبة المعجزات الكونية المخالفة للعلم وسنة الكون . فمخالفة هذا النوع من المعجزات عندهم للعلم وسنة الكون جرأتهم وحملتهم على سوء الظن في كتب الحديث وأمانة رواة حملة أقوال الرسول ﷺ وأفعاله الى أمته ، على الرغم من اتخاذ علماء الاسلام في ضبط الروايات عن نبيهم وتوثيقها طريقة لم تر مثلها دنيا الشرق والغرب وقد تصور أصحاب تلك الظنون السيئة في انقاذ حياة نبينا ﷺ عن تلك المعجزات فضله على سائر الأنبياء

لكن تلك المعجزات ان كانت مخالفة للعلم وسنة الكون وكان معنى مخالفتها لها انها غير واقعة بل غير ممكنة الوقوع كما ادعاه الأستاذ فريد وجدى لما جرى بيني وبينه نقاش منشور على صفحات جريدة « الاهرام » قبل توليه رئاسة تحرير « مجلة الأزهر » لم أن لا تقع من الانبياء السابقين أيضا وأن تكون أنباء وقوعها المقصودة في القرآن كاذبة مختلفة كأنباء وقوعها من نبينا المروية في كتب الحديث والسيرة . فساد الدكتور هيكل ومشجعوه لا يجترئون على التشكيك في صحة أنباء القرآن فلا مندوحة لهم أن يعترفوا بالمعجزات الكونية ولو منسوبة الى الانبياء الاولين^(١) اعترافا لا يبق بعد ذلك مانع يمنعهم من الاعتراف بها منسوبة الى نبينا ويضطرهم الى القيام بدعوى منكورة تزول معها الثقة عن أفضل كتب الاسلام وأصحابها بعد القرآن مثل كتاب البخاري ومسلم وسائر كتب السنة وموطأ مالك ومسنند أحمد

بل نقول لا تصح دعوى ان القرآن لم يرد فيه ذكر معجزة كونية منسوبة الى نبينا ، ففي القرآن نبأ الاسراء به ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى

(١) ولا إخال ان عقل هيكل باشا وذوقه الأدبي يسوغان قبول ماذهب اليه الأستاذ فريد وجدى من كون آيات القرآن الواردة في معجزات الأنبياء آيات متشابهة غير مفهومة

وفي القرآن امداد المؤمنين في غزوة بدر بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين وخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وفي القرآن انشقاق القمر قال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) وتأويله بأن ذلك سيقع عند حلول الساعة أعنى القيامة مخالف لصراحة صيغة الماضي ، وكذا يأباه ما بعده الدال على انه آية أى معجزة والقرآن يعبر عن المعجزات بالآيات ويعبر عنها بالبينات ويعبر عنها بهما معا

فالقرآن صرح بانشقاق القمر على صيغة الماضي وسماه آية من الآيات التي أعرضوا عنها وقالوا سحر مستمر ^(١) فهاذا يطالبنا بعد هذا منكر والمعجزات الكونية لمحمد ﷺ قائلين : « لم يرد في القرآن ذكر شيء منها ولو ورد لآمننا به » ؟ فان قالوا جوابا على هذا الدليل الذى أتينا به من القرآن : « لكن انشقاق القمر أمر محسوس لا يخفى على أحد من سكان الأرض في ذلك العصر ، فلو وقع لحكاه تاريخ الأمم » فانى راد لجوابهم عليهم بأن هذا يكون منهم عدم اعتماد على اخبار القرآن حيث يبحثون عن اخبار آخر يؤيده ، وقد كانوا يدعون الايقان بصدق القرآن ، هذا خلف.

ثم أقول عاكسا لجوابهم عليهم : لو لم ينشق القمر في عصر نبينا ولم يشاهده أعداؤه المشركون في مكة لكذبوا محمدا ﷺ في هذه الآية وصار تكذيبهم المؤدى الى تبين كذبه حادثة هامة أدعى الى تناقل الألسنة والافلام بها من تناقل حادثة الانشقاق نفسه التي ربما لا يطلع عليها غير أهل مكة لاهمال ترصدها في وقتها أولغيم يسترها أو لحساباتها حادثة من الحوادث الجوية العجيبة التي لا تدرك أسبابها ولا تضبط في ذلك الحين

(١) وفي نعت هذا السحر بالاستمرار اشارة الى أن معجزاته صلى الله عليه وسلم الكونية كثيرة لا تنحصر في شق القمر وهو رد بليغ على منكريها بالمرة

قال الفاضل الهندي تم كتاب السيرة المار المذكور من قبل : « من العلماء من فسر معجزة انشقاق القمر بأنه ترا آى لأهل مكة كذلك وان لم ينشق فى نفسه ، قال : « ومن هؤلاء العلماء شاه ولى الله الدهلوى صاحب « حجة الله البالغة » واليه يميل الغزالى » وعندى ان هذا التفسير ليس بخطأ بل أكبر من الخطأ اذ لافرق بينه وبين ما حكاه القرآن عن موقف المشركين ازاء هذه المعجزة بقوله : (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) فالقرآن يقول انشق القمر ويقول أولئك الذين لا يقال عنهم العلماء بعد قولهم هذا : لم ينشق وانما خيل للناظرين من أهل مكة الطالبين من النبى ﷺ ان يظهر لهم معجزة ، ^(١) منشقا وقد كان المشركون حملوه على السحر وهؤلاء العلماء يحملونه على التخيل !!

ثم قال الفاضل المذكور : « ان أهل مكة رأوا القمر منشقا فهل هو انشق حقيقة أو ترا آى كذلك فهذا لا يهمنى والله القادر على إراءة القمر منشقا قادر أيضا على شقه حقيقة » وانى أرى فى هذا القول عدوى من جهل هؤلاء العلماء ، نعم ان الله يشق القمر ويريه منشقا من غير شق ولكنه لا يكذب فيقول عن القمر الذى لم ينشق انشق . أما مارواه الفاضل المذكور من حديث أنس « ان أهل مكة سألوا النبى ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين » فلا يستلزم انه لم ينشق ولا يلزم لرؤيته منشقا أن يكون غير منشق وهل غير المنشق يرى منشقا والمنشق لا يرى منشقا ؟ فلا يصح اذن أن يكون حديث أنس هو الذى سبب القول بتغيير معنى الآية وانما السبب سوء فهم المعنيين

ويشبه هذا الضلال فى التفسير أو يغالبه ماسمته معزوا الى الشيخ محمد عبده انه كان يحمل انفلاق البحر لسيدنا موسى ومن معه ثم غرق فرعون وجنوده فيه ، على الجزر والمد اللذين كثيرا ما يقمان فى البحر . وحق القول فى سخافة هذا التوجيه

(١) التعبير فى جميع الأحاديث : « انشق القمر » الا فى احدى روايتين عن أنس

من غير أن يناقش في وقوع جزر ومد كهذا وفي علم موسى بمصادفهما لزمان اجتياز البحر ، انه تكذيب للقرآن في ترتيبه انفلاق البحر على ضربه بالعصا حيث قال تعالى : (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) ثم ان الله تعالى انتقم من الشيخ على ابتعاده في تأويله عن القرآن فأبعده عن العقل أيضا ألا ترى الى انه لم يفكر في أن الجزر والمد البحريين يكونان متعاقبين في العادة مع ان اجتياز موسى ومن معه البحر أثناء الجزر الذي فتح لهم طريقا في البحر يبسا يستلزم أن يتوقف الجزر فتطول مدته ساعات بل أياما قبل تحوله الى المد ليتسع الزمان الذي يحتاج اليه المجتازون لقطع المسافة بين الجانبين من البحر الأحمر التي لا تقل عن مائة كيلو متر تقريبا ، فلو كان موسى ومن معه راكبين لأسرع سيارات زماننا لما تمكنوا من اجتياز هذا البحر بين جزره ومده

ورأيت للشيخ رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده تأويلا في قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) والمعنى عنده اقتربت الساعة وظهر الحق . ثم أتى لتأويله بدليل من « لسان العرب » وهو قوله : « انشق الصبح وشق الصبح اذا طلع وفي الحديث فلما شق الفجر ان أمرنا باقامة الصلاة » وليس في « اللسان » انشق القمر أو انشقت الشمس بمعنى طلعتا لأن انشقاق القمر والشمس عند طلوعهما غير ممقول كعمقولية انشقاق الفجر والصبح عند طلوعهما . وقد يقال أيضا تنفس الصبح ولا يقال تنفس القمر أو الشمس . لكن الشيخ شيخ منكرى المعجزات الكونية قاس انشقاق القمر بانشقاق الصبح والفجر ثم جعل انشقاق القمر كناية عن ظهور الحق من غير مبرر في كل ذلك سوى الاصرار على انكار المعجزات . ولم يكن لينتظر من الشيخ القول بالتخييل مع القائلين الذين انطبق عليهم ما بعد الآية أعني : (وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) لأن مذهب الشيخ تخصيص هذه التهمة بمعجزات الأنبياء المتقدمين كما سبق ، فلا يكون له أن يعيب معجزة نبينا بمثلها . ولأن القائلين

بالتخييل لم يريدوا انكار معجزة شق القمر، وهم ليسوا من منكرى المعجزات المصريين
وانما أرادوا أن يكون اعجازها في آرائها وليس لهم دافع غير ضلال في الفهم مهما
كان ذلك الضلال عظيما . أما تأويل الشيخ رشيد فهو لغو في القرآن من أنواع اللغو
الذى توسل به الأولون الى عدم السماع للقرآن حين قالوا (لا تسمعوا لهذا القرآن
والغوا فيه لعلمكم تغلبون) وكان لغو الشيخ في القرآن كيلا يسمع له بعد أن أتى بالوان
من اللغو كيلا يسمع أحاديث معجزة شق القمر التى عددها الأستاذ الفاضل الشيخ
محمد ياسين ^(١) والى أخرجهما أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن جرير وابن
المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والحاكم والبيهقى عن على وابن مسعود وحذيفة وجبير
ابن مطعم وابن عمرو ابن عباس وأنس، ولذا قال ابن عبد البر : « روى حديث انشقاق
القمر جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجهم
الغفير الى أن انتهى اليينا وتأييد بالآية الكريمة » وقال المناوى فى شرحه لألفية السير
للمعراق : « تواترت بانشقاق القمر الأحاديث الحسان كما حققه التاج السبكى وغيره »
فالأحاديث المنبئة بمعجزة انشقاق القمر غير مقبولة عند شيخ « المنار » وقول
القرآن (انشق القمر) لا يفهم منه انشقاق القمر وانما يفهم منه معنى آخر غير
انشقاق القمر ، قولوا بربكم هل الشيخ لاغ فى القرآن والحديث ولاعب بهما أم هو
غير لاغ ولاعب ؟ أجيبونى عن سؤالى هذا ولا تؤاخذونى بتشديد القول عليه ، فهل
تريدون أن أقول للاعب بالقرآن : أحسنت ؟ وقبله عارض أستاذة محمد عبده كتاب الله
فى قوله (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق .. الآية) فحمل انفلاق
البحر على الجزر والمد الطبيعيين . فنكرو المعجزات الكونية لا يشقون بالأحاديث
ويطالبوننا بدليل من القرآن فلما جئناهم به أخذوا يلعبون بعمناء منجرفين بمنة ويسرة

(١) كتب فى مجلة « الهداية الإسلامية » الغراء هو والأستاذ الفاضل الشيخ محمد زهران رداً

على الشيخ رشيد جزاها الله خيراً ورضى عنهما

وقد كانوا وضعوا مقياسا لقبول الحديث وهو عرضه على القرآن ، ثم انا نراهم لا يقتنعون بهذا ويعرضون القرآن على هواهم وعقيدتهم في عدم المعجزات الكونية . فالقياس الأصلي عندهم للقبول هو الموافقة لعقيدتهم لا الموافقة للقرآن ، فلهذا لا يكفيهم قول القرآن (انشق القمر) في اثبات معجزة انشقاق القمر ، فكأنهم يتصورون ما نعا عقليا ينمهم عن حل الآية على ظاهرها وصراحته وهو عدم امكان هذا الانشقاق لكونه مخالفا لسنة الكون ، وقد تقدم منا الكلام بما لا مزيد عليه في استئصال هذا المانع الذي استندوا اليه في نفي المعجزات الكونية عن نبينا والذي أخذوه من المستشرقين من غير فهم مقصده المستشرقون من الاستناد الى ذلك المانع وهو عدم الاعتراف بنبوة محمد ﷺ فهو ليس عندهم نبيا حتى تكون له معجزة تخالف سنة الكون كما كانت للأنبيا !!

ومما يجدر بالذكر هنا انه نشرت مجلة « الرسالة » في عددها ٤٦٢ مقالة للشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة وعضو هيئة كبار العلماء ، يجيب فيها على سؤال ورد الى مشيخة الأزهر عن مسألة رفع عيسى عليه السلام من عبد الكريم خان بالقيادة العامة الانكليزية لجيوش الشرق الأوسط ، ولعل السائل هندي قادياني المذهب أراد الحصول على فتوى من الأزهر تؤيد مذهبه ، ولعل مشيخة الأزهر نددت ببعض الندامة على ما سبق لها من تنفيذ القرار الصادر عن هيئة كبار العلماء لطرد الطالبين الألبانيين القاديانيين من الأزهر ، اذ حوّلت السؤال الى الشيخ كاتب المقالة من بين أعضاء الهيئة الذي ستعرف نزعتة القاديانية في المسألة المحولة اليه ^(١) فكان جوابه انه عليه السلام مات في الأرض ورفعت روحه ولم يرفع حيا كما ذهب اليه المفسرون

(١) وكنت قد سمعت عند مفاوضات هيئة كبار العلماء فيما بينهم لبت في أمر الطالبين المذكورين أن في الهيئة من يشد ويتردد في الافتاء بكفر المنكر لكون نبينا صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء طعنا منه في حجية الحديث الوارد فيه والاجماع المنعقد عليه وفي دلالة قوله تعالى (ما كان محمد أباً

قبل الشيخ . واذا لم يصح رفعه سقط القول بنزوله في آخر الزمان كما ورد في الأحاديث التي لا يعتمد عليها الشيخ المجيب رغم كثرتها بحجة انها أخبار آحاد لا تنبى عليها المسائل الاعتقادية

فهو كما خطأ المفسرين في مسألة رفع المسيح خطأ علماء أصول الدين القائلين بنزوله على أنه من أشراط الساعة . والخلاف بين الشيخ شلتوت وبين المفسرين والمتكلمين والمحدثين راجع الى الخلاف في انكار المعجزات والاعتراف بها بين المنكرين الذين منهم الشيخ والمعترفين الذين منهم أهل التفسير والحديث والكلام ، فمن لم يؤمن بالمعجزات فدأبه رفض الأحاديث والآيات الواردة فيها بالتشكيك في ثبوت الأحاديث مهما كثرت روايتها والعبث في معنى الآيات ، لالكون الأحاديث غير ثابتة في الحقيقة من طريق نقد الحديث المعروفة عند علمائه أولكون الآيات غير ظاهرة الدلالة ، بل لعقيدة راسخة في قلب الرافض تدفعه الى انكار المعجزات وسائر المغيبات أيما ورد ذكرها

وقد أسلفنا في أوائل هذا الكتاب الكلام عن أصل هذا المرض الذي يجعل التشكيك في صحة الأحاديث والعبث في تأويل الآيات سهلاً على المنكرين . وعقل الشيخ شلتوت الذي لا يقبل معجزة الرفع والنزول لم يسي يقبل أن المحدثين كذبوا في سبعين حديثاً رويها في نزوله كما أخطأ المتكلمون في قبول تلك الأحاديث سنداً لعدم من أشراط الساعة وكما ان المفسرين أخطأوا في فهم معنى الآيتين الداليتين على الرفع والآيتين الداليتين على النزول ، وانما أصاب الشيخ شلتوت في مقابل المخطئين وصدق في مقابل الكاذبين

أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) عليه الفضية . وقد رددت على هذا العضو الشاذ شذوذه في مقدمة الكتاب (الكبير الذي لم ينشر تمامه بعد) والآن أقول ان كان الشيخ شلتوت لم يتأخر التعاقبه بهياة كبار العلماء عن زمان درس مسألة الطالبين فهو أول من يخطر بالبال أن يكون ذلك الشاذ

وكنا كتبنا في صدر الكتاب شيئا كثيرا يتعلق بهذه المسألة وأرجأنا النظر في آيات الرفع والنزول الى محل مناسب فنقول :

ولعدم كون الشيخ في مذهب اليهود والنصارى بشأن سيدنا المسيح بل في مذهب الماديين لم يعترض على عقيدة المسلمين المأخوذة من قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) وانما اعترض على عقيدتهم المستندة الى قوله تعالى (بل رفعه الله اليه) وكان هذا الشيخ أنكر من قبل وجود الشيطان كشخص حي من شأنه أن يفعل الأفعال المذكورة له في القرآن ويتصف بأوصاف متناسبة مع تلك الأفعال ، وكان المانع عنده عن وجود الشيطان هو عين المانع عن رفع عيسى عليه السلام ونزوله أعنى العلم الحديث المادى الذى لا يقبل الا ما يمكن اثباته بالتجارب الحسية . وهذا المانع عن وقوع معجزات الأنبياء الكونية ووجود الشيطان عند المؤمنين بالعلم المادى أكثر من كتاب الله وسنة رسوله ، بمنعهم أيضا عن القول بنبوته محمد ﷺ مستبدلين بها العبقرية . فلا يكون كتابه كتاب الله الذى لا يجترأ على مسه بكل تأويل ولا أحاديثه أحاديث رسول الله الذى لا يجترأ على تكذيبها بكل سهولة . فلو لم يكن لانكار رفع عيسى ونزوله أسباب خفية عند الشيخ المنكر ونظر الى آيتي الرفع وأحاديث النزول نظر المحايد غير المرتبط بتلك الأسباب الخفية لذهب به نظره الى التسليم بعقيدة المسلمين في رفع المسيح عليه السلام ونزوله في آخر الزمان ولا رأى مانعا عنهما في آيات التوفى التى تمسك بها بدلا من الآيات والأحاديث القائمة على الرفع ثم النزول

فكما أن قوله تعالى (بل رفعه الله اليه) وقوله (ورافعك الى) ظاهران في الرفع الخاص الذى يمتاز به عليه السلام لارتفاع الروح العام لجميع الأنبياء والسعداء كما ادعاه الشيخ ، فتمعيب قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه) بقوله (بل رفعه الله اليه) قطعى في الرفع الذى نقول به لا الرفع الذى يقول به ، اذ لا معنى يليق بالنظم المعجز في القول بأنهم ما قتلوه بل رفع الله روحه اليه كما فسر به الشيخ ، لعدم معقولية التقابل على

هذا التفسير بين القتل المنفى والرفع المثلث ، بناء على أن رفع الروح يعيش مع القتل والصلب كما يعيش مع عدم القتل والصاب فلا يصح أن يكون ما بعد (بل) ضد لما قبله على خلاف ما صرح به النحاة من أن بل بعد النفي أو النهي يجعل ما بعده ضد لما قبله . وليس للشيخ المنكر لرفعه حيا مجال للجواب عن هذا الاعتراض

أما آيات التوفى التي تمسك بها الشيخ فليس فيها تأييد لمذهبه يعادل في القوة أو يداني ما في تكميل نفي القتل والصاب بإثبات الرفع من تأييد مذهبنا ، لأن المعنى الأصلي للتوفى المفهوم منه مبادرة ليس هو الامامة كما يزعم الشيخ بل معناه أخذ الشيء وقبضه تماما ^(١) فهو أى التوفى والاستيفاء في اللغة على معنى واحد ، قال في مختار الصحاح : « واستوفى حقه وتوفاه بمعنى » وإنما الامامة التي هي قبض الروح نوع من أنواع التوفى الذي يعمها وغيرها ، لكونه بمعنى القبض التام المطلق . وهذا منشأ غلط الشيخ شاتوت أو مغالطته في تفسير آيات القرآن التي يازم أن يفهم منها رفع عيسى عليه السلام حيا ، لأنه ظن أن القرآن معترف بموته في الآيات الدالة على توفيه كما ظن أن التوفى معناه الامامة نظراً إلى أن الناس لا يستعملون التوفى إلا في هذا المعنى وغفولاً عن معناه الأصلي العام فكأنه قال بناء على ظنه هذا لا محل لرفعه حيا بعد إمامته . لكنه لو راجع كتب اللغة لرأى أن الامامة تكون معنى للتوفى في الدرجة الثانية حتى ذكر الزمخشري هذا المعنى له في « أساس البلاغة » بمد قوله « ومن المجاز » والمعنى الأصلي المتقدم إلى أذهان العارفين باللغة العربية ، للتوفى هو كما قلنا أخذ الشيء تماماً ، ولا اختصاص له بأخذ الروح

ولقد فسر القرآن نفسه معنى التوفى الذي يعم الامامة وغيرها فقال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) فهذه الآية تشتمل على نوعين من أنواع

(١) كما أن معنى التوفية جعل الغير أخذ الشيء تماماً ، قال تعالى : (حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه) وقال (أنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

توفى الأنفس الذى هو الأخذ الوافى نوع فى حالة الموت ونوع فى حالة النوم ، فلو كان التوفى ينحصر فى الامانة كان المعنى فى الآية : الله يميت الأنفس حين موتها ويميت التى لم تمت فى منامها . والاول تحصيل للحاصل والثانى خلاف الواقع ولزم الاول أيضا أن تكون حالة الموت حالة امانة الروح لافصلها عن البدن . ومن هذا يفهم أيضا معنى التوفى فى قوله تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) ومعنى قوله تعالى على هذا التحقيق : (يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الدين كفروا) أنى آخذك من هذا العالم الأرضى ورافعك الى . وفى قوله (ومطهرك من الدين كفروا) بعد قوله (متوفيك) دلالة زائدة على عدم كون معنى توفيه امانته ، لان تطهيره من الدين كفروا بامانة عيسى وابقاء الكافرين لا يكون تطهيرا يشرفه كما كان فى تطهيره منهم برفعه اليه حيا . فاذن كل من قوله تعالى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الدين كفروا بيان لحالة واحدة يفسر بعضها بعضها من غير تقدم أو تأخر زمانى بين هذه الاخبار الثلاثة « لان » ومن المعلوم عدم دلالة الواو العاطفة على الترتيب . فلو كان المراد من قوله تعالى (متوفيك) مميتك ومن قوله (رافعك) رافع روحك كما ادعى الشيخ شلتوت كان القول الثانى مستغنى عنه لان رفع روح عيسى عليه السلام بعد موته الى ربه وهو نبي جايل من أنبياء الله معلوم لاحاجة الى ذكره ، بل لو حملنا القول الأول أعنى (متوفيك) على معنى مميتك كان هو أيضا مستغنى عنه اذ معلوم ان كل نفس ذائقة الموت وكل نفس فالله يميتها ومن من الناس أو الأنبياء قال الله له انى مميتك ؟ فهل لا يفكر فيه الشيخ الذى يفهم من قوله تعالى انى متوفيك انه مميته ؟ الا أن يكون المعنى ان الله مميته لأعداؤه فالمراد انى كونهم يقتلونه . وفيه ان كون الله مميته لا ينافى أن يقتلوه لان الله هو مميت كل ميت حتى المقتولين ، ولذا حمل كثير من المفسرين قوله (متوفيك) على معنى ان الله مستوفى أجله عليه السلام ومؤخره الى أجله المسمى فلا يظفر أعداؤه بقتله

وعندى فى هذا التفسير أيضا أنه يرجع الى حمل التوفى على معنى الاستيفاء كما

حملنا نحن لاعلى معنى الامانة ، لكن التوفى والاستيفاء معناه استكمال أخذ الشيء
لاستكمال اعطائه فليس الله تعالى مستوفى أجل عيسى عليه السلام بل المستوفى هو
عيسى نفسه والله الموفى أى معطيه تمام أجله . فقد التبس التوفى على أصحاب هذا التفسير
والعجب أن فيهم الزمخشري - بالتوفيق التى تتعدى الى مفعولين وهو خطأ لغوى ظاهر . وفيه
أيضا تقدير مضاف بين المتوفى وضمير الخطاب حيث قال الله انى متوفيك أى مستوفيك
لامستوفى أجلك ، فزيادة الأجل تكون زيادة على النص ، كما أن زيادة الروح فى آتى رفع عيسى
عليه السلام نفسه زيادة على النص من جانب الشيخ شلتوت لارهاق قول الله على خلاف
ظاهر المعنى المنصوص . وهذه الزيادة ان كانت خلاف الظاهر بين الرافع وضمير الخطاب
فى قوله (ورافعك) بأن يكون المعنى ورافع روحك ، فهى فى قوله (بل رفعه الله اليه)
أشد من خلاف الظاهر أى غير جائزة أصلا لكونها مفسدة لما يقتضيه (بل) من
كون ما بعده وهو (رفعه الله اليه) ضد ما قبله وهو قوله (ماقتلوه) بناء على أن رفع
الروح يلتزم كما قلنا من قبل مع حالة القتل أيضا الذى اعتنى بنفيه ، فضلا عن ان هذا
الرفع أى رفع الروح ليس بأمر يستحق الذكر فى شأنه عليه السلام . بل ان قوله
(متوفيك) أيضا مما لا وجه له ذكره اذا كان المعنى مميتك ، ففى أى زمان تقع هذه
الامانة ؟ فان وقعت حالا أى فى زمان مكر أعدائه به المذكور قبيل هذه الآية كان
هذا الكلام المتوقع منه طمأنته عليه السلام على حياته ، أجنبيا عن الصدد بل مباينا
له لان فيه اعترافا ضمنيا لنفاذ مكرهم بأن يكونوا قاتليه والله قابض روحه ، فهل الشيخ
شلتوت ينكر انهم ماقتلوه كما ينكر ان الله رفعه الى السماء حيا ؟ وان وقعت اماتته
فى المستقبل البعيد فليس فى الآية تصريح به مع ان مقام الطمأنة يقتضى هذا التصريح
كما أنه يقتضى كون الرفع رفعه حيا ، فحيث لا تصريح بكون اماتته فى المستقبل البعيد
فقوله (انى متوفيك) على معنى انى مميتك أجنبى عن المقام ، حتى ان توجيهه العالم
الكبير حمدى الصغير صاحب التفسير الكبير الجديد التركى ، بكون ذكر اماتته ردا

على عقيدة النصارى فى تأليه المسيح لا يجدى فى دفع هذا الاعتراض لكون ذلك الرد أيضا أجنبيا عن المقام الذى هو مقام الطمأنة والذى ينافيه كل ما ينافيها . فالواجب الذى لم يحس بوجوده أحد ممن تكلم قبلى فى تفسير قوله تعالى (انى متوفيك) احساسى به ، حمل (متوفيك) على معنى آخذك تماما السالم عن جميع الاعتراضات والتكلفات

وقس عليه التوفى فى آية المائدة وهى قوله تعالى : (واذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى آلهم من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك أنت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم) ومعنى قوله (فلما توفيتنى) فلما أخذتنى من بينهم وجعلت صلاتى بهم وبعمالهم الأرضى منتهية . فالمراد توفيه أى أخذه بالرفع لا بالامانة وقد علمت ان التوفى فى اللغة وفى عرف القرآن لا يختص بالأخذ من النوع الثانى

هذا تفصيل ماورد فى القرآن متعلقا برفع عيسى عليه السلام . وفيه فضلا عن الآيات المذكورة آيتان يفهم منهما نزوله فى آخر الزمان فيكون فيهما أيضا دليلان على رفع سابق كما كانت فى أحاديث النزول أدلة . وليس الأمر كما توهم الشيخ شلتوت من أن حادثة الرفع لم يقم عليها دليل فى القرآن ولا محل لنزوله بعد سقوط رفعه . ليس الأمر كما توهم ، بل كل من آتى الرفع ، وقد سبق ذكرهما ، وآتى النزول وهما قوله تعالى فى سورة النساء (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) وقوله فى سورة الزخرف (وانه لعلم للساعة) يعضد بعضهما بعضا . ولا يستطيع الشيخ المنكر لنزوله عليه السلام فى آخر الزمان أن يجد تأويلا لآتى النزول المذكورتين من دون أن يذهب الى تكلفات بعيدة كما لا يستطيع أن يجد جوابا لما ذكرنا فى آتى

الرفع من القرآن التي لا تمتشى مع مذهبه الذي هو رفع روحه فقط
فظهر مما سبق جميعا أن رفع عيسى عليه السلام بالمعنى الذي يعتقده المسلمون
مذكور في القرآن خمس مرات : صراحة في آيتي الرفع واقتضاء في آيتي النزول
وتلميحا في آية تطهيره من الذين كفروا

ولك أن تظم إليها قوله تعالى عنه عليه السلام (ومن المقربين) ففيه إشارة إلى
رفعه إلى محل الملائكة المقربين بل في قوله أيضا (وجيها في الدنيا والآخرة) لأن
الوجيه بمعنى ذى الجاه ولا أدل على كونه ذا جاه في الدنيا من رفعه إلى السماء ، وقوله
عن أعدائه (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) فيبلغ أدلة القرآن على رفعه ثمانية
ومن المعجائب أن الشيخ شلتوت عا كس الواقع مرة أخرى فحاول أن يستخرج
من آية المكر دليلا ضد الرفع منكرًا لأن يكون في رفعه إلى السماء حيا مكر من الله
بأعدائه الماكرين ! وعنده أن مكر الله بهم المتغلب على مكرهم بنبيه حاصل في إمامته
ورفع روحه إليه لافى رفعه حيا ، فكان الله نفذ ما أراد أعداؤه أن يفعلوه به فقتله
قبل أن يقتلوه أو نفذ قتلهم باماتته ! فكان الله إذن مساعدهم لا ماكرًا بهم !

وانظر بعد هذا التوجيه بالنسبة إلى مكره بهم في رفع نبيه إليه حيا وجعل مسعاتهم
لقتله في خياب بن هياب ! ! هذا ، مع أن تمام مكر الله بهم المذكور في قوله (ولكن
شبه لهم) بعد قوله (وما قتلوه وما صلبوه) الذي تغاضى عنه الشيخ بالمرّة . وقول
القرآن عن سيدنا المسيح (وما قتلوه وما صلبوه بل رفعه الله إليه) لو لم يفهم منه رفع
المسيح حيا وانما فهم رفع روحه كما زعمه الشيخ وأصر على زعمه فاذن يمكن أن يقول
قائل أن القرآن لا ينفي قتل المسيح وصلبه في صورة قاطعة لأن رفع روحه إلى الله
لا ينافي كونه مقتولا ومصلوبا بأيدي أعدائه ، وانما يكون هذا القول بأنهم ما قتلوه
وما صلبوه من قبيل الهزل . كما لو قتل أحد إنسانا ثم قال في المحكمة لم أقتله ولم أقبض
روحه وانما الله قبض روحه ! فلو أن الشيخ صاحب هذا التأويل الذي يأمره به هواه

لأنكار معجزة الرفع لم يغب عنه أن القرآن كلام الله لصانه عن أن لا يكون لنفسه القتل والصلب عن المسيح الا قيمة هزلية !!

أما الكلام على المانع الحقيقي عند كتاب العصر الحديث وأتباعهم من علماء الأزهر ، عن الاعتراف بمعجزات الأنبياء عليهم السلام الكونية وغيرها مما يخالف سنة الكون كرفع عيسى ونزوله ووجود الشيطان فيضطرهم بسبب هذه المخالفة الى تكذيب الأحاديث الواردة بشأنه وتأويل الآيات مهما كانوا ظالمين لأئمة الحديث في التكذيب ومبتعدين عن منطوق الآيات في التأويل ، بل ظالمين أحياناً في تأويل الآيات أيضاً كقول الشيخ شلتوت في مسألة وجود الشيطان ان القرآن جارى فيه عقيدة العرب الجاهليين وقول الأستاذ فريد وجدى في آيات المعجزات والبعث بعد الموت انها آيات متشابهة غير مفهومة المعانى — أما الكلام على هذا المانع فقد وفيت حقه في أوائل هذا الكتاب الذى هو جزء صغير من كتابي « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ورساله » منشور قبل تمامه بسبب أزمة الورق . وفي تمام الكتاب مزيد حل لشبه المصريين من الكتاب والعلماء الذين لا يؤمنون بالغيب

* * *

نعود الى ما كنا فيه قبل الانتقال الى مناقشة الشيخ شلتوت في دعواه الشاذة عن رفع عيسى عليه السلام فكنا قلنا ان المنكرين لمعجزات الأنبياء الكونية ينكرونها بسبب مخالفتها لسنن الكون والعلم الحديث المبني عليها ، كما قلنا ذلك أيضاً في نهاية المناقشة مع الشيخ

وهناك مانع آخر عندهم خاض بوجود معجزة كونية له ﷺ أخذوه أيضاً من المستشرقين من غير فهم مرماهم في البحث عن موانع المعجزات الكونية لمحمد ﷺ وهو أن القرآن نفسه حكى أن محمداً كان لا يلبى طلبات قومه في اظهار المعجزات كما ورد في الآيات التي ذكرها مؤلف كتاب « حياة محمد » مستشهداً به على ما استشهد

عليه المستشرقون من أن حياة محمد خلت عن المعجزات الكونية ومحطاً عليها كل ثقة بكل ماورد في كتب الحديث والسيرة من معجزاته . والفرق بين موقف المستشرقين وبين مؤلف الكتاب أعني الدكتور هيكل باشا الذي تعلم طريق هذا التحطيم منهم انه يتميز بادخار كل الاهتمام وكل الثقة للقرآن في حين أنهم لا يأتعنونه أيضا للأسباب التي ذكروها في الأحاديث وسلم بها الدكتور من عدم التعويل على صحة رواياتها وأمانة رواياتها المعلولين بالأغراض الدينية والسياسية ولا على تمحيص الجامعين للمصاحح وتمحيص هذا التمحيص من علماء الدين الذين جاءوا بعدهم وفرق آخر بينه وبينهم أنهم يعلمون جيداً أن التشكيك في أمانة منابع الاسلامية عن آخرها بالنسبة الى الأحاديث يستلزم التشكيك في تلك منابع بالنسبة الى القرآن أيضا ، والدكتور المؤلف غافل عن هذا الاستلزام ، فهو يسعى عبثا لترغيب المشككين الغربيين والذين وقعوا تحت تأثير دعايتهم من الغربيين والشرقيين ومنهم الدكتور نفسه ، في القرآن مفرقا بينه وبين غيره من المعجزات ومادحاه بأنه معجزة عقلية . وليس له أن يتميز بأن القرآن كُجمع قبل طروء الفساد على الروايات لأن نبأ هذا الجمع أيضا يصل إلينا من طريق رواية الحديث والسيرة المطعون في أماناتهم

ثم ان المشككين الغربيين الذين يستخدمون عقولهم المشحوزة للعمل ضد الاسلام بمهارة لا توجد في مقلديهم ، ما اجتزأوا بضعضة مكان الحديث أولا والقرآن ثانيا متوسلين اليها بضعضة أصول الرواية وتعليلها بعدم ابتنائها على طريقة النقد العلمي والتمحيص العلمي الذي جرى عليها الدكتور في تأليف كتابه وخيل للأذهان أنه أول كتاب في الاسلام يتضمن بيانا عن حياة سيدنا محمد مبنيا على الطريقة العلمية .. ما اجتزأوا بذلك ، بل جعلوا الكتاب والسنة يهدم بعضهما بعضا : ففي دعواهم المارة الذكر قريبا ينفي القرآن بنصوصه الواردة في عدة سور أي آية أي معجزة لنبينا محمد ﷺ ويمنع صدق ما ذكر في كتب الحديث والسيرة عن معجزاته ؛ فهل تنظرون

ان المستشرقين أعداء محمد لا يكتفون في تكذيب الأحاديث النبوية بتكذيب كتبها بل جعلوا القرآن أيضا يكذبها ؛ وصاحب كتاب « حياة محمد » يقتدى بهم في كلتا الخطوتين : غير ان الفرق بينه وبينهم أن الغرض من تكذيبهم كتب الحديث لتكذيب معجزات نبينا ومن جعلهم القرآن أيضا يكذبها ، تكذيب كل معجزة منسوبة اليه حتى القرآن نفسه لينتهوا بهذه التكذيبات المتسلسلة الى تكذيبه في نبوته ؛ ولا نرضى أن يكون مؤلف كتاب « حياة محمد » يرضى بهذا ، الا أنه ماذا يكون موقف محمد ﷺ عنده ؟ اذا صح بالنظر الى قول القرآن انه كان لا يلي الطلبات الواقعة في الاتيان بآية ، بل يقول دائما انما الآيات عند الله وإنما أنا بشر مثلكم أو إنما أنا نذير مبين أوليس عندي خزائن الله أو إنما الغيب لله أو ما يعائله ، ولا يقول جوابا لكل تلك الطلبات : آتني القرآن . وإنما قيل مرة واحدة عقب طلب الآية : (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وهو ليس بصريح في كون القرآن معجزة لا يهتمنى القارى والعياذ بالله بآتي أنكر كون القرآن الذى هو أعظم معجزات نبي الاسلام وأفضل معجزات الأنبياء على الإطلاق ، معجزة . وإنما أنا أتصور وأصور عقليات المستشرقين واستنتاجاتهم من آيات القرآن التى استشدها بها مؤلف كتاب « حياة محمد » على نفي المعجزات الكونية لمحمد . فالآيات نفسها عند المستشرقين أساتذة المؤلف فى الاستشهاد شواهد على نفي معجزاته مطلقا وان لم يشعر به المؤلف ، اذ لا ريب فى أنهم لا يعترفون بكون القرآن معجزة . فالتمسك بتلك الآيات ولو فى نفي ما عدا القرآن من معجزات نبينا لا ينبغى لمسلم يقط يا بى أن يخدم أغراض أعداء الاسلام ، فضلا عن أن هذا التمسك لا يستقيم فى حد ذاته . والآن نورد تلك الآيات ثم نبين ما هو المراد منها :

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه انما أنت منذر ولكل قوم هاد
(سورة الرعد)

وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين
(سورة العنكبوت)

وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم
لا يعلمون (سورة الأنعام)

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي
إليه من أناب (سورة الرعد)

بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون
(الأنبياء)

الحكمة في انزال هذه الآيات تتصور على وجهين: الأول أن كتاب الاسلام يرى
الى تهذيب العقول وهدايتها الى رشدها ؛ وقد كان الذين كتبوا التوراة والانجيل
للتصارى زعموم المسيح الها يقدر على التصرف في الكائنات. فالقرآن الذى هو كتاب
دين التوحيد يعتنى بتصحيح تلك العقيدة ويكرر أمر الله لنبيه باعلان أن كل شيء
بيد الله، ليس للنبي من الأمر شيء وإنما هو عبده ورسوله وإنما الآيات ككل شيء
عند الله لا يقدر محمد على الاتيان بها من تلقاء نفسه ، فيقول الله له : (ليس لك من
الأمر شيء) ويقول (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم
الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون)
ويقول (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن
أتبع إلا ما يوحى إلى) وحتى يقول (إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى
من يشاء)

وكان النبي ﷺ من شدة حرصه على هداية الناس الذى قال الله عنه : (فلعلك
باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) ، يتمنى نزول ما يسألونه من
الآيات ؛ لكن الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ولا يشرك فى حكمه أحدا ،

يقول لنبيه : (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) ويقول (وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين) .

فهذا الخطاب من الله لنبيه في القرآن يعطى فكرة جديدة عن عقيدة الاسلام كيف تقدر فيها عظمة سلطان الله فوق عباده كائنين من كانوا ، كما انه يعطى فكرة جديدة عن القرآن هل يمكن أن يكون كلام سيدنا محمد وفيه هذه الآية الأخيرة ؟ فهذه الآية واللاتي ذكرنا قبلها وأمثالها التي لم تذكر مثل (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) نزلت لتفهم الفرق بين الرب والمربوب وتبينه في قلوب المسلمين ليعلموا انه ليس في استطاعة محمد أن يأتي بآية ولا بأي شيء الا باذن من ربه ورب كل شيء . وليس هذا خاصا بمحمد صلى الله عليه وسلم بل يستوي هو وسائر رسل الله فيه كما قال القرآن أيضا (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا باذن الله) . ولا يلزم من كون انزال الآيات واظهار المعجزات من اختصاص مشيئة الله عدم وجود معجزة لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام غير القرآن ولا عدم نفع المعجزات الكونية في اقناع الناس بصدق الرسل لا بتدليلها ووقوعها في كل زمان من غير الأنبياء كما ادعاه الشيخ رشيد رضا . فكان هذا الشيخ المستخف بالمعجزات الكونية الناظر اليها نظرها الى أعمال السحر والسموذة ، لا يسمع لقوله تعالى : (وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون) وقوله : (ان نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين)

الثاني لاشك في أن القرآن النازل على النبي العربي الذي يجدونه مكتوبا في التوراة والانجيل ، أعظم معجزات هذا النبي بل أفضل معجزات الأنبياء على الإطلاق كما قلنا

من قبل أيضا ، لأن غيره من المعجزات الكونية إنما هي وسائط لتصديق النبي وعلامات صدقه في دعوى النبوة عن الله والبعث الى الناس ، والغاية التي تأتي بعدها هدايتهم الى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة . فالقرآن المعجز يمد العاقل فيه الغاية والواسطة معا . فاذا كانت معجزات الأنبياء تلفت الأنظار وتستجلب القلوب الى الكتب المنزلة عليهم والى قبول ما فيها من الأوامر والنواهي على أنها بلاغ من الله ، فالقرآن يلفت بنفسه الى نفسه والى قبول ما فيه حقا وصدقا بل الى قبول ما في الكتب المنزلة قبله أيضا . ولذا قال تعالى : (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وقال (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأت بهم بينة ما في الصحف الأولى) يعني أولم يأتهم القرآن الذي هو بينة وشاهد صدق لنفسه ولغيره من الكتب المنزلة الأولى حيث نزل بالحق مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل وغيرها . ويحتمل أن يكون المراد من بينة ما في الصحف الأولى ما في الكتب المنزلة قبل القرآن من التبشير بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم

وليس في توبيخ مقترحي الآيات بأن يقال : أولم يكفهم القرآن آية أو : أولم يأتهم القرآن ، ما يستلزم عدم وجود معجزة لنبينا غير القرآن ؛ كما أن اجابتهم بأن الله قادر على أن ينزل آية أو أنه يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب أو إنما الآيات عند الله أو إنما أنت منذر لا تستلزم عدم وجود معجزة له مطلقا ^(١) وحسبك أنها لم تمنع وجود معجزة القرآن ، بل الواو في (أولم يكفهم ..) أو (أولم تأتهم ..) تدل على أن له معجزة غير القرآن ، والمعنى : ألم يكفهم الآيات ولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب

(١) كما أن جواب القرآن لما قال القائلون لرسلم من الأمم الماضية : إن أتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قائلا : (قالت لهم رسلم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن تأتكم سلطان الا بأذن الله) لم يستلزم عدم وجود معجزات لأولئك الرسل

يتلى عليهم، ألم تأتهم آية ولم تأتهم بيعة مافي الصحف الأولى .

الثالث ان مقترحي الآيات أى المعجزات على الأنبياء يكونون فى الأكثر من المعاندين المتمردين عليهم لا يريدون الا تعجزهم فاذا جاءتهم لا يقتنعون بها ويطلبون غيرها ، فالله تعالى لا يستجيب لمقترحاتهم ولا ينزل آية يستميلهم بها الى الايمان بنبيه ولو شاركهم النبي فى استنزالها لأن الله يعلم انهم لا يؤمنون كما قال (وما تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) فيمسك آياته عنهم ويصونها عن أن تتخذ هزوا أو تذهب أدراج الرياح . وقد يكونون ممن حقت عليهم الضلالة لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) فيقول الله فيهم لنبيه : (أفأنت تنقذ من فى النار) ويقول (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)

وقد يكون صرماهم فى طلب المعجزات اختباراً لقدرة من يدعى النبوة على إيصالهم الى حظوظ الدنيا الفانية وشهواتها لاهدائهم الى مناهج السعادة الأبدية ومدارج الانسانية الحقيقية ؛ وقد يكون مع ذلك استخفافهم بشأن النبي ﷺ واستعظام شأنهم أنفسهم كما قال الله تعالى : (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً أو يأتى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها) - الفرقان - وقال : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كزعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن أرفيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً) - الاسراء - وقال : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير

الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل النقي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين - الأعراف -
 فالدكتور هيكل باشا أورد من هذه الآيات آيات الأنعام والاسراء مستدلا بهما على أن القرآن ينفي كل معجزة لنبينا ﷺ الا نفسه أي القرآن ؛ وليس فيهما دلالة على مدعاه ، فأيات الاسراء تحكى انهم طلبوا آيات معينة غريبة في بعضها غلو وشطط كقولهم (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) أي كفيلا ، ويفهم من أكثرها انهم طلاب الدنيا لاطلاب الحق فميت عليهم مطالبهم ولم يستجب لهم ، مع التنبيه على ان محمدا ليس باله وانما هو بشر رسول يعمل تحت ارادة الله ؛ وليس في كل هذا دلالة على أن محمدا لم يأت بأى آية ولا يأتى وان أذن الله بها . ومدلول آيات الأنعام انهم أقسموا بالله لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها وقد علم الله انهم لن يؤمنوا اذا جاءتهم ، حتى انهم لو أرادوا أن يؤمنوا لصرف الله قلوبهم وأبصارهم عن الايمان فلا يوفقون له ولا يؤمنون ان لم يشأ الله ولوجاءهم كل موجبات الايمان وحضتهم عليه . فالفهم من هذه الآيات بكل وضوح أن الذين يحكى فيها إقسامهم بالله على انهم ان جاءتهم آية ليؤمنن بها ، ممن حقت عليهم الضلالة فلذلك لا يأذن الله أن تأتيهم آية ، وهذا موضوع يختلف كل الاختلاف عما ادعاه الدكتور المؤلف في هذه الآيات من أنها تدل على أن محمدا ما جاءته آية معجزة غير القرآن وان مقترحها عليه لم يستجب لهم مطلقا سواء كانوا ممن لا يؤمنون ولو جاءهم ماسألوه من الآية أو ممن يؤمل منهم الايمان . فلا دلالة في هذه الآيات على ما ادعاه من أن سيدنا محمدا ما جاءته أى آية غير القرآن ، بل نقول ان فيها ما يدل على محيى آية اليهم أول مرة فلم يؤمنوا بها ثم اقترحوا مرة أخرى فرد عليهم وشدد في الرد وهو قوله تعالى (كما لم يؤمنوا به أول مرة) وفي آية الاعراف تأييد واضح لما قلنا حيث يقول (سأصرف عن آياتنا الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها) . وفي النهاية يقول : (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)

الرابع ان السنة الالهية انزال العذاب على قوم أرسل اليهم رسول فمصوه وآذوه أو سخروا منه ومن آيات نبوته وأصروا واستكبروا استكبارا . وكتاب الله ينص على هذه السنة الالهية في قوله (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) وقوله (فهل ينظرون الا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا انى معكم من المنتظرين) وقد ذكرنا فيما سبق أن المراد من سنة الله التى قال الله عنها فى كتابه : لن تجدها تبديلا ولن تجدها تحويلا والتى حملها الغافلون على سنن السكون الطبيعية وبنوا عليها انكارهم المعجزات الكونية ، سنته فى نصر أنبيائه وتدمير أعدائه ، ويكون هذا النصر وهذا التدمير آخر معجزات الأنبياء بالنسبة الى المتمردين عليهم ، وتتقدم هذه المعجزة معجزات الهداية فيهتدى من يهتدى ويؤمن من يؤمن ، ويكون فى الباقيين من يطلب معجزة أخرى تفوق الأول ظهوراً وبهوراً وتكون هذه المعجزة المطلوبة هى التى تأتى بعدها معجزة العذاب ؛ ولهذا يعاقل الأنبياء عليهم السلام لاسيما الذين تغلب فيهم الرحمة ، فى الاتيان بهذه المعجزة ^(١) والقرآن يشير الى سنة نزول العذاب بعد هذه المعجزة فى كثير من آياته كقوله : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) - الاسراء - وقوله (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر . فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) - الأنبياء - وقوله :

(١) وفى تفسير الفخر الرازى : قال محمد بن كعب القرظى ان المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم تخبرنا أن موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر الماء وأن عيسى أحيى الميت وان صالحا أخرج الناقة من الجبل فأتنا أنت أيضاً بآية لنصدقك فقال عليه السلام ما الذى تحبون فقالوا ان تجعل الصفا ذهباً وحلفوا لئن فعل ليتبعونه أجمعون فقام عليه الصلاة والسلام يدعو ، فجاءه جبريل فقال ان شئت كان ذلك وإن كان فلم يصدقوا عنده ليعذبهم الله وان تركوا تاب على بعضهم فقال صلى الله عليه وسلم بل يتوب على بعضهم فأنزل الله تعالى هذه الآية « أى آية الأنعام

(لو مانتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ما نزل الملائكة الا بالحق وما كانوا إذا منظرين) - الحجر - وقوله : (وقالوا اولا أنزل عليه ملك واو أنزلنا مائكا تقضى الأمر ثم لا ينظرون) - الانعام - وقوله : (قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين قال الله انى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فانى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين) - المائدة - وقوله : (واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) - الانعام -

وصدر الآية يدل على أنه كانت تأتيمهم آية ولكنهم كانوا يغالون فى الآية التى يؤمنون بها الى أن يقترحوا نزول الوحي عليهم ويؤتوا منصب الرسالة من الله . وطبيعى أن تقابل هذه الطلبات الطائشة منهم بالرفض والتوبيخ والانذار وهذا كما قال بنو اسرائيل لسيدنا موسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) - البقرة -

فآيات التى طلبوها من نبينا ﷺ ولم يستجب لهم فيها لم يكن سبب عدم الاستجابة أن نبينا دأبه أن لا يستجيب لطلب الآية لعدم كونه نبيا كما زعم المستشرقون ولا لعدم كونه لا يستجيب لطلب المعجزة الكونية كما زعم مقلدو المستشرقين منا تقليداً أعمى ، وكيف يكون السبب أحدهذين الأمرين الزعومين مع أن بعض الآيات القرآنية الحاكية للطلبات المرفوضة نفسها يفهم منها أن النبي ﷺ كان يأتيهم بآية وانما الرفض مبنى على أسباب مختلفة فصلناها قريباً . وكان آخر ما ذكرنا أن طالبي الآيات لما لم يقتنعوا بما أتى منها وطلبوا آية أعظم وأبهر ، أنذروا بما هو سنة الله فى الأمم الماضية من انزال العذاب بعدها ان لم يؤمنوا بها أيضاً ، ولم يشأ الله استئصال أمة بعث اليهم آخر أنبيائه بانزال العذاب عليهم ، لاسيما وان هذا النبي لا يفتأ يدعوهم قائلًا : (اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون)

وعلى قول الفاضل الهندي متم كتاب السيرة ان معجزة شق القمر كانت هي آية نبينا الباهرة التي يأتي بعدها العذاب في سنة الله ان لم يؤمنوا بها أيضا ^(١) وهي كانت على تحقيقه آخر آيات الهداية ولهذا وقعت قبل الهجرة بقاليل التي هي أيضا من سنة الله لما أراد انزال العذاب على قوم نبي ، فيأمر النبي ومن معه أن يخرجوا من بينهم وكان يوم بدر يوم انزال العذاب على مشركي مكة

فقد تبين مما سبق منا الى هنا ان القرآن ، فضلا عن عدم شهادته بنفي وجود معجزة غيره لنبينا ﷺ التي ادعاها منكرو معجزاته الكونية ، فيه دلالة بل دلالات على وجود معجزات له غير القرآن . وألطف نواحي المسألة دلالة بعض الآيات التي يستشهدون بها على عدم وجود معجزة له غير القرآن ، على وجودها . فيظهر ان معالي مؤلف « حياة محمد » لم يتبع القرآن عند دعوى النفي وانما اتبع المستشرقين واقتنع بما أوردوه من الشواهد ، وزيادة على عدم تتبعه بنفسه لم يستعمل دقته فيما وجد حاضرا عنده من أدلتهم المأخوذة من القرآن ، فقد ساق آية الأنعام الطويلة دليلا على رفض القرآن الطلبات والاقتراحات بصدد المعجزات وهي قوله تعالى : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها .. الآيات) مع ان فيها قوله : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) دليلا واضحا على انهم أنهم آية من قبل فلم يؤمنوا بها . لكن المؤلف لم ير هذه الجملة الناقضة لدعواه حين أورد الآية لاثبات تلك الدعوى ، فكان دليله يضره بينما هو ينفعه .

والآن نورد شواهد من القرآن نفسه تدل على وجود معجزات لنبينا ﷺ غير القرآن ، وان كان بعض تلك الشواهد مجملا لا يدل على حادثة معينة . ولأسنا بصدد

(١) انظر هذا القول من ذلك الفاضل ثم انظر كيف تكون هذه المعجزة الباهرة التي يأتي بعدها العذاب عبارة عن تخيل الانشقاق من غير وقوع الشق ، ذلك القول الذي حكاه عن الدهلوي والغزالي وأجازه . وقد نقلناه من قبل مع الرد عليهم

التفصيل لواقعات المعجزات فحلها كتب الحديث والسيرة وكتب دلائل النبوة^(١) وحسبنا في صددنا ما أشير اليه في الآيات الآتية :

- ١ وما تأتتهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين - الأنعام -
- ٢ وما تأتتهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين - يس -
- ٣ وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر - القمر -
- ٤ وان يروا آية يستسخرون ويقولون هذا سحر مبين - الصافات -
- ٥ واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله أعلم حيث يجعل رسالته - الأنعام -
- ٦ زيادة الواو الدالة على آية أو آيات مقدرة يعطف عليها ما بعدها في قوله تعالى : (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم - العنكبوت - والمعنى ألم تكفهم الآيات ولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم
- ٧ زيادة الواو في قوله تعالى : (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتتهم بينة ما في الصحف الأولى) - طه - والمعنى ألم تأتتهم آية ولم تأتتهم بينة ما في الصحف الأولى
- ٨ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة - الأنعام - وتتمام الآية (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) والشواهد الثلاثة الأخيرة من شواهد نفاة المعجزات غير القرآن، معكوسة عليهم
- ٩ قد كان لكم آية في فتنين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين - آل عمران -

(١) وقد أحصى الفاضل الهندي متم السيرة التي بدأ كتابتها المرحوم مولانا شبلى نعمان ، معجزاته صلى الله عليه وسلم الثابتة بالروايات الصحيحة في كتب الحديث والسيرة وغير الثابتة بها

١٠ واذيركموهم اذ التقيتم في أعينكم قايلا ويقول لكم في أعينهم ليقضى الله أمرأ كان مفعولا - الأنفال -

١١ اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سأتى فى قلوب الذين كفروا الرعب - الأنفال -

١٢ واذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين - الأنفال -

١٣ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى - الأنفال -

١٤ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله أعلـمكم تشكرون اذ تقول للمؤمنين

ألن يكفيكم أن يعدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى ان تصبروا وتتقوا

ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين - آل عمران -

١٥ اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين

- الأنفال -

١٦ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله

وما زادهم الا ايمانا وتسليما - الأحزاب -

١٧ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا

وجنودا لم تروها - الأحزاب -

١٨ لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن

عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله مكينته على

رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا - التوبة -

١٩ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزؤا ان الله

مخرج ما تحذرون - التوبة -

٢٠ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم

فكف أيديهم عنكم - المائدة - نزلت في بني النضير من اليهود لما ائتمروا بالنبي ﷺ حين أتاهم مع بعض خواص أصحابه يستقرضهم في دية رجلين وقد كانوا عاهدوا النبي على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الديات فقالوا اجاس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد ثم تآمروا على أن يطرح أحدهم رحي من فوق الجدار الذي جاس مستنداً إليه فنزل جبريل وأخبر بذلك

٢١ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر - النحل - نزلت في مهاجري المسلمين الى الحبشة لما خاف عليهم اخوانهم في مكة بما كان يعمل المشركون على اخراج موافقهم بالمهجر متوسلين اليه بالتأثير عند ملك الحبشة بارسال الهدايا الى موظفي قصره . قاله تعالى خيب مسعاهم وطمان المؤمنين على حالة اخوانهم المهاجرين

٢٢ وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذاً لا يلبثون خلافاً الا قليلاً سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلاً - الاسراء - نزلت في هجرة الرسول ﷺ منبئة بدنو هلاك الذين أخرجوه من بلده . وكان المؤمنون وقت الهجرة ونزول الآية في غاية الضعف ، فما مضت سنة حتى قتل صناديد قريش في بدر وفاز المسلمون بالنصر الموعود

٢٣ أم يقولون نحن جميع منتصر سيمهزم الجمع ويولون الدبر - القمر -

٢٤ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا - النور - كان المؤمنون وقت نزول الآية في قلة وعجز لا ينامون الليالي آمنين على حياتهم من مهاجمة الأعداء المحيطة بهم . فمن ذا الذي كان يطوف بباله أن تكون من المسلمين دول عظمى تعلو كلتهم في وجه البسيطة كما تبشر به الآية ؟ حتى انه كان من المستبعد أن يتغلب المسلمون على قبائل العرب المجتمعة على معاداتهم . والآية المتقدمة

تنبى بتمزق القبائل أمامهم

٢٥ ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد - القصص -

٢٦ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين
- الفتح - الايتان تبشران بفتح مكة وكانت الاولى منهما نزلت اثناء الهجرة منها
والثانية عند العودة من الحديبية

٢٧ قل للمخلفين من الأعراب ستمدعون الى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو
يسلمون - الفتح - اشارة الى الحروب الواقعة في عهد الخلفاء الراشدين

٢٨ ألم غابت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون فى بضع سنين لله
الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز
الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده - الروم - والآيات الاحدى عشرة الاخيرة
تتضمن الاخبار عن الغيب الذى هو من المعجزات الكونية لكونه مخالفا لسنة الكون
٢٩ واذا صرفنا اليك نفرأ من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما
قضى ولوا الى قومهم منذرين - الاحقاف -

٣٠ سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى
باركنا حوله لئريه من آياتنا - الاسراء -

٣١ اقتربت الساعة وانشق القمر وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر
- القمر -

قد بينا ما فى آيتى القمر من مؤيدات وقوع معجزة انشقاق القمر بل وقوع غيرها
أيضا ، وأبطلنا تأويلات المنكرين المتعمدين والغافلين . والآن نقف على معجزة
الاسراء وننظر فى نصها ونرد أوهام المتأولين . والدكتور هيكل باشا مؤلف كتاب
« حياة محمد » الذى أغفل معجزة شق القمر فى كتابه بالرة كما أغفل غيرها ، تعرض
لنبأ الاسراء لا على أنه معجزة بل ذهب فى سبيل نفي اعجازه مذهبا أبعد من المعجزة لان

المعجزات من الممكنات في مذهب العقل السليم وقد فصلناه في أول هذا الكتاب، وما ذهب إليه هيكل باشا في تأويل معجزة الاسراء وهو وحدة الوجود محال كما علمت تحقيقه في الفصل الاول من الباب الثاني من الكتاب الكبير . ولا يدرى معاليه أن وحدة الوجود فكرة لا تخص على تقدير صحتها وامكانها بنبي دون نبي ولا بانسان دون انسان ولا بوجود دون موجود ولا بوقت لذلك النبي أو ذلك الانسان أو ذلك الموجود ، دون وقت ، لان كل الموجودات في مذهب وحدة الوجود موجود واحد وهو الله . فنضرب عن هذا التأويل الحديث لمعجزة الاسراء ، المستغنى لبطلانه عن الابطال صفحا ، وننظر في التأويل القديم :

آية الاسراء في القرآن صريحة غير قابلة للتردد والتلكؤ في أن الله تعالى أسرى بعبد له ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى . فكما لو قلت سرى من محل فلانى الى محل فلانى لا يكون وجه للتردد والسؤال هل كان ذلك بجسمك أم بروحك وفي اليقظة أم في المنام ؟ فكذلك لا يجوز الاختلاف في معنى هذا السرى ولا في أن العبد اسم للروح أو الجسد أو لهما معا ، كما وقع بين القائلين بالاسراء الجسماني والاسراء الروحاني

نعم يخطر بالبال كيف يمكن السرى ليلا أى في جزء من الليل من مسجد الى مسجد بينهما مسافة شهرين ذهابا وإيابا ؟ ثم لما نظر الى تعبيرات القرآن ورؤى انه لا يقول سرى محمد بل يقول ان الله أسرى به مع التسبيح لهذا الذى أسرى به وتنزيهه من الكذب والعجز ، زال كل شبهة وكل تردد عن أساسه . فاذن يلزم أن يكون فعل الاسراء الذى يقول الله تعالى انه فاعله والذى يسبح قائله لنفسه من حيث انه فاعله ويعبر عن السرى به بعبد المشرّف بتمحضه في عبوديته ثم يذكر الغاية لهذا الفعل بقوله : (لتريه من آياتنا) ، فعلا في منتهى الخطورة والأهمية ويلزم أن يبقى مصونا

عن كل تأويل ينقص من خطورة وأهميته^(١)

ففي جنب هذا التصريح العظيم يذوب كل ما قيل أو يقال في تأويله . فمنه ما ذكر ابن هشام في سيرته وابن جرير في تفسيره من روايتين عن معاوية وعائشة رضي الله عنهما وهما أن محمد بن اسحق قال حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة أن معاوية كان يقول لما سئل عن المعراج انه كان رؤيا صادقة ، وان ابن حميد قال حدثنا سلمة عن محمد يعني ابن اسحق قال حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة كانت تقول : « ما فقد جسد رسول الله » ، مع أن في الرواية عن معاوية انقطاعا لأن ناقل الخبر الى ابن اسحق لم يسمعه عن معاوية لعدم كونهما في عصر واحد ؛ وفي الرواية عن عائشة لم يذكر اسم من روى عنها من أقاربها وانما عبر عنه ببعض آل أبي بكر ، وفيها شيء آخر وهو ان عائشة لم تكن في زمن الاسراء بموقف أن تقول القول المروى عنها لأن الاسراء وقع قبل الهجرة بسنة أو أكثر وتزوج النبي بها في المدينة وهي على المشهور في التاسعة من عمرها فتكون في زمن الاسراء طفلة في السابعة ، ولم يبت رسول الله ﷺ ليلته تحت مراقبة عائشة التي لم تكن زوجه وقتئذ ولا مراقبة غيرها من آل أبي بكر حتى يكون من حقها أوحقه أن يقول ما فقد جسد رسول الله !!

(١) حتى ان محاولة تقريب الاسراء من الأذهان وإثبات امكانه بأمثلة من مكتشفات العلم في العصر الأخير ، كما توسل اليه أيضا مؤلف «حياة محمد» - وحكاة فضيلة الأستاذ المزاغي في تعريفه بهذا الكتاب من غير تكبر بل بشيء من الاعجاب - بعد ان توسل بوسائل كثيرة أخرى في انكار المعجزات الكونية ، مما ينقص من خطورة هذه الحادثة لدرجة تنزيلها من السماء الى الأرض وتعتبر عندي نزعة من نزعات انكار المعجزة ، ورد مالا يمكن انكاره من حادثاتها الى أحضان العلم الطبيعي شكل من أشكال الانكار . لأن العلم الطبيعي يبني كل شيء الى سبب طبيعي في حين اننا نفى بالمعجزة ما يكون فوق الطبيعة سببا وعلميا فلا يوجد لها سبب من الطبيعة ولا طريقة من العلم . وانما مبناها على إرادة الله التي هي السبب الأعلى والتي تستند اليها الطبيعة وغيرها على السواء . فعلى قارئ هذا البحث ان يعتنى قبل كل شيء الى هذه الدقيقة . ولو كان للعلم سبيل الى المعجزة التي هي من خواص النبوة لكان التقدم في العلم يصعد بالعالم الى ان يجعله نبيا من الأنبياء وليس هذا مذهبنا بل مذهب القائلين بالنبوة المكتسبة الراجع الى نفي النبوة الحقيقية والذي سبق منا لابطاله

والدليل الثاني للمؤولين قوله تعالى : (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس)
فيعبر عن الاسراء بالرؤيا . والجواب ما في صحيح البخارى ومسلم من قول ابن عباس رضى
الله عنهما « ان هذه الرؤيا رؤيا عين أريها رسول الله لما أسرى به الى بيت المقدس
كقول الراعى :

فكبرَ للرؤيا وهش فؤاده وبشر نفسا كان قبلُ يلومها

وقول المتنبي :

مضى الليل والفضل الذى لك لا يمضى ورؤياك أحلى فى العيون من الغمض
فيفهم انه قد يقال للرؤية فى اليقظة رؤيا اذا وقعت فى الليل . فان اعترض على
الاستشهاد بقول المتنبي والراعى فى اللغة فلا كلام على الاستشهاد بقول ابن عباس
ولى فى المسألة رأى آخر وهو ان النزاع على فرض وقوعه بين الصحابة فى الرؤيا
المذكورة فى الآية ، يلزم أن يكون راجعا الى ما بعد الاسراء من المسجد الحرام الى
المسجد الأقصى المنصوص عليه فى صدر السورة ، فتكون الحادثة مفترقة الى قسمين
ويمكننا أن نسمى القسم الأول الاسراء كما سماه الله والقسم الثانى المعراج كما وقع فى
الرواية عن معاوية . والأول ثابت بالكتاب والثانى بالحديث المشهور . والرؤيا
المذكورة فى الآية الثانية على أى معنى كانت ، راجعة الى هذا القسم الذى وقع فى ذيل
الاسراء المذكور فى الآية الأولى لا الى الاسراء نفسه والا فكيف يمكن بعد ان قيل
بأجلى صراحة توقظ النائم عن نومه والغافل عن غفلته : (سبحان الذى أسرى بعبده
ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) ان يقال
فى آية أخرى ان حديث الاسراء كان رؤيا منامية ؟ !

ولا يصعب فهم ما ذهبنا اليه من تفريق المسألة الى قسمين وجعل الرؤيا راجعة الى
القسم الثانى ، من لفظ ابن عباس : « ان هذه رؤيا عين أريها رسول الله لما أسرى به
الى بيت المقدس » حيث جعل الاسراء ظرفا للرؤيا ولم يجعل الرؤيا ظرفا للاسراء ،

فيكون الخلاف في الرؤيا الواقعة في الاسراء الذي لاخلاف فيه ، فابن عباس لا يرضى أن يكون عروج رسول الله ﷺ الى السماوات ورؤية مارآه فيها ليلة أسرى به الى المسجد الأقصى ، وهو الذي عبرنا عنه بالقسم الثاني من واقعات تلك الليلة - حالة منامية كما لم يكن الاسراء الى المسجد الأقصى الذي هو القسم الاول حالة منامية ؛ وعلى قول معاوية في الرواية الضعيفة عنه يكون الاسراء عيانا وما بعده رؤيا صادقة ، والا فليس لمعاوية ولا لأى مسلم يفهم الكلام العربى ويفقه الفرق بين أساليب الالتقاء أن يتردد في تصديق كون الاسراء من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى المصرح به في أول السورة المسماة به ، واقعة عيانية . فاذن لابد أن تكون رواية الرؤيا عن معاوية اما محمولة على ما بعد الاسراء أو مكذوبة عليه . وهكذا نعتبر كل رواية في تفسير الحادثة تخالف نص القرآن ، مرفوضة

وحمل الرؤيا في الآية الأخرى على الحالة المنامية كما ينافى الصراحة الرائعة للآية الاولى يتنافى أيضا مع ما ذكر في آية الرؤيا نفسها من جعل تلك الرؤيا فتنة للناس اذ الرؤيا المنامية مهما أمعنت في الغرابة لا تكون فتنة للناس . فلو كان نبأ الاسراء من أوله الى آخره رؤيا في المنام لم يلتزم أول الآية التى ذكر فيها الرؤيا مع آخرها ، وقد روى أن حكاية النبي ﷺ ما جرى في ليلة الاسراء أثارت الدهشة في سامعها من المسلمين والمشركين حتى كان بينهم من ارتد عن الاسلام استبعادا للأمر وذهب بعض من أخذتهم الريبة الى أبى بكر وحدثوه حديث النبي ﷺ فقال انكم تكذبون عليه يعنى انه استبعد أيضا، قالوا ها هو ذاك في المسجد يحدث الناس فقال بعد أن اقتنع بأنه حديثه : « لئن كان قد قاله لقد صدق انه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء الى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فاصدقه »

والمعجب ان الكاتب الكبير الهندى الذى مر ذكره غير مرة والذى ألف في عصرنا كتابا في السيرة قويا جدا اذا قسناه بكتاب معالى هيكل باشا وجدنا مسافة الفرق

الفرق بينهما أكثر من مسافة الفرق بين كتاب معاليه وبين كتاب واحد من المستشرقين في هذا الموضوع ، وخص مجلدا كبيرا من مجلداته - وقد قسم هذا المجلد في الترجمة التركية الى مجلدين - بحياة نبينا الروحانية أعنى معجزاته ؛ العجب ان هذا الكاتب ^(١) مع عدم تردده في وجود معجزات له ﷺ غير القرآن وقد أحصاها في المجلدين المذكورين من كتابه ومع عدم تردده في كون الاسراء واحدا من أعظم تلك المعجزات ؛ اختار مذهب الرؤيا فيه مطلقا أو على الأقل لم يكن واضحا في التفريق بين قسميه اللذين ذكرناها واللذين أحدهما ثابت بالكتاب يكفر منكروه والثاني ثابت بالسنة المشهورة . ثم أجاب عن الاعتراض على هذا المذهب بعدم معقولية كون الرؤيا فتنة للناس لدرجة ان مسألة الاسراء سببت ارتداد طائفة من المسلمين الذين كانوا أسلموا قبلها ، أجاب عن هذا الاعتراض بعدم قبول رواية الارتداد مع ما فيها من امتياز أبي بكر رضى الله عنه بالمسارعة الى تصديق النبي صلى الله عليه وسلم حتى لقب بالصديق

وأنا أقول فلنسلم ان هذه الروايات مختلقة عن آخرها ، ولكن ماذا نقول في تصريح آية الرؤيا بكونها فتنة للناس ؟ ! فلا بد أن تكون هناك بالنظر الى نص القرآن فتنة ان لم تكن للمسلمين فلمشركين باثارة استبعادهم وانتهازهم فرصة امتحان الرسول بأسئلة عن القدس والمسجد الأقصى وعن الطريق بين البلدين . ولا يعقل ان تكون الرؤيا المنامية داعية الى أعظام الأمر لحد أن تجعل فتنة للناس بأى وجه كان ، فإن أجاب أخونا الفاضل المذكور باحتمال ان يكون الشركون لم يظنوها رؤيا ، فمن المستبعد جدا أن يظنوا ماحدثهم رسول الله على انه رؤيا ، عيانا وليس بمجد لذلك ان تعد هذه الاعتراضات عقلية ، فهى عقلية مبنية على أساس نقلى هو كون القرآن صرح بأن الله جعل الرؤيا التى رآها رسوله فتنة للناس ، فنحن لاحالة مضطرون الى الأخذ بقول ابن عباس في الرؤيا كيلا يكون لآية الرؤيا نفسها معنى

(١) أو بالأصح تم كتابه بعد وفاته وهو الفاضل سليمان الندوى

مختل غير معقول ، فيكون لفظ الرؤيا حقيقة في معنى الرؤية مطلقا ويكون قول ابن عباس أو استعمال القرآن بالذات شاهدا لغويا يجب إكمال ما في المعاجم من النقص توفيقا له ، أو يكون استعمال الرؤيا في معنى الرؤية استعمالا مجازيا خاصا بالرؤية ليلا كما ذهب إليه بعض المفسرين وكما وقع في شعر المتنبي المار بالذكر

ثم ان هذا المؤلف الفاضل عقد للمعجزات ٣١ فصلا و ذكر في الفصل الرابع عشر الذي خصصه مع الفصل الثالث عشر لمعجزة الاسراء ، أسرارها وأحكامها وبشائرهم ونعمهم ومناداتها مجيدا في الذكر ومفيدا غاية الاجادة والافادة فكاد يطبق سورة الاسراء التي في القرآن الكريم من أولها الى آخرها على واقعة الاسراء وما تضمنته من الأسرار والأحكام . ونحن نذكر ما يمكن ذكره في بعض صفحات مما خصص له المؤلف ٢٥ صفحة . في سورة الاسراء :

- ١ اعلان كونه ﷺ نبي القبلتين
- ٢ اشارة الى انتهاء ولاية اليهود وجراستهم القدس وتفويض ذلك الى آل اسماعيل
- ٣ اشارة الى انتهاء دور الوعظ والنصح لكفار قريش واقتراب دور العذاب منهم ، باخراج الرسول من بينهم مهاجرا
- ٤ الأحكام والوصايا في المعراج
- ٥ الأمر بالصلاة والاشارة الى أوقاتها الخمسة

(١) في معجزة الاسراء والتنويه به في مطلع السورة المسماة باسمه ، مناداة النبي ﷺ وإعلانه نبي القبلتين : فقد كان سيدنا ابراهيم أعطى ولاية الأرض المقدسة قسمها بين إبنيه : شبه جزيرة العرب وفيها مكة لاسماعيل ، وسوريا وفيها القدس (١٣ - القول الفصل)

لا سحق ، فتمهد القدس بنو اسرائيل الذى هو لقب يعقوب بن اسحق وفيهم أنبياء بنى اسرائيل من يوسف الى عيسى عليهم السلام . وتمهد مكة بنو اسماعيل ، وكانت قبلة بنى اسرائيل بيت المقدس وقبلة بنى اسماعيل الكعبة فجمع فى نبينا ميراث ابراهيم المنقسم بين نجليه ! فلذلك صلى الى القبلتين بمد أن فرضت الصلاة ، ولذلك أسرى به ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وصلى فيه بالأنبياء فأعلن كونه نبي القبلتين ، وفى هذه الليلة فرضت الصلاة كما انه أشير الى أوقاتها الخمسة فى سورة الاسراء نفسها

(٢) كانت سورة الاسراء نزلت بحكمة . ولما أنه ليس لرسول الله اتصال باليهود فى مكة لم يكن القرآن يخاطبهم ، فخاطبهم أول مرة فى هذه السورة اشارة الى افتتاح دور جديد فى الاسلام باقتراب الهجرة الى المدينة وتأسس المناسبة فيها بين المسلمين واليهود ، فذكر ان اليهود الذين أوتوا التوراة هدى لهم قضى اليهم أنهم ليفسدن فى الأرض مرتين بغياً وعتواً وليجزون بسوء أعمالهم . فى المرة الأولى سُلط عليهم بختنصر فدمرهم وخرب ملكهم ثم تابوا فتاب الله عليهم وأعاد اليهم دولتهم ، وفى المرة الثانية سُلط عليهم الرومانيون فقتلوهم وخربوا ديارهم . ثم بعد مبعث محمد ﷺ أعطاهم الله فرصة التوبة للمرة الأخيرة : فإن تابوا وأطاعوا الرسول فالله يرحمهم ، وإن عادوا الى المعاصى عاد الله الى العقوبة . فإن لم ينتهزوا الفرصة فسيحرمون نهائياً حراسة بيت المقدس ويجمع ميراث اسرائيل الى ميراث اسماعيل فيتولاها النبي ﷺ معاً ، وهذا نص القرآن :

(وآتيناه موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل أن لا تتخذوا من دونى وكيلا . ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً . وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أحسنتم

أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا. عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا)

(٣) وفي هذه السورة أيضا إنذار نهائي لكفار قريش فقد كانوا يستعجلون النبي ﷺ بالعذاب تمرداً عليه ، فأنبئوا أن الله لا يعذب قوماً حتى يبعث إليهم من يهديهم إلى صراط الله وحتى ييأس المهادي من اجابتهم الدعوة وفي هذه الحالة يرى اتفاق الترفين والمستكبرين على اسكات الحق وخنق صوته ، ويكون الذين ينحازون إليهم الواثقين بقوتهم وثروتهم والنحازون إلى المهادي هم الضعفاء والفقراء كما وقع للنبي ﷺ مع قومه . فكانت الحالة مؤذنة بقرب مجيء الأمر للنبي ومن معه بالهجرة وانزال العذاب على الباقيين . وفي هذه السورة إشارة إلى كل هذا ، حتى أن فيها تبشير المؤمنين بفتح مكة بعد الهجرة وزوال نعمتي الاشراف عليها وحراسة الكعبة من أيدي كفار قريش وانتقالها إلى المؤمنين ، انظر إلى قوله تعالى :

(ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً . ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولاً) وقوله (وكل انسان أزمان طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً . من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفينا ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً . وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً) وقوله (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك الا قليلاً . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلاً) وقوله (وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني

مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا . وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا)

فكما أن في نبأ استفزازهم النبي ﷺ ليخرجوه من أرضه وتلقينه الدعاء الخير في مدخله ومخرجه ، إشارة واضحة الى اقتراب هجرته من مكة ، ففي ذكر عدم لبثهم فيها بعد خروجه منها الا قليلا وتعليمه أن يسأل السلطان النصير له من عند الله في مدخله ومخرجه ، ثم يقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، إشارة الى اقتراب موعد الهلاك من كفار قريش والنصر للمؤمنين عليهم وفتح مكة ، حتى ان النبي ﷺ لما دخل مكة فاتحا وطهر الكعبة من الأوثان قرأ هذه الآية من سورة الاسراء النازلة في مكة قبل الهجرة أعني : (وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا)

(٤) ان الله تعالى دعابده الخاص الى لقائه الأقدس لتولية الكعبة وبيت المقدس وأوصاه الوصايا الآتية كشروط التولية :

(لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا . وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا اولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله

الا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً . وأوفوا الكيل إذا كلمت وزنوا بالقسط من المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً . ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً)

ثم قال (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) كما قال في سورة النجم بعد قوله : (ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى : (فأوحى إلى عبده ما أوحى) والوصايا المذكورة في الآيات التي كتبناها اثنتا عشرة وصية جامعة لأسس الخير والشر في الدنيا . يقول المؤلف : « وهذه الأوامر الإلهية تكمل الأوامر العشرة التي تلقاها سيدنا موسى من ربه في الطور » ثم ذكر الأوامر العشرة هكذا :

لا إله لكم غيري

لا تحلفوا كاذبين

اذكروا يوم السبت

احترموا الوالدين

لا تسفكوا الدماء

لا تزنوا

لا تسرقوا

اجتنبوا شهادة الزور ضد جيرانكم

لا تطعموا في امرأة جاركم

لا يضلكنم مال جاركم

وفي السورة إشارة أيضاً إلى الصلوات الخمسة التي فرضت في ليلة الإسراء وهي

قوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر) أى أدمها من وقت زوال الشمس الى اجتماع ظلمة الليل ، وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين بالاستمرار بل اقامة كل صلاة في وقتها الذى حدد لها ببيان جبريل ، كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه . فيدخل فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء . ولعل الاكتفاء ببيان المبدأ والمنتهى في أوقات الصلاة من غير فصل بينها لما أن الانسان يكون فيما بين هذه الأوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض ، بخلاف أول وقت العشاء والفجر فان الاشتغال فيما بينهما بالنوم يقطع أحدهما عن الآخر ، ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الأوقات . والمراد بقرآن الفجر صلاة الفجر سميت به لكونه ركنها كما تسمى الصلاة بالركوع والسجود تسمية الكل باسم الجزء ، ومن السنة اطالة القرآن في صلاة الفجر

بقى ان نقول : من العجب اختيار أخينا الفاضل الهندى متمم السيرة الذى كشف اللثام بمهارة عن أسرار ليلة الاسراء وأحكامها ، كون الاسراء نفسه حالة منامية ، وهو لا يفرق بين الاسراء والمعراج وإنما يعتبرهما حادثة واحدة مذكورة باسمين ، أليس عجيبا أن تكون تلك الأحكام الجامعة لأسس الخير والشر الآمرة ببعضهما والناهية عن الآخر ، أوحيت في الرؤيا حتى الصلوات الخمس أيضا فرضت في المنام !! وان كانت رؤيا النبي ﷺ لا تقاس برؤيا غيره ونومه بنوم غيره ، فهل سورة الاسراء أيضا التى طبق السكاتب معظم آياتها على حادثة الاسراء نزلت في المنام على خلاف سور القرآن الأخرى ؟ ! فالحق ان المعراج أيضا ونعنى به ما بعد الاسراء لم يكن حالة منامية وقد فسرنا به قول ابن عباس في تفسيره -يرقوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس) كما لا احتمال أصلا لأن يكون الاسراء حالة منامية

وهنا انتهينا بحمد الله عن الكلام في مسألة المعجزات . ونريد الآن أن نتكلم في مسألة البعث بعد الموت ، فنقول ومن الله التوفيق والهداية الى القول الحق :

مسألة البعث

لنكرى البعث بعد الموت ، وربما يقال عنهم منكرو الحشر ، صورتان للإنكار وطريقتان توصلانهم اليه . فالصورة الأولى إنكار الحشر بالمرء جسمانيا وروحانيا وهو مذهب ملاحدة الساديين . والصورة الثانية إنكار الحشر الجسماني فقط وهو مذهب الفلاسفة الالهيين أى المعترفين بوجود الله . وقد أنكرها الأستاذ فريدوجدى لما أنكر البعث بعد الموت قبل تولى الوظيفة الأزهرية . وفى الأيام الأخيرة التى أخذ يعترف بالآخرة فى مجلة الأزهر اعترافا يختلسه أثناء كلماته من غير المام الى إنكاره القديم بشيء من الندامة والرجعة ، لابد أن يكون اعترافه مصروفا الى الحشر الروحاني ، لكون هذا الاعتراف المختلس حدث منه بعد نزوعه الى مذهب الروحانيين من علماء الغرب القائلين بوجود الروح ، وليبقى على الأقل أدنى رابطة بين قوله الحديث وقديمه الذى لم يعترف الى الآن بخطأه فيه ، فلا يكون الأستاذ فريدوجدى المقر كأنه غير الأستاذ المنكر تماما

ومذهب الاسلام الجزم بوقوع الحشر وتحقيق عالم الآخرة عند مجيء وقته جسمانيا وروحانيا معاً ، لأن كتاب الله صريح بهذا الصدد لا يكون وراءه صراحة ويكون إنكار الحشر الجسماني بعد تلك الصراحة بل الصراحتان إنكاراً للقرآن ، ولذا أفتى علماءنا بكفر الفلاسفة القائلين بالحشر الروحاني فقط . أما رد الأستاذ فريدوجدى جميع آيات القرآن الواردة فى البعث والحشر وما يلاقىه الانسان فى نشأته الآخرة ، الى التشابهات التى لا تفهم معانيها فليس إنكاراً للقرآن فقط ، بل إنكاراً أيضاً لما فى بدائه العقول وهو كون تلك الآيات مفهومة واضحة المعانى ^(١)

(١) نعم نحن عارفون بكون مراد الأستاذ ان تلك الآيات متشابهة غير مفهومة المعانى لاستحالة وقوع تلك المعانى المفهومة المخالفة لسنن الكون وللعلم الحديث المثبت الذى سبق ان جعله الأستاذ الدولة فى الأرض . واذا كان ذلك مراده لانت تلك الآيات لا يفهم منها معنى من المعانى ، كان معنى الرد الى التشابهات تكذيب القرآن فى تلك الآيات لاسيما فى قوله تعالى مثلاً (أو لم يرو أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى) وقوله (فلينظر الانسان

وأما ما يرى في بعض كتب أصول الدين عند تعداد المذاهب في المعاد من أن مذهب جمهور المتكلمين المعاد الجسماني فقط، فليس معناه حشر الأجساد خالية عن الحياة اذ لا معنى له، وإنما سبب هذا المذهب كون أولئك المتكلمين غير قائلين بوجود الروح مجردة عن البدن، فهي عندهم عرض قائم بالبدن فلا حاجة في مذهبهم الى إعادة الروح لكون إعادة البدن تتضمن إعادة أعضائها. لكن المحققين من المتكلمين كالحليمي والغزالي والراغب وأبي زيد الدبوسي قائلون بوجود الأرواح وحدوثها مع الأبدان - وهو مذهب أرسطو وابن سينا - ثم بقائها بعد مفارقة الأبدان الى أن تعاد لها أبدان تتلاءم مع النشأة الثانية، وهذه الأرواح هي المرادة من الأجزاء الأصلية المحفوظة للانسان كافي «تهافت الفلاسفة» لخواجه زاده. وبهذا تنقذ مسألة المعاد عن لزوم إعادة المعدم بعينه التي يدعى منكروها استحالتها بل بداهة استحالتها

وقوله تعالى (كل شيء هالك الا وجهه) ليس بقطعي الدلالة على هلاك الأرواح مع كل شيء هالك لا احتمال أن يكون معناه هلاك كل شيء سوى الله حتى في حال وجوده لكونه ممكناً يحتاج في وجوده الى من يوجدده وهو الله، فلا وجود لما سوى الله لذاته وكفى بذلك هلاكاً. والهلاك بهذا المعنى يشمل الأرواح أيضاً الباقية بعد الموت

وجهور المتكلمين القائلون بجواز إعادة المعدم بعينه يستدلون بهذه الآية على فناء الأرواح مع الأبدان ويحملون الحشر بالاعادة لا بجمع الأجزاء المتفرقة التي لا مدخل لها في تعيين هوية الانسان وضمها على الأجزاء الأصلية المحفوظة. وهو أي جمع الأجزاء مذهب المحققين المتفقيين مع الفلاسفة في عدم تجويز إعادة المعدم بعينه

ومع كون مذهبهم أسلم من النقاش، ولا مانع عندي من اختياره، فلي بحث في

مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب أنه على رجعته لقادر) وقوله (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) بناء على أن قدرته تعالى لا تتعلق بالمستحيلات وهذه الآيات تصر على دعوى كون الله قادراً على بعث الموتى الذي هو مستحيل عند الأستاذ

دعوى استحالة إعادة المدوم التي انتصبت مشكلة قديمة امام مطلب الحشر الجسماني^(١) وليس معناها أن قدرة الله لاتسع ايجاد نشأة ثانية للانسان في عالم ثان كما خلقهم في حياة الدنيا ، وانما الكلام في امكان أن يكون أشخاص الناس المعادون في النشأة الثانية عين الأشخاص الذين عاشوا في الدنيا وعملوا أعمالا يحاسبون عليها ويجزون بها في نشأتهم الثانية ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وأن لا يكون المجزى غير العامل ، فهل يمكن عقلياً حفظ هذه العينية الأولى في الخلق الثاني أو يستحيل ذلك عقلاً ؛ وان كان لا محل للكلام بين العقلاء المعترفين بوجود الله وقدرته على الممكنات ، في قدرة الله على خلق الخلائق سواء في النشأة الأولى أو في النشأة الثانية . فعلى المسلم المتعلم غير المقلد في دينه وعقيدته أن يطمئن الى كون ذلك ممكناً ككل ما يدخل في عقيدته من متعلقات قدرة الله المشروطة بإمكانها في حد ذاتها ، مع تثبيت معنى الامكان في ذهنه على الوجه الصحيح العلمى ، وانى لا أقصد بالعلم علم الملاحظة الحديث الذى يرى ما لا يدخل تحت التجربة الحسية مستحيلاً كاحياء الموتى لأن ذلك العلم لا يميز المحال من الممكن بمقياسه الصغير الذى هو التجربة الحسية والذى بهذا المقياس أيضاً لا يعترف بوجود الله ، وكان الأستاذ فريد وجدى حين أنكر معجزات الأنبياء والبعث بعد الموت أنكرها بناء على مقياس العلم المذكور

فشكلة الحشر الجسماني في العلم الحديث غيرها في العلم القديم^(٢) بل هي في العلم الحديث ليست بمشكلة أصلاً وانما عبارة عن كون أصحاب ذلك العلم أو بالأصح بعض أصحابه الذين هم الملاحظة الضالون في حدود علومهم عن سبيل العقل ، التمس عليهم عدم وقوع الحشر والبعث بعد الموت فعلاً حتى الآن ، بعدم امكان ذلك أبدياً فظنوا انهم - ولا دليل عندهم غير التجربة - بتجربتهم للماضى جربوا المستقبل أيضاً . أما

(١) حتى انك ترى الصدر الشيرازى صاحب « الأسفار الأربعة » يتشدد في تعيب المتكلمين

لقولهم بجواز إعادة المدوم بعينه وينحى عليهم باللوائم البذيئة

(٢) ولذا قلنا في صدر هذا البحث ان لانكار الحشر من منكره طريقين توصلانهم اليه

مشكلة إعادة المعدوم بعينه بعد الاعتراف بوجود الله وقدرته على خلق الخلائق للعالم والآخر ، أى المشكلة القديمة المتولدة من دعوى عدم إمكان أن يكون المخلوق ثانياً عين المخلوق أولاً الذى هو صاحب العمل الصالح أو العمل السيئ ، فأقوى أدلة المدعين على عدم هذا الإمكان أن المعاد لو كان عين المبتدأ لزم تقدم الشيء أعنى المبتدأ على نفسه أعنى المعاد ، ذلك التقدم المحال الذى هو مرجع بطلان الدور . فإذا قيل لهم اعتراضاً على دليلهم هذا ان الإنسان فى العشرين من عمره مقدم على نفسه فى الأربعين ، بل ان مثل هذا التقدم يحصل له بين أمسه ويومه ، أجابوا بأن هذا لا يضر لعدم تخلل العدم بين المقدم والمؤخر كما تخلل بين المبتدأ والمعاد

والحق عندي ان المانع من الاعادة ان كان لزوم تقدم الشيء على نفسه فهو واقع فى رجل واحد بالنسبة الى زمانيه فى حياته الدنيا ، ولا نسلم بكون تخلل العدم بين المقدم والمؤخر وعدم تخلله فارقاً مؤثراً فى الجواز وعدم الجواز ، لأنه اذا كان معنى عدم جواز دخول العدم بين الشيء ونفسه انه لا يجوز أن يكون الشيء موجوداً ثم معدوماً ثم موجوداً فى أزمنة مختلفة فما المانع من ذلك ؟ وهل الله غير قادر أن يخلق مرة ثانية أحداً من الذين خلقهم ثم أرداهم ؟ ومن أين يجب أن يكون كل ما يخلقه فى المرة الثانية خلقاً آخر غير الأولين ؟ ومن أين يلزم فيما خلق ثم عُدَّ ثم خلق ثانياً ، أن يبقى فى حال عدمه شيء منه ليكون حلقة اتصال بين وجوديه وان لا يمكن خلقه بعينه من دون ذلك ؟ حتى أنهم تصوروا إمكان إعادة المعدوم فى مذهب المعزلة فقط القائلين بأن هويات المعدومات الممكنة متميزة ثابتة فى العدم ثبوتاً منفكاً عن الوجود الخارجى ، لولا ان ذلك المذهب باطل . ولكن لماذا يحتاج خالقه ثانياً الى بقاء مثل هذه الوسائط ؟ ألا يخطئ عند الاعادة فيخلق خلقاً آخر على ظن أنه عين المخلوق الأول ؟ فهل لا يكفيه لئلا يخطئ فى الخلق بقاء المخلوق الأول بعد عدمه فى علمه ؟ ومنشأ المشكلة وهم أنهم أتعجب غاية التعجب من تعلقه بأذهان الناس وفيهم أعظم العقلاء مثل

الشيخ الرئيس ابن سينا وكثير من محقق المتكلمين المتأخرين وكلهم لا يستنكفون عن الاعتراف بوجود الله وسعة قدرته . أما شتم صاحب الأسفار لجمهور المتكلمين بسبب هذا الوهم الحاصل فيه وفي قاداته فشيء لا يكفيه التعجب

وتوضيح الأصرأن تقدم الشيء على نفسه باطل لاشك فيه كما في الدور الباطل وكذا دخول العدم بين الشيء ونفسه لكن لاشيء في إعادة المدوم بعينه من التقدم والدخول المذكورين الباطلين كما أنه لا تقدم ولا تأخر بين الإنسان ونفسه بالنسبة إلى زمانه في الدنيا لأن العین والنفس في الصورتين ليستا عينا ونفسا من كل وجه ، بل المقدم غير المؤخر فيهما بقيد معتبر في كل واحد من الطرفين يجعله غير الطرف الآخر ويجعل تقدم المتقدم على المتأخر ممكنا . فزيد الذي في عالم الآخرة المثاب في الجنة أو المذب في جهنم وزيد الذي كان في الدنيا غيران طبعا ، مهما كانا ذاتا واحدة كما يقال الاثنان غيران ، فلا يكون تقدم زيد الدنيوي على الأخرى تقدم الشيء على نفسه . ولو لم يكن الزيدان المذكوران غيرين لوجد هذا في دنياه نعيم الجنان أو عذاب جهنم ووجد ذاك في الجنة أو النار حالات كونه في الدنيا ، وهذا مستحيل كاستحالة وجود رجل واحد في آن واحد في دارين مختلفتين . وكذا الإنسان في شيخوخته غيره طبعا في شبابه ، والا كان شيخا وشابا في زمان واحد وهو محال

فظهر من هذا ان الزمان بل المكان أيضا داخل في مشخصات الأشخاص وان دخوله لا يمنع الحشر الجسماني على طريقة إعادة المدوم بعينه التي في مذهب جمهور المتكلمين ، كما زعمه خصوم هذا المذهب لان المطلوب في كون المعاد عين المبتدأ ليست العينية من كل وجه المستحيلة والمستلزمة دخول العدم بين الشيء ونفسه أو تقدم الشيء على نفسه بل يكفي وجود الاتحاد الذاتي بين المبتدأ والمعاد على وجه يصح بينهما الحمل بهو هو وان تغايرا من حيث ان المبتدأ متقدم الوجود على المعاد ، لكن لا يمنع هذا التقدم وهذا التغاير كون المتأخر عين المتقدم ومتحداه معه من حيث الذات ، كما لا يمنع

التقدم والتأخير بين زيد الشاب وزيد الشيخ كونهما ذاتا واحدة . والفرق بين كون زيد رجلا واحدا في شبابه وشيخوخته وبين كون زيد المعاد في الآخرة متحد الذات مع زيد السابق في الدنيا، لدخول العدم بين زيدين في الصورة الثانية وعدم دخوله في الصورة الأولى ، ليس بفارق معتد به لأنه اذا أمكن دخول التقدم والتأخر بين الشيء ونفسه يمكن دخول العدم أيضا، والتفريق بين الدخولين في الامكان وعدم الامكان تحكم لا يمكن اثباته من مدعيه . والسبب في امكان دخول التقدم والتأخر بين الشيء ونفسه فيما أمكن أن المتأخر ليس عين المتقدم من كل وجه فهما غيران مع الاتحاد اللدائي كما أوضحنا من قبل، واذا كانا غيرين جاز أن يدخل بينهما العدم أيضا كما دخل التقدم والتأخر

ولقد أخطأ العلماء المحققون الذين لم يجيزوا إعادة المدوم حاكمين باستحالة تقدم المبتدأ على المعاد مع كونهما ذاتا واحدة، قياسا على استحالة تقدم الشيء على نفسه الذي في الدور المحال ، أخطأوا في حكمهم هذا وقياسهم لان هذا التقدم الذي في الدور يتضمن التناقض بان يكون الشيء موجودا قبل وجوده . ولا تناقض في تقدم زيد الذي في الدنيا على نفسه في الآخرة ، وسبب الفرق بينهما ان الشيء مع نفسه في الدور نفسه من كل وجه ولا مغايرة بينهما أصلا، بخلاف تقدم المبتدأ على المعاد . فلا تناقض فيه، فمدار الاستحالة والامكان على وجود التناقض وعدم وجوده، فدخول التقدم بين الشيء ونفسه محال في الدور لاستلزامه التناقض وكذا دخول العدم محال فيه ، ممكن دخول كل منهما في إعادة الوجود في الدنيا الى الوجود الثاني في الآخرة بعد العدم، اذ لا تناقض في هذا التقدم والتأخر كما لا تناقض في تقدم زيد الشاب على زيد الشيخ، ولا تناقض أيضا في دخول العدم بين زيد في الدنيا وزيد في الآخرة كما كان دخوله في الدور موجبا للتناقض : فاذا قلنا ان حركة المفتاح متوقفة على حركة اليد لا يجوز أن نقول وحركة اليد متوقفة على حركة المفتاح لكونه دورا ، وذلك لان القول الأول

يتضمن تقدم حركة اليد على حركة المفتاح تقدم العلة على معلولها، والقول الثانى يتضمن تقدم حركة المفتاح على حركة اليد بأن تكون حركة المفتاح علة لحركة اليد كما كانت حركة اليد علة لحركة المفتاح، فتكون حركة اليد متقدمة على المتقدم عليها وهو حركة المفتاح، والمتقدم على المتقدم على الشيء متقدم على الشيء فيلزم تقدم الشيء على نفسه أى يلزم وجوده قبل أن يكون موجودا وهو تناقض مستلزم لوجوده وعدم وجوده مما فى آن واحد . ولا تناقض فى وجود زيد فى الدنيا قبل وجوده فى الآخرة ولا فى وجوده فى الدنيا شابا قبل وجوده شيخا لعدم كون كل من الوجودين المتقدمين علة للوجودين المتأخرين ولا الوجودين المتأخرين علة للوجودين المتقدمين ، بل الله موجودهما متقدمين ومتأخرين ولأن زمان المتقدم ومكانه مختلفان عن زمان المتأخر ومكانه أو على الأقل زماناهما مختلفان ولهذا أمكن هذا التقدم والتأخر بين الوجودين ولم يضرا بمسألتنا بل نفعاها حتى لو كان زيد فى زمان وجوده فى الدنيا ومكانه فيها موجودا أيضا فى جنة الآخرة أو جحيمها كان محالا، وسبب الاستحالة على هذا التقدير ليس التقدم والتأخر بل كون الواحد اثنين، وكذا لو كان زيد شابا وشيخا فى زمان واحد. ولندكر مثالا ثانيا لتقدم الشيء على نفسه فى الدور المحال ليزداد ما يقابله من التقدم الممكن وضوحا : مثلا يصح القول بأن الدجاجة تخرج من البيضة ويصح القول أيضا بأن البيضة تخرج من الدجاجة ولكن لاصحة لقول القائل مشيرا الى بيضة معينة ودجاجة معينة ان كلا منهما خرجت من الأخرى، اذ لا يمكن أن تخرج الدجاجة من البيضة التى باضتها هى نفسها بعينها. فلا بد اذا كانت هذه الدجاجة خرجت من البيضة كما خرجت البيضة من الدجاجة ، أن تكون تلك البيضة خرجت من دجاجة غير هذه الدجاجة، والا لزم تقدم هذه الدجاجة على نفسها وأن تكون موجودة قبل وجودها لتخرج منها البيضة التى خرجت هى أى الدجاجة منها وهو تناقض محال ودور باطل

وصفوة القول في اثبات النشأة الأخرى أنها ثابتة بـبلاغات صريحة محكمة من الله في الكتاب الذي أنزله على رسوله المؤيد رسالته بالعجزات . فهذا دليل حدوث عالم الآخرة في المستقبل ووقوع ماورد بشأنها في كتاب الله فعلا وجسمانيا . ويلزم مع هذا الدليل الثقلي مهما كان دليلا قطعيا أن يثبت إمكان ذلك العالم بدليل آخر عقلي على معنى أن لا يوجد مانع عقلي من خلق هذا العالم بعد ثبوت وجود الله الذي تسع قدرته جميع الممكنات والذي خلق الحياة الدنيا قبل الحياة الأخرى . وقد تيسر لنا الفراغ بحمد الله من إقامة هذا الدليل العقلي على إمكان المعاد اما بالاستعانة من بقاء الروح بعد افتراقها عن البدن أو بتحقيق جواز إعادة المردوم

ولنا أن نستدل على وجود النشأة الثانية للانسان بدليل « كانت » على وجود الله كما جعلناه فيما سبق دليلا على وجود الأنبياء ترجيحاً على كونه دليلا على وجود الله، بل الدليل المذكور يقوم على وجود النشأة الثانية قبل أن يقوم دليلا على وجود الأنبياء في رأينا وقبل أن يقوم دليلا على وجود الله في رأى « كانت »

ولنا أيضا أن نقول في اثبات الحياة الثانية للانسان في عالم آخر إن كون الانسان مخلوقا أو موجودا في غاية الأهمية لا يتناسب قطعا مع كون وجوده مقصورا على حياته الدنيا القصيرة . فالذين يعتقدون ان الانسان فردا أو أمة يظهر في وجه الأرض مدة كما يظهر النبات ثم ينفى ويتلاشى أبدا وينسى كأنه لم يكن موجودا ولا شيئا مذكورا، فهم قبل كل شيء يحتقرون أنفسهم ويحتقرون عقولهم في ضمن احتقارهم أنفسهم وينكرون البعث بعد الموت بهذه العقول الحقيرة . أما ماقرأته قبل سنين في مقالة نشرت في جريدة « الاهرام » لواحد من الماديين من أنهم ينتظرون من رقى العلم في المستقبل أن يكتشف دواء لكل داء ويرفع الموت فيحصل للبشر الخلود ونعيم الجنان في الدنيا ، فلا ينفع الذين ماتوا من أعظم العقلاء وأكابر المحسنين عملا الماضين والآتين قبل حلول ذلك الزمان الخيل ، ولا يكون عزاء للمتخيلين أنفسهم فلا يتقدم

من الاحتقار ولا ينقذ غيرهم من الضياع الأبدي

وأما استخراج خلود الروح من ثبوت وجودها بالكشفيات الجديدة ثم استخراج وجود عالم الآخرة من خلود الروح كما وقع للأستاذ قريد وجدي رئيس تحرير مجلة الأزهر في بعض تطوراته الجديدة ، من غير اسناد ذلك العالم الى نصوص القرآن لكونها عنده متشابهة لاتصلح دليلا لاثبات أى مطلب — فاستخراج لا يخرج منه ما يصلح للدلالة على المطلوب ، لأن وجود الروح لا يستلزم خلودها ولا خلودها يستلزم وجود عالم الآخرة مطلقا فضلا عن وجوده في صورة جسمانية كما هو المقصد في دين الاسلام مبنيًا على متطوق آيات كثيرة جداً من كتاب الله محكمات

خاتمة الأبواب الثلاثة المتقدمة

وهنا في الكتاب الكبير كنا وضعنا نتيجة لمساعينا في الأبواب الثلاثة السابقة التي هذا الكتاب الصغير مكوّن من ثالث تلك الثلاثة . وقد رأينا اثبات هذه النتيجة بعينها في هذا الكتاب أيضا رجاء نفعها للقارئ الكرام :

نرى من اللازم المفيد أن نسجل هنا ونحن في ختم الباب الثالث من هذا الكتاب على نتيجة مساعينا في الأبواب الثلاثة التي أثبتنا في الباب الأول منها وجود الله وفي الثالث وجود الأنبياء وفي الثاني حدوث العالم ، فلولا ما ثبت في البابين الأولين من وجود الله وحدث العالم لاسيا وجود الله لما أمكن ايضاح كيفية وجود العالم ووضع فلسفة عامة لكيانه أولا ونظامه ثانيا . وملاحظة الماديين والطبيين في عجز تام عن وضع هذه الفلسفة العالمية على الرغم من أنهم علماء الطبيعة الذين احتكروا اسم العلم لما لا يعلمون ، واختلافنا معهم أنهم يعترفون بوجود هذا العالم المحسوس الذي يعبر عنه بالطبيعة ولا يعترفون بوجود فيما وراءه . نعم ، العالم المحسوس الذي هو عالم الطبيعة لا يقف عند حد بل يزداد يوما عن يوم بكشف جديد من علماء الطبيعة فيظهر غداً وجود كثير مما لم يكن لنا بالأمس علم بوجوده ، وملاحظة الماديين

لا ينكرون ذلك، لكنهم لا يعترفون بوجود ما زاد على العالم المحسوس الا بعد ان ثبت وجوده بالتجربة الحسية التي يقوم بها العالم الكاشف، ولا يؤمنون بالغيب الذي تؤمن به، مادام غيباً خارجاً عن متناول الحس، وان شئت فقل : لا يؤمنون بشيء فيما وراء الطبيعة الا بعد أن أطلع عليه علم الطبيعة بتجاربه الحسية وألحقه بالطبيعة، فلا شيء عندهم فيما وراء الطبيعة مابق فيما وراءها . وهذا العالم المحسوس موجود عندهم من نفسه من غير موجد أنشأه ومالك يتصرف فيه ويمشي على النظام الذي سن له . وقد قلنا في مقدمة الباب الاول من الكتاب الكبير ان هذه البيوت والمنازل التي يسكنها الناس في المدن والقرى من قصور الماوك الى أكواخ الفقراء، اذا كان لا بد لكل منها من بان فمن الذي بنى السموات والارض ومن هو مالِكها المتصرف فيها والمهيمن عليها وفاعل هذه الأفعال البديعة التي يتضمنها الكون ؟

فالذين لا يؤمنون بوجود خالق الكون وواضع نظمه مثلهم كمثل المنكرين لوجود من بنى تلك البيوت والقصور القائلين بأنها مبنية من نفسها ماداموا لم يروا بانها وهو بينها . ونحن المؤمنون بالغيب تحت إشراف العقل وارشاده نعتز عند رؤية البناء بوجود الباني وان لم نره . فالفرق بيننا وبينهم بسيط الى هذا الحد، فهل يسع الملاحظة أن يدعوا امكان وجود بيت أو قصر من تلك البيوت والقصور التي هي صنع البشر، بنفسها من غير وجود بان وصانع ؟ فان لم يسعهم ذلك فكيف يسعهم القول بوجود صرح العالم بسماواته وأرضه بنفسه من غير وجود بانيه ؟ أليس للسموات والأرض أهمية كأهمية واحد من البيوت المبنية بأيدي البشر حتى تستغنيا عما لا يستغنى عنه من الباني، أم كان استغناؤهما عن الباني لكونهما في غاية العظمة والبداعة ؟ أما الاحتمال الأول وهو كونهما في الأهمية دون البيوت المبنية بأيدي البشر فباطل بالبداهة ، وأما الاحتمال الثاني وهو أن يكون البناء الأعظم والأبدع مستغنيا عن الباني حين كان أقل البنيان وأحقره غير مستغن عنه ففي غاية البعد من العقل

لألا ، ان القائلين باستغناء العالم عن الصانع لم يقولوا به لتفاهته ولالكونه في غاية العظمة بل لأنهم وجدوا صرح العالم حاضراً أمام أعينهم مصنوعاً ، من غير حاجة الى نشدان صانع له ولو لم يجدوه حاضراً لما وسمهم القول بوجود أصغر جزء منه من غير صانع . فسبب استغناء العالم عندهم عن الموجد هو وجوده من غير حاجة اليه في نظرهم ، وهم ليسوا بأذكاء لحد ان يتنبهوا لما في هذا التعليل من المصادرة على المطلوب . ومن السهل على القارى أن يفهم مبلغ ذكائهم من عدم أبهتهم بالعقل كما يأبهون بالحس ، ذلك الذي أحوجنا على طول الكتاب (الكبير) الى الدفاع عن كرامة العقل حيال الحس

فان قيل ملاحظة المسادية والطبيعية قائلون بأن العالم لأول لوجوده فهو موجود من الأزل ولهذا استغنى عن الموجد لان ايجاد الموجود تحصيل للحاصل ، وليس للمؤمنين بالله أن ينكروا وجود مالا أول لوجوده واستغنى عن الموجد لأن الله تعالى عندهم لأول لوجوده وهو مستغن عن الموجد لهذا السبب ، فكما أن الله تعالى لأول لوجوده ولم يسبقه العدم فاستغنى عن الموجد فليكن العالم كذلك عند الملاحظة

قلت عقلاء البشر مضطرون - لقطع التسلسل في تعليل وجود الموجودات المحتاجة الى علة موجدة - الى الاعتراف بوجود موجود بنفسه لأول له ولا موجد يوجده ، ليكون علة أولى لسائر الموجودات وينتهى فيه تسلسل العلل . ومعنى هذا ان وجود الله بنفسه من غير موجد يوجده نعترف به اضطراراً وعلى خلاف القياس والا فمقل البشر لا يدرك موجوداً لأول له ولا موجد ، وان كان يدرك ضرورة وجود هذا الموجود بعد النظر في وجود العالم ، ولولا الضرورة القاضية لما اعترفنا به . وبعد الاعتراف بموجود واحد لأول لوجوده لاحتاج الى وجود موجودات كذلك ، بل لانجيز وجود موجود آخر من هذا القبيل لأن الضرورات تقدر بقدرها . فالفرق إذن بيننا نحن القائلين بوجود إله واحد خالق للكائنات وبين منكري الإله الخالق القائلين

بوجود الكائنات بأنفسها وطبائعها من غير موجد ، اننا نعتقد موجودا واحدا يجب وجوده لاسناد وجود سائر الموجودات اليه ، وهم يعتقدون وجود موجود واجب الوجود بعدد الموجودات في العالم لأن الموجود بنفسه من غير موجد يكون واجب الوجود، مع ان القول منا بوجود موجود واحد واجب الوجود لم يحصل إلا اضطراريا فلا يجوز أن يُتعمد في القول به حد الاضطرار، ومع ان موجودات العالم غير جدية بأن تكون واجبات الوجود

ولا يقال ان ملاحظة المادية والطبيعية لا يدعون كون العالم موجودا بنفسه من غير موجد كالبناء من غير بان بل يقولون انه فعل الطبيعة وأثرها . لانا نقول ان كان ما عبرا عنه بالطبيعة موجودا ذا علم وقدرة وإرادة تكفي لايجاد العالم وتمشيته بعد ايجاده على وجه النظام المشهود وكان هذا الموجود لا يحتاج في وجوده الى أى شيء حين كان وجود كل شيء محتاجا اليه ، فهذا هو الله الذي نقول به نحن المؤمنون بالغيب ولا يبقى خلاف بيننا وبينهم الا في التسمية والتعبير . لكننا نعلم ان الطبيعة التي يقولون بها بدلا من الله لا يريدون به موجودا مستقلا عن العالم وانما هي عندهم كناية عن عدم وجود موجد للعالم لكونه موجودا بنفسه وطبيعته . وهذا عندنا هو القول بالحال لأن الموجود بنفسه لا يكون الا واجب الوجود كما قلنا ويكون مستحيلا تغيره من حال الى حال ووجوده أو وجود شيء منه بعد العدم وعدمه أو عدم شيء منه بعد الوجود، بل يستحيل تجزؤه وتركبه المستلزم لاحتياجه الى أجزائه والعالم المتغير المتجزى المحتاج على الأقل الى أجزائه لا يكون واجب الوجود بل ممكننا يقبل الوجود والعدم متساويين بالنسبة الى ذاته، فيحتاج في وجوده الى مرجح يرجح له جانب الوجود ويوجد به بعد ان كان معدوما ، وفي عدمه الى مرجح يرجح له جانب العدم فيعدمه بعد ان كان موجودا، وفي وجوده يحتاج أيضا الى مرجح يرجح له أن يكون على نوع معين من أنواع الوجود وعلى شكل معين من أشكاله فلو أنكرنا له هذه الحاجات كان قولا برجحان أحد المتساويين بنفسه على الآخر من غير مرجح وهو

محال متضمن للتناقض . وهذا المرجح عندنا في وجوده أو عدمه وفي كونه على نوع معين من أنواع الوجود وعلى شكل معين من أشكاله هو إرادة الله كما قال الله تعالى في كتابه الكريم : (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فلو كان العالم أو أى جزء من أجزائه موجوداً بنفسه من غير موجد وموجودا على نوع معين وشكل معين من غير معين ، لزم الرجحان من غير مرجح أى لزم كون مافرض وجوده وعدمه ثم وجوده على نوع دون نوع وشكل دون شكل متساويين بالنسبة الى ذاته ، خلاف ذلك أى غير متساويين . وخلاف المفروض محال متضمن للتناقض

فالملاحدة الزاعمون أن مذهبهم في عدم الاعتراف بوجود الله مذهب العلم غير المعترف بما لم يثبت وجوده بالتجربة الحسية غافلون وجاهلون لحد أن يزعموا التناقض المحال علماً . فاذا كان العلم الطبيعي يبحث عن الأثر ويفغل المؤثر أو يبحث عن المؤثر القريب ويفغل العلة الأولى فالعقل الذى يميز المحال من الممكن والذى هو أبعد نظراً من العلم الطبيعي وأوسع ، يقضى بأن الكون أثر لإرادة علية عليمه مسيطرة على ما يدعونه الطبيعة . ولعل سبب عدولهم في ادارة الكون من هذه الارادة العليمه الحكيمه الى طبيعة لاعلم لها ولا ارادة بل لا وجود لها أيضاً كما حققنا (في الكتاب الكبير) من أنها كناية عن عدم وجود فاعل لهذا الكون ونظامه ، سبب عدولهم اليها على الرغم من استحالة صدور مثل هذا الأثر العظيم علماً لاعلم له ولا قدرة ولا إرادة بل لا وجود ، انه اذا لم يكن لهذا الكون مالك سوى تلك الطبيعة المعقدة التى ليس من شأنها أن يحاسب أحد على ما فعله في السر والعلن ، فلا توجد فوق الانسان قوة يُخشى بأسها ولا يؤمن مكرها فتحصل له الحرية التامة كما يعبرون ويمتزون به . ومن هذا بنى الفيلسوف « كانت » مسألة وجود الله على دلائل الأخلاق قائل لولا الله لانهارت دعائم الأخلاق . ونحن مع استحسان دليله هذا مصرون على

القول بأننا لا نجد في القوة والأهمية بحيث تبنى عليه مسألة وجود الله التي هي أعظم المطالب الفلسفية وأهم من كل شيء ومن مسألة الأخلاق أيضا . وقد سبق الكلام عليه في آخر الباب الأول (من الكتاب الكبير)

على أن العلم الحديث المثبت الذي يعزى إليه عدم الاعتراف بوجود الله ، آخر مذهب هذا العلم أن كل شيء في الكون راجع إلى الحركة ولا موجود غيرها حتى أن المادة التي كانت لها الأزلية والأبدية عند الماديين البوخرين ، لا وجود لها وإنما البقية من تلك المادية القديمة هي القوة وهي الحركة . ولا نناقشهم هنا كيف تكون حركة من غير أن يكون هناك شيء متحرك هو المادة أو ما يقوم مقامها بعد زوال دولتها الأزلية والأبدية ؟ وإنما نسألهم عن سبب هذه الحركة أعني المحرك ، ولا نرتاب في أنهم يقولون في الجواب أن سببها الحركة التي اتصلت بها من جانب الماضي طبق مذهب اليه « ديمقراط » الحكيم اليوناني القديم ، كما أن سبب تلك الحركة المتقدمة بدرجة واحدة هو الحركة المتقدمة بدرجتين ، وهكذا الحال في كل سلسلة الحركات الميكانيكية بأن يكون ما تقدم منها سببا لما تأخر ومولداً له وما تقدم المتقدم سبباً مولداً للمتقدم وهكذا دواليك من غير أن تكون سلسلة الحركات الممتدة إلى جانب الماضي نهاية تبدأ منها السلسلة ولا تكون قبلها حركة . وبفضل هذه اللانهائية تجد كل حركة سببها فيما قبلها ولا تحتاج الحركات المتسلسلة إلى محرك خارج عن أجزاء السلسلة المحرك بعضها بعضاً

هكذا يقولون اليوم ، وبهذا يتضح أن المرجع الحقيقي لاستناد الملاحدة في قولهم باستثناء العالم الذي هو اسم لمجموعة الكائنات عن وجود الله ، ليس عقيدة عدم احتياج أي موجود في وجوده وأي حادثة في حدوثها إلى السبب وإن كان ظاهر قولهم بأن كل ما كان وما يكون في العالم ناشئ من طبيعة الكائن يقتضي نفى السبب ، لكن الحقيقة أنهم لا يفكرون مبدأ العلية ولا يقولون بتكوّن كل كائن بنفسه من غير تأثير فيه من الخارج وهو الذي يعبر عنه علماء الكلام بالرجحان من غير مرجح

ويبطلونه . فالملاحدة أيضا لا يقولون بهذا الذى يتنافى مع مبدأ العلية وانما يقولون بنفى السببية والعلية من خارج العالم فلكل كائن سبب يوجب كونه والسبب كائن آخر له سبب أيضا ولسبب السبب أيضا سبب وهلم جرا الى مالا نهاية له من الأسباب المتقدمة المهيئة لمسبباتها التى كل منها أيضا سبب لما بعده . ولعدم انتهاء الأسباب المتقدمة الى سبب أول لا سبب قبله ولكون العالم قديما عندهم لا بداية له ، على خلاف ماقلنا نحن فى الباب الثانى ان العالم حادث له بداية ، فلا حاجة عندهم لوجود العالم الى وجود الله ، لأن وجود العالم عبارة عن وجود سلاسل أسباب غير متناهية لمسببات مثلها غير متناهية ولكون الأسباب غير متناهية فى جانب الماضى وكون جميعها داخلية فى أجزاء العالم فلا يحىء فى الجانب المتقدم دور الحاجة الى وجود الله فى خارج العالم لىكون سببا أول لتلك الأسباب وعلة أولى لتلك العلل ، اذ لو جاء دورها لجاء بعد انتهاء الاسباب المتقدمة الداخلة فى العالم الى سبب لا يتقدمه سبب من جنسه داخل فى العالم ، لكنهم يقولون ان الاسباب العالمية المتقدم بعضها على بعض غير متناهية

فالأساس الاخير لمذهب الاتحاد وسنده الذى يستند اليه نهائيا قدم العالم وتسلسل العلل ، وما يتوقف عليه هدم هذا المذهب اثبات حدوث العالم وابطال تسلسل العلل والاسباب الى غير نهاية . وقد كان أعظم غلطة وقع فيها الشيخ محمد عبده ولن يقع فى مثلها رجل من رجال العلم والدين ، انكاره لبطلان التسلسل الذى يدور عليه اثبات وجود الله تعالى ^(١) ونحن بتوفيق الله عز وجل قمنا بواجب هذا الابطال فى أمكنة عدة من هذا الكتاب (الكبير) أوضح قيام يتمكن من ادراكه الخاص والعام ولا نضن هنا أيضا بصورة مختصرة من ابطال ذلك الباطل تطبيقا له على آخر نظرية علمية فى الكائنات أعنى كونها عبارة عن سلاسل الحركات ، فنقول :

تسلسل الحركات الى غيرنهاية فى جانب الماضى على أن لا يكون لأى حركة منها

(١) سبق منا فى الباب الأول والباب الثانى (من الكتاب الكبير) ان نقلنا نص قول الشيخ

بانكار بطلان التسلسل ورددناه عليه

سبب محرك غير الحركة التي قبلها فتكون كل حركة تقدمتها حركة أخرى تولدها ،
فلا نهاية للحركات الماضية ولا نهاية لأسبابها التي هي عبارة عن الحركات أيضا ..
تسلسل الحركات هكذا باطل ، ولا نبني دعوى بطلانه على برهان التطبيق أو غيره
من البراهين المبطلات للتسلسل المعروفة عند علمائنا المتكلمين بل عند الفلاسفة القدماء
أيضا والتي اعترض عليها بعض العلماء قديما أو حديثا بحق أو بغير حق (١) وانما
نبني دعوانا على ابطال فعلي يقتنع به القارى معنا فنقول : ان دوام الحركات في جانب
الماضي التي لا محرك لها رأسا غير تحريك بعضها ببعضا ضرب من الوهم والخيال .
فالأوهام الكاذبة التي رى بها الشيخ محمد عبده البراهين المنصوبة لا بطلان للتسلسل
موجودة في التسلسل نفسه لاسيما تسلسل العلل ، لكن الشيخ التبس عليه محل الوهم
الكاذب فظن المبطل باطلا والباطل حقا ، تتضح هذه الحقيقة عند تصور المسألة في عدد
متناه من الحركات فلو فرضنا انتهاء سلسلة الحركات الممتدة من الحال الى الماضي بعد
خمسین حركة متراجعة وفرضنا كون سبب الحركة الأخيرة المتصلة بزمان الحال هو
الحركة التاسعة والأربعين وسبب الحركة التاسعة والأربعين هو الحركة الثامنة
والأربعون وسببها السابعة والأربعون ، وهكذا الحال الى أن نأتى الحركة الاولى
فرأيناها لا تستند الى محرك من خارج السلسلة أى لا سبب للحركة الاولى ، وليست حركتها
قوانية (ديناميك) تندفع بنفسها بل حركة ميكانيكية منتظمة وكذا الحركات التي بعدها .
فاذا انتفى سبب الحركة الاولى انتفت الحركة الاولى نفسها واذا انتفت الحركة الاولى
التي كانت سبب الحركة الثانية انتفت الحركة الثانية أيضا وبانتفاء الثانية انتفت الثالثة
وبانتفاءها انتفت الرابعة ، وهكذا يقال في كل حركة بعد حركة منفية الى أن تبلغ
الخمسین فرأيناها لا سبب لها ولا حركة . فسلسلة الحركات المؤلفة من خمسین حركة
تصير ضربا من الخيال الكاذب اذا لم يكن هناك محرك أصلى سوى تحريك الحركات

(١) تقدم الكلام على هذه النقاط في البابين الأولين (من الكتاب الكبير) لاسيما في فصل
حدوث العالم من الباب الثاني

بعضها بعضا بأن يحرك المتقدم منها المتأخر الذى يليه ، لانا رأينا عيانا أن لا حركة متقدمة ولا تحريكها للمتأخر . نعم رأينا انعدام الحركات لانعدام أسبابها ، فى سلسلة فرضناها مؤلفة من خمسين حركة وهى متناهية ، فهل يكون الحال غير مارأينا من الخيال لو فرضنا سلسلة الحركات لا تنتهى فى جانب الماضى الى حركة لا تتقدمها حركة أى لو فرضناها غير متناهية ؟ وماذا ينفع سلسلة الحركات التى رأيناها لا وجود لها الا فى الوهم والخيال عند فرضها مؤلفة من خمسين حركة ، ماذا ينفعها أن نضم اليها من أمثالها عددا لانهاية له من جانب الماضى ، فهل تنقلب الحركات الموهومة المتناهية بانضمام الحركات الموهومة غير المتناهية اليها حركات واقعية ؟ والواقع ان الزيادة فى الموهوم الكاذب لا تكون الا زيادة فى الكذب والوهم ، وان كان فى الزيادة اللامتناهية التى لا يمكننا معاينة جميع أجزائها كماينة كل جزء من أجزاء السلسلة المؤلفة من خمسين حركة ، بعض تغطية واخفاء لما تضمنته من كاذب الخيال . فاذا لم يكن لتلك الحركات المفروضة محرك غير أن يكون المتقدم منها سببا للمتأخر لزم أن يكون كل مافرض وجوده من تلك الحركات غير موجود ، وهو تناقض محال سواء كان عدد الحركات متناهيا أو غير متناه

فهما اعترض المعترضون على بطلان التسلسل وانتقدوا البراهين المقامة لابطاله فهذا النوع من التسلسل وهو تسلسل العلل والأسباب الذى تأخذ كل علة فيه وجودها وعليتها من علة أخرى قبلها من غير أن تكون هناك علة أصلية تنتهى فيها سلسلة العلل ولا يكون وجودها وعليتها مأخوذة من غيرها ، والذى يفنى اثبات وجود الله على إبطاله ، ليس فى بطلانه أدنى ريبة لعدم وجود سلسلة كهذه الا فى الوهم والخيال . والذين يعتبرون الكون مجموعة مؤلفة من سلاسل حركات لا بداية لها وكل حركة فى كل سلسلة متولدة من حركة مثلها متقدمة عليها ، يخيل اليهم وجود حركات لانهاية لها فى جانب الماضى كل حركة سبب لما بعدها مسببة عما قبلها ، ولا سبب لهذه الحركات من خارج السلسلة غير تولد بعضها من بعض . لكن هذه السلسلة المتوقف وجود كل

جزء منها على وجود جزء قبله لم تكن عبارة عن سلسلة موجودات مسببات عن أسباب موجودة بل سلسلة موقوفات في وجودها على موقوفات ومحتاجات الى محتاجات، فان كان أول جزء من هذه السلسلة موجودا فكل ماعداه المبنى وجوده على وجوده موجود أيضا، لكن لا أول لهذه السلسلة حتى يقال ان كان موجودا فكل ماعداه موجود، بل يفر هذا الأول كلما أردت النظر في حاله لتعلم انه موجود أو غير موجود الى أول منه فتجده موقوفا وجوده على وجود ما قبله وتجد ما تريد ان تعتبره أول ليس بأول، ومهما أمعنت في الطلب فلن تصل بذهنك الى أول جزء لهذه السلسلة فاذن لا وجود لأولها ولا وجود لها حتى يكون لأولها وجود واذا لم يكن لأولها وجود فلا وجود لما بعد أولها المبنى وجوده على وجوده. واذن لا وجود لسلسلة حركات غير متناهية يظنونها موجودة على الرغم من ظهور عدم وجودها عند درسها متناهية، فما هي الا سلسلة حركات معلقة الوجود على أسباب غير موجودة على ظن انها موجودة. ومنشأ الغلط في الظن اقامة عدم تنهاى الأسباب التي لا وجود لها مقام وجود الأسباب، وقد أوردت في الفصل الأول من الباب الأول من هذا الكتاب (الكبير) أمثلة تريد في إيضاح ما في هذا التسلسل من البطالان. والنتيجة ان العالم ان كان عبارة عن مجموعة مؤلفة من سلاسل حركات فلا بد أن يكون لها محرك من خارج السلسلة هي تنتهى فيه، والا فلا يمكن وجود حركة واحدة فضلا عن وجود سلاسل حركات وهذا المحرك هو الله. ثم انه لو أمكن استغناء عالم الحركات الذى هو عالمنا على آخر رأى العلم، عن محرك مستقل غير تحريك الحركات بعضها بعضا ولم يترتب عليه ما يبينه من التناقض لاحتاج ذلك العالم الى وجود الله في نظام الحركات وفي تعيين ما يترتب على الحركات من الغايات، ان لم يحتج اليه في نفس الحركات من طريق فرض المحال

هذا تلخيص اثبات وجود الله وفي ضمنه اثبات حدوث العالم باثبات البداية له

عند ابطال التسلسل اللازم لاثبات وجود الله . أما إثبات وجود الأنبياء فقد أقمنا عليه فيما سبق غير بعيد ^(١) دليلاً أقامه الفيلسوف « كانت » لاثبات وجود الله الذي هو أعلى مطلب فلسفي، في حين أنا لم نره متناسباً مع جلالة ذلك المطلب، لعدم إفادته اليقين الضروري الذي هو وجوب الوجود كما أفادته الأدلة التي ذكرنا صورة مختصرة منها آنفاً . وحسبنا في القيام بواجبنا إزاء مطلب اثبات النبوة أن نبيناه على دليل يعدل في الأهمية دليل « كانت » لاثبات وجود الله . وسنقيم دليلاً آخر خاصاً بنبوة نبينا ﷺ في الباب الرابع من الكتاب (الكبير) عند الكلام على مسألة فصل الدين عن السياسة

وأما مسألة معجزات الأنبياء فنخالفنا في غنى عن التنبيه الى مبلغ عنايتنا بها ، وقد استغرقت مكافحة منكرى المعجزات طول الباب الثالث من الكتاب (الكبير) وذلك الباب الثالث قد قرأ القارى الى هنا في شكل كتاب صغير مستقل . والآن ننهي مما أردنا أن نكتبه نتيجة للأبواب الثلاثة المتقدمة وعند ذلك ننهي أيضاً من الكتاب الصغير سائلين الله تعالى الهداية والمغفرة لنا وللقارئ

(١) ص ٨٣ — ٨٦

الرجاء اصلاح الأغلط أولاً كآلاتي :

١-٦ : وهذا قول الاستاذ ٦-١٨ : النبوة ١٨-٣ : تصارحان ١٩-١ : انكار النبوات ٢٠-١٣ : أن
٢-٢٥ : من رسل الله والآيات الظاهرة ٣٦-٥ : عند النظر في مناسبة ٣٨-١٠ : المعتادة الواقعة
١٣-٤١ : في مجلدات، مجلدين ٤٣-١ : على قول هذين الشيخين ٤٦-١٤ : الغريبيين، ٥٢-١٩ : الثلاث
٢٠-٥٥ : أسلافه ٥٧-١ : ولن ترى ٦٣-٢٣ : هذا ٦٦-١٤ : قيمته ٧٢-٩ : تسقط ٧٤-١٤ :
المعجزات ٩٤-٢٠ : ٢٢-٢٤، ٩٦-٢٢ : في الشفاء ١٠١-١٩ : ولو كان ورد ١٠٢-١٩ : المتقدمة
١-١٠٣ : من المتبعين ١٠٤-٨ : مع العلم ١١٠-٢٢ : في معاداة ١٢٠-٥ : من علماء ١٢٨-١ : جرم
١٤٠-٩ ولانني ١٤٣-١٧ : يستثقلها ١٤٤-٩ : اختار الله ١٧٠-٤ : بالتوفية ١٨٤-٢١ : النعماني
١٩٧-٢٢ : الخمس ٢٠١-٣ : الحياة

فهرس الابحات المذكورة فى الكتاب

ص: ٥ جمل الاستاذ فريد وجدى الايمان بالغيب مقابلا للايمان بالواقع - ٦ افشاؤه عن
استبطن الشرق الاسلامى للحاد بعد اتصاله بعلوم الغرب - ٧ أبرز مميزات نوابغ
الكتاب الذين أفشى الاستاذ عن استبطنهم الحاد : انكارهم المعجزات الكونية -
٧ انكاره المعجزات والبعث بعد الموت - ٧ ومن مميزاتهم اقامة عبقرية نبينا مقام نبوته -
٧ الدكتور زكى مبارك يتوقع الثورة على نبوته ﷺ - ١٠ انكار المعجزات علامة لانكار
النبوة وليس أدل على هذا من أن الدكتور شبل شميل ناشر فكرة الحاد فى بلاد العرب، يسمى
الايمان بالأديان ايمانا بالمعجزة - ١١ الاستاذ فريد وجدى ينكر المعجزات الحقيقية ثم يستخرج
من غير المعجزات معجزات - ١٢ الكلام على كتاب عبقرية محمد للاستاذ العقاد - ١٢ لم
يتورط الاستاذ فى السخافات التى تورط فيها غيره من دعاة العبقرية - ١٥ سؤالى للاستاذ عن
موقف القرآن من محمد «البليغ» - ١٦ تحبيذ قول هيكىل باشا فى قوله تعالى : (وان كادوا
ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك) الآيات - ١٨ ومن مميزات الطائفة العصرية انهم لا يعولون
على كتب الحديث - ١٨ النبوة كالمعجزة فى كونها مخالفة للعلم الحديث - ١٩ بل العلم الحديث
يمنع المفتونين به عن الايمان بوجود الله - ١٩ النقاش الجارى بين الاستاذ فرح انطون والشيخ
محمد عبده واحتياج هذا النقاش الى الاستئناف - ٢١ منشأ المرأة من العصرين على التوسع فى
تكذيب الأحاديث النبوية. لهم طريق فى رفض الأحاديث وطريق فى رفض الآيات. أجزأناذج
التأويل فى القرآن - ٢٢ بدعة انكار المعجزات - بل رد النبوة الى العبقرية أيضا - مأثورة من
الشيخ محمد عبده - ٢٣ سبعون حديثا لانكفى فى اثبات نزول عيسى فى آخر الزمان -
٢٤ واجب علماء الدين اليوم

٢٥ موقف العقل والعلم من رسل الله ومعجزاتهم والبعث بعد الموت
٢٦ مما يعلم به تفوق الدليل العقلى على النبيل التجربى انه يثبت بالاول وجود الله وبالثانى وجود
الانبياء . اثبات امكان النبوة والمعجزة والنشأة الثانية - ٢٧ نطاق الامكان أوسع بكثير مما
يظنه منكرو المعجزات . قول منطق كبير انجليزى فى المعجزة - ٢٨ خالق معجزات الانبياء

أسهل من خلق معجزة العقل في الانسان - ٢٩ ميزة المعجزة التي يصغر بجانبها أعظم المكتشفات العلمية - ٣٠ نظام العالم العام دليل وجود الله وتغييره الذي هو المعجزة دليل وجود الانبياء - ٣١ القوانين الطبيعية ليست قوانين ضرورية مستحيلة التغيير . يوجد محال عقلي ولا يوجد محال تجريبي . منكر المعجزات لم يميزوا ما هو غير واقع في تجربتنا مما هو محال الوقوع - ٣٢ ههنا خمس مراتب : الامكان والوقوع والضرورة وعدم الوقوع والاستحالة . كما يكون احراق النار ما تحرقه باذن الله يكون كفهاعن الاحراق بأمر الله - ٣٣ بل التحقيق ان الاحراق ليس من النار . قول مالبرانش : القوة التي في الطبيعة وفي كل شيء عبارة عن ارادة الله - ٣٤ قول علمائنا الاصوليين : لا تثبت العلية بالدوران - ٣٥ قول مالبرانش : العلة الحقيقية واحدة - ٣٦ وقول المتكلمين : ان الكائنات بأجمعها مستندة الى الله من غير واسطة . وقول له ينبتر في مناسبة البدن مع النفس . قول داو يد هيوم المهم - ٣٩ الملاحدة يتمسكون في انكار المعجزات بنظام العالم الذي كانوا ينفونه حين أنكروا وجود الله . انكار المعجزات مع الايمان بالله حماقة ومع الايمان بالانبياء حماقة متضاعفة - ٤٠ شذوذ الشيخ محمد عبده في تعريف النبي والرسول - ٤١ خلو كتاب هيكل باشاعن معجزات نبينا الممثلة لحياته المعنوية والتي خصص لها المؤلف الهندي مجلدين . اعتراض مفروض من جانب المنكرين لمعجزات نبينا الكونية - ٤٢ دفاع الشيخين المراغى والشيخ رشيد رضا عن كتاب هيكل باشا - ٤٣ دفاع الباشا نفسه - ٤٣ تعيبه الكتب القديمة بأنها كانت تكتب لغاية دينية - ٤٤ نقد رجال الحديث علم مدون في الاسلام فعلا ليس كالنقد العلمى قولا مجردا . يتعلل المؤلف باختلاف كتب السيرة ويتم الزيادة الواقعة في كتب المتأخرين بالاختلاق - ٤٤ قوله أن أقدم تلك الكتب كتب بعد ان فشت في الدولة الاسلامية دعايات - ٤٦ كم من الأحاديث وجدته البخارى وكم منها صح لديه؟ - ٤٧ العمل العظيم الذي قام به المحدثون يستخدمه هيكل باشا في زعزعة مكان الثقة بكتب الحديث - ٤٨ اسناده الى البخارى ما صرح البخارى بخلافه - ٤٩ السبب في عدم جمع الصحابة السنن في مصحف كما جمعوا القرآن - ٥١ روايات أبي حنيفة لم تكن ١٧ حديثا كما زعم ابن خلدون . ليس ثقة الرواة هم رواة الستة فقط . للسنة حفاظ كما أن لكتاب الله حفاظا . لوضاعت السنة كما ادعى لضاع معه حكم قوله تعالى : (فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول) - ٥٢ ان كان مؤلفو الغرب في السيرة الحمديّة يتبعون الطريقة العلمية لزمهم منطقيا أن يساموا - ٥٣ ماذا يقول الكاتب الهندي مؤلف كتاب في السيرة قبل الكاتب المصرى؟ - ٥٥ امتياز نبينا على جميع مشاهير الدنيا

بضبط حياته وحكمة هذا الامتياز - ٥٦ ايس في المستشرقين المثيرين الشك في السنة ومقلديهم من وجد من تلقاء نفسه حديثا موضوعا . لانغالى اذا قلنا ان ضبط سنة نبي الاسلام أصح من ضبط كتب أهل الكتاب - ٥٧ قول عالم ألماني ان الدنيا لم تزل ترى أمة مثل المسلمين - ٥٨ قول الدارقطني : الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعره البيضاء في جلد الثور الأسود . قول عمر : اني كنت أريد أن أكتب السنن وانى والله لأشوب كتاب الله بشيء أبداء وحديث (من كان عنده شيء فليمحه) - ٥٩ الماشي على الطريقة العلمية يلزمه التفكير فيماذا قد يكون مراد النبي ﷺ من النهي عن كتابة أساديثه والأمر بمحو ما كتب منها؟ روايات النهي عن كتابة الحديث معلومة لأئمة الحديث - ٦٠ مؤلف «حياة محمد» كتبه معتنقا بفكرة يحسبها فكرة علمية . دأب مؤلفي الغرب في نقل الروايات . صرف مذهب المانعين اكتابة الحديث عما أرادوا به - ٦٠ تحقيق مسألة الاختلاف في جواز الكتابة عن النبي ﷺ - ٦٣ دونت السنن في ضمن تدوين علم الفقه قبل أن جمعها جامعوا الحديث - ٦٤ قول هيكل باشا في مقياس قبول الحديث ورفضه واستشهاد به في ذلك بحديث موضوع - ٦٥ ناحية الدراية لا يكون لها المنزل الاول في علم الحديث الذي هو من العلوم النقلية . ثم ان النظر في تلك الناحية من اختصاص المجتهد - ٦٦ ثم ان كون مخالفة القرآن مقياسا لرفض الحديث لا يستقيم في جميع الأوقات - ٦٧ قول الباشا : جمع الحديث جامعوها في زمن المأمون بعد انتشار عشرات الألوف من الاحاديث الموضوعية . وما كان لهم ولاغيرهم أن ينازعوا الخليفة في آرائه . نظر الى ادعاء الباشا يلزم أن تكون كتب الأحاديث مشحونة بأحاديث خلق القرآن - ٦٨ يدعى الباشا انه ما كان العلماء أن ينازعوا الخليفة في آرائه . والواقع يشهد بأنهم نازعوه - ٧٠ يزيد الباشا في قبول الحديث على اشتراط عدم مخالفته للقرآن موافقته له بل وورود ذكره فيه ويزيد على هذا موافقته لسنة الكون - ٧١ قول الباشا : ظن مؤلفوا الاسلام ان في ذكر خوارق ومعجزات ما يزيد الناس ايمانا على ايمانهم - ٧٢ قول الباشا فقد كان أهل مكة يطلبون الى النبي أن يجري ربه على يديه المعجزات فنزل القرآن يدفع ما طلبوه - ٧٣ ضياع السنة في القرون الأولى ضياع القرآن في الجملة ووعد الله بحفظ القرآن يتضمن الوعد بحفظ السنة أيضا - ٧٥ مناسبة زيادة المعجزات المكذوبة على نبينا بانحطاط شعوب الساميين - ٧٧ من حق أي امرئ أن يقوم فيرد كل ما في كتاب «حياة محمد» بحجة أنه لم يرد به القرآن - ٧٨ لماذا يؤمن اليهود والنصارى بمعجزات أنبيائهم ولا نؤمن نحن بمعجزات نبينا غير القرآن - ٧٩ هل الباشا ينتقد حادثة الاسراء بانها فشلت ولم

تنفع في هداية الناس؟ لا يجب أن تكون المعجزة ضامنة لهداية الناس - ٨٠ قول الباشا باندساس يد العبت بالقواعد الصحيحة للحياة الاسلامية ومشابهة هذا القول بقول الشيخ محمد عبده - ٨٠ انتهاء النقل من كتاب «حياة محمد» - ٨١ سعى معاليه لالقاء الشبهة في كل ما ورد في كتب الحديث والسيرة ودافعه الى اطلاق القول : معاليه يجعل كتابه معلقا على الهواء و ينقص نفسه بنفسه . هذا واحد (الثاني) هل فكر معاليه فيما يترتب على ما فعله من اثاره الشبهة في كتب السنة؟ ٨٤ عجيب مالتقى الاسلام والعلوم الاسلامية في زماننا عصر - ٨٥ هل يوجد كتاب تاريخ في صحة كتاب البخارى مثلاً؟ ولم يتأخر جمع الأحاديث الى عصر المأمون كما ادعى - ٨٦ حديث : (ألا انى أوتيت القرآن ومثله معه...) - ٨٧ الناظرون من بعيد الى ما يجري في علم الحديث من النقد الحرو والرقابات الدقيقة ، ليس من الانصاف أن يتخذوه وسيلة طعن مطلق في قيمة الحديث . واني لأثق باخلاص العصريين للقرآن - ٨٩ السychيون سعدوا بنبيهم الى درجة الالوهية مستند الى معجزاته الكونية والمسامون استكثروا انبيهم معجزة واحدة منها . كتب المؤرخين الغربيين لم تحصى ولم تغربل بعشر معشار ما غربلت كتب أئمة الاسلام بأيدي أئمة الاسلام أنفسهم . ٩٠ ما فعله مؤلف «حياة محمد» في مقدمة الطبعة الثانية جنابة لا تغفروا تأييد مشيخة الأزهر لهذه الجنابة أدهى وأمر . لم تغربل بمصر ولا بغير مصر أصوات دفاع عن الكتب المباركة عند المسلمين . التشكيك في كتب الحديث والسيرة على الاطلاق يؤدي الى التشكيك في القرآن - ٩١ (الثالث) درس موانع اثبات المعجزات لنبينا عند الباشا التي التبس عليه بعضها مع بعض - ٩٣ نقاة المعجزات من الغربيين انما ينفونها لعدم اعترافهم بوجود الله . شيوخ المعاهد الذين استشارهم الباشا لم ينهوه على أن المعجزات لا تنافي العقل . استشهاد الاستاذ الاكبر بيت من البردة على عدم وجود معجزات كونية لنبينا - ٩٤ ذكرني هذا ما سبق لفضيلته انه أخطأ في فهم أقوال الفقهاء عند ترويح فتنه ترجمة القرآن الحادثة في تركيا - ٩٥ غير ممكن أن يكون لاغز الى ما يمكن اتخاذه سنداً في انكار معجزات نبينا غير القرآن - ٩٦ معجزات نبينا غير القرآن ان لم يتواتر كل منها فالقدر المشترك بينهما متواتر كسخاوة حاتم وشجاعة علي - ٩٦ (الرابع) ماذا هو الباعث على اثبات معجزة عقلية لنبينا هي القرآن ونفى كل معجزة سواها عنه ؟ - ٩٨ لافرق بين المعجزة العقلية والكونية في المخالفة لسنة الكون - ٩٩ قول لهيكل باشا في غاية التخليط والتشويش ١٠٠ (الخامس) تفسير الشيخ محمد عبده لسورة الفيل - ١٠١ يقولون لم يرد في القرآن ذكر معجزة كونية لنبينا ولو ورد فماذا يجمع ؟ - ١٠٢ قول كاتب السيرة الهندى في واقعة الفيل

وسورته. فرق ما بين الأبطال الذائدين عن كرامة الاسلام وبين العاجزين المتنازلين عن حقوقه
 ١٠٤ لوضحيتهم بالسنة فهل تظنون انكم أنقذتم القلوب الزائغة أو أنقذتم الكتاب ؟ فعلى القارئ
 بواجب الحيلة دون زيف القلوب المستعدة له أن يتشجعوا في صارحوا ذوى القلوب المذكورة
 بالحقيقة - ١٠٥ نقل كلمة من «موقف العلم من الله» - ١٠٧ مخالفة المعجزات لسنة الكون
 لازمة لكون المعجزة معجزة - ١٠٩ القرآن معجزة عقلية وكونية معا لا عقلية فقط -
 ١١٠ معاليه شكر الله سعيه رد فرية تحريف القرآن . واجب المؤلف تحقيق الحق لا تأليف
 بين المتساويين المتباعدين - ١١١ (السادس) معنى قوله تعالى (فلن تجد لسنة الله تبديلا) الذي
 زعموا التنافي بينه وبين المعجزات الكونية - ١١٤ الكلام على وجوب أن لا يكون الايمان
 مصدره خوفا من عذاب الله أو طمعا في ثوابه - ١١٧ متى تتحد القووة مع الحق ؟ - ١١٩ (السابع)
 أصحح أن في القرآن ما يمنع معجزات انبياءنا غير القرآن ؟ اقترح المشركين على النبي وجواب
 القرآن على هذا الاقتراح - ١٢١ دعوى صاحب «المنار» ان المعجزات الكونية شبهة لاحجة
 ١٢٣ اعتداء المستشرقين على الاسلام ومقابلة المستغربين الاعتداء بالاعتداء - ١٢٥ ليس لنا
 أن نشترط في دلالة المعجزة على صدق النبي في دعوى النبوة أن يؤمن به كل من شاهد المعجزة -
 ١٢٧ وضع نبينا مع الأنبياء صلوات الله عليهم ووضع معجزته مع معجزاتهم في صف الجدال مسلك
 شديد الخطر - ١٢٩ شرط التحدى في المعجزة ومعنى هذا الشرط . استلزام التشكيك في كتب
 السنة التشكيك في القرآن . قول الشيخ المراغي والأستاذ فريد وجدى في اعجاز القرآن ..
 ١٣٠-١٣٤ طعن الشيخ رشيد في نبوة موسى وعيسى عليهما السلام بالسنة منكرو الوحي
 وطعن هيكى باشا في السنة وعدم تحريكهما ما حركه الطعن في الشعر الجاهلى من السكون في رأى
 العام بمصر - ١٣٤ نظرة في العدد الخاص من مجلة «الرسالة» بأول العام الهجرى - ١٣٥ والكلام
 على بعض مقالاته بالاعجاب والبعض الآخر بالنقد . منكر وامعجزات نبينا الكونية ينكرونها
 عبثا ان لم ينكروا معها نبوته - ١٣٧ نقد مقالة الدكتور زكى مبارك . قوله في حياة نبينا قبل مبعثه
 وقول الأستاذ أحمد أمين بك فيها - ١٣٩ حكم قول بعض الناس أنا عربى أو تركى أولا ثم مسلم -
 ١٤٠ كأن العرب الأحداث يريدون أن يأخذوا من الترك الأحداث كما أخذ قدماء الترك من
 قدماء العرب - ١٤١ قول الأستاذ أحمد أمين بك في العرب قبل الاسلام - ١٤٢ ما رأيت
 مثل الدكتور زكى مبارك من يفرق بين الرسول وبين رسالته ومعجزاته - ١٤٣ ما ظن الدكتور
 بمصر آ لعرب أتوها بالمر بيبة والعروبة أم القرآن والاسلام ؟ مسافة الفرق في اللغة العربية بين

فصحاها وعاميتها بعد من أى لغة وسببه . قول الدكتور أن محمدا حرم نفسه الشهرة باجادة البيان
 ١٤٥ قول الدكتور أن جمهور المسلمين يعتقدون ان النبوة لا تنكسب - ١٤٦ ان الله أذن
 لاتصال الانسان به بأن خلق فيه العقل حتى زعم يلوثن ان الانسان يتحد مع الله عند ادراك أى شىء
 ١٤٧ قل يجوز أن تكون النبوة مكتسبة - ١٥٠ الدين يأتى من الله ويبدأ بالنبى - ١٥٢ لا ترى
 فرقا بين انكار الأنبياء بالمرّة وبين الاعتراف بهم مع انكار معجزاتهم التى تتعدى حدود نظام
 الطبيعة والتى هى أوسمة رسالتهم من الله - ١٥٣ قول الدكتور طه حسين ما رأيت أعجب من أمر
 محمد الخ - ١٥٤ اثبات وجود الأنبياء - ١٥٨ ما جعله الفيلسوف « كانت » دليلا لوجود الله
 نجعله دليلا لوجود الأنبياء - ١٦١ معجزة شق القمر المنصوص عليه فى القرآن . خطأ حامله
 على ما سيقع منه عند قيام الساعة - ١٦٢ أو على ترائيه لأهل مكة كذلك . ومثله فى ضلال التأويل
 ما وقع للشيخ محمد عبده من حمل انفلاق البحر لسيدنا موسى على الجزر والمد - ١٦٣ وما وقع
 لصاحب « المنار » من عدم سماعه لنص القرآن على معجزة انشقاق القمر والأحاديث الواردة فيها -
 ١٦٥ مسألة رفع عيسى عليه السلام وتخططات الشيخ شلتوت فى تأويل آيات القرآن الدالة عليه
 ١٦٨ تحقيق معنى التوفى فى قوله تعالى : انى متوفيك - ١٦٩ الخطأ اللغوى فيما اختاره الزمخشري
 والبيضاوى وأبو السعود فى تفسير (متوفيك) بمستوفى أجلك - ١٧٢ تبلغ أدلة القرآن على رفع
 عيسى ثمانية . حمل الرفع المثبت بعد القتل والصلب المنفيين على رفع الروح يجعل لنفهم ما قيمة هزلية
 ١٧٣ الكلام على دعوى ان سيدنا محمد كان لا يلبى طلبات قومه فى اظهار المعجزات واشهاد القرآن
 عليها - ١٧٦ الحكمة فى انزال الآيات الدالة على عدم تلبية الطلبات - ١٧٧ اعتناء القرآن
 بتفهم الفرق بين الرب والمر بوب - ١٧٨ معجزة القرآن بجدا القارى فيها الواسطة والغاية معا -
 ١٨٣ شواهد من القرآن على وجود معجزات لنبيينا غير القرآن - ١٨٨ الاسراء ووحدة الوجود
 ١٨٩ آية الاسراء تأبى كل تأويل ، تقريب المعجزات الى الأذهان بأمثلة من مكشفات العلم
 نزعة من نزعات انكار المعجزات - ١٩٠ النظر فى قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا
 فتنة للناس) - ١٩٣ ما فى معجزة الاسراء من أسرار وأحكام وبشائر - ١٩٨ أوقات الصلاة
 المشار إليها فى قوله تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس الآية) - ١٩٩ - ٢٠٧ البعث بعد الموت
 وتحقيق مسألة اعادة المعلوم بعينه - ٢٠٧ - ٢١٧ خاتمة الأبواب الثلاثة اثبات وجود الله الذى
 يتوقف عليه وعلى حدوث العالم وضع فلسفة عامة لكيان العالم - ٢١٣ أعظم غلطة وقع فيها
 الشيخ محمد عبده

أسماء الرجال المذكورين في الكتاب من غير أعظم الاسلام المتقدمين

مثل الصحابة والتابعين وأقطاب الفقه والحديث

أبرهة ١٠٢، ١٠١ ابن خلدون ٥١ ابن السكيت ٦٨ ابن سينا ٢٠٠ ابن عبد البر ٦٢، ٦٣
ابن عقال الصقلي ٦١، ٤٩ أبو زيد الدبوسي ٢٠٠ أحمد أمين ١٣٨، ١٤١ ارسطو ٢٠٣، ٢٠٠
استانلي جرون ٢٧ استوارت ميل ٢٦، ٣٢، ٣٣، ١٤٩ اشبره نكر ٥٦، ٨٥ اميل سسه ٣١
باستور ١٥٢ بايل ٣١ برنارد شو ٩٠ بلوتن ١٤٦، ١٤٧ بوختر ٣٧، ٣٩ البوصيري ٤٢،
٩٦، ٩٣ بول رانه ١٥٠ جمال الدين ١٤٧ جوستاف اوبون ٣٨ جولدره ١٠٩ الحازمي
٤٧ الحلبي ٢٠٠ حمدي الصغير ١٥٠ حمورابي ١٣١، ١٧٠ خضر بك ٢٥ خضر حسين
٦٨ الخيال ٢٥ الدواني ٩٦، ١٢٩ ديكرت ١٥٢ الراغب ٢٠٠ رشيد رضا ١٨، ٢٢، ٤٢،
٩٠، ١٢٠، ١٣٤، ١٦٣-١٦٥ ريتجهل ٢٩ زاهد ٢٢، ٤٩-٥١ زكي مبارك ٧، ١٢،
١٥، ١٣٧-١٥٠ الزمخشري ١٠٦، ١٦٨، ١٧٠ الزيات ٨٧ سعيد بن السيب ٦٨ سليم
البشري ١٣٥ سليمان الندوي ١٩٢ شاتو بريان ٢٨ شاه ولي الله ١٦٢ شبلي شميل ١٠
شبلي النعماني ٥٣، ٥٧، ٨٦، ١٠٢، ١٨٤ شلتوت ٢، ١٣، ٢١، ٢٤، ٨٧، ١٦٥-١٧٣ شيله
رماخر ٢٩ صدر الدين الشيرازي ٢٠١ طه حسين ١٥٢، ١٥٣ عبدالعزيز البشري ١٣٤
عبد الكريم خان ١٦٥ العقاد ١٢، ١٦٠ علي الجارم ٩٥ الغزالي ٢٠٠، ٧١، ٩٥، ١٦٢ غلام
أحمد ١٢٢ فرح انطون ١٩، ١١٦، ١٤٤ فريد وجدي ٥، ١٠، ١٢، ١٩، ٢١، ١١٣،
١٣٧، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٠، ١٧٣، ١٩٩ فيلهل ١٠٩ قاسم أمين ٩٥ كانت ٣٤، ١٠٦، ١٥٨،
٢٠٦، ٢١١، ٢١٧ كوييه-٣٤ لهيبنتر ٣١، ٣٦٢ مالبرانش ٣٣، ٣٥ محدثات القندي
١١٢ محمد زهران ١٦٤ محمد عبده ١٩، ٢٢، ٨٠، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٥٥، ١٦٢، ٢١٣
محمد ياسين ١٦٤ الراغي ٧، ٤٢، ٧١، ٩٠، ٩١، ٩٣-٩٧، ١٢٩، ١٦٢، ١٨٩ المعري ٢٨،
٣٩، ٤٣، ٤٦ مونتس في ١٠٥ تولدكي ١٠٩ هنري بوانكاريه ٣١ هوكله ي ٣١
هيكل هيوم ٢٤، ٣٠، ٣٤، ٣٦، ٣٧، ٣٨